مجموعة أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله

مُجادلة الآخر

تأليف

أبو القاسم سعد الله

عالم المعرفة
الجزائر

مُجادلة الآخر

طبعة خاصة

2011م

عالم المعرفة
الجزائر

69 تجزئة المندرين تاماريس المحمدية
الجزائر
هاتف فاكس: 021219296
البريد الإلكتروني: email: alemelmaarifa@yahoo.fr
www.algerianbooks.com

تلمسان 2011 عاصمة الثقافة الإسلامية

صدر هذا الكتاب بدعم وزارة الثقافة
في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

بسم الله الرحمن الرحيم

محتوى الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

العولمة والآخر والهوية والحوار والديمقراطية... من مصطلحات المرحلة التي نعيشها وكل مثقف يدلي فيها بنصيبه من المعرفة. وقد لاحظنا أن بعض الآراء مغلوطة ومع ذلك أصبحت سائدة بيننا. لأن الطرف الآخر له من الوسائل ما يقلب به الحقائق ومن الجبروت ما يعكس المنطق، وأمام هذا التصادم الفكري والسيل الإعلامي حاولنا الإسهام برأينا فيما نعرف أنه الصدق وطرح بعض القضايا الحساسة، وأمام مسؤولينا ومواطنينا ومن ناصرنا من أهل الخير والحق، منبهين إلى ما يسميه ابن خلدون بالمغاليط وسوء الفهم والتدبير.

كتبنا هذه البحوث والمقالات في أغلبها عن قرب من الأحداث وعن مشاهدة وممارسة ما يكتب ويجري بشأن هويتنا ومصيرنا. فهي تعبر عن موقف وتصدر عن بينة وتهدف إلى إيقاظ النائمين من أهلنا. ولذلك جلبت إلينا النظر الشزر والاستغراب أن يصدر مثلها من مثلنا، نحن الذين علينا ـ في نظر البعض ـ أن نقبع في جحرنا، وأن نتجه إلى العبادة لا إلى المجادلة وإلى التفرج وليس إلى التدخل، ولكن جوابنا لهؤلاء هو أننا نتدخل فيما يعنينا إلى أن يرث الله الأرض.

وقد رأينا أن نسمي هذه المجموعة من المقالات «مجادلة الآخر» لأنها في جوهرها إخصابات معرفية بيننا وبين الذين لهم رأي فيما نقول ونفعل، وهي تنضاف إلى مثلها من كتبنا مثل (خارج السرب). فهم يتدخلون في شؤون

حضارتنا وتراثنا ومقدساتنا ولا يريدون منا أن نتحرك ونعبر عن وجهة نظرنا في حضارتهم وتراثهم ومقدساتهم.

ولكن هذه المقالات ليست في الحقيقة مواجهات مع الآخر بل هي حقل معرفي وخليط من مواضيع راهنة، وأخرى تاريخية، وثالثة مترجمة، ورابعة من نوع تقديم كتاب أو إبداء ملاحظات، وكلها جاءت لتخدم تياراً رئيسياً لن نحيد عنه وهو التيار الوطني العربي الإسلامي في هذه الديار التي تنشط فيها الأيادي العابثة وتروج فيها الأفكار الملوثة. وعسى الله أن يأتي بالفتح من عنده فيتغلب الخير على الشر(*).

أ. د./ أبو القاسم سعدالله
بن عكنون/ الجزائر
فبراير، 2006

(*) معظم بحوث ومقالات هذا الكتاب نشرت في الدوريات الجزائرية والمراجع العربية.

أين صوت الشعب؟

تجري أمور مصيرية في بلادنا وكأنها صفقات سرية بين أطراف خاصة ذات مصالح معينة بينما هي من صميم الأمور ذات المنفعة أو المضرة العامة التي يجب أن يقول فيها الشعب كلمته بحرية واقتناع لأنها تتعلق بمصيره مصير الوطن الذي يعيش عليه وليست آنية ذات تأثير محدود في الوقت والإنسان.

فإذا استثنينا حدثين أو ثلاثة فإن الشعب غائب من الاستشارة والاستفتاء في قضايا مصيرية مثل معاهدة الصداقة مع فرنسا والارتباط مع الحلف الأطلسي والمنظومة التربوية ومنظمة التجارية العالمية. وأمثالها. ومع ذلك نردد صباح مساء شعار الديمقراطية التي تعني حكم الشعب الحاضر ولا تعني أبداً التفويض المطلق بأن يحكم أحد باسمه في كل الأحوال ومهما طال الزمان.

أمامنا ما تفعله الشعوب الغربية منذ عدة عقود على الأقل: فقضاياها المصيرية تعرض أمامها بكل تفاصيلها للاستفتاء وإبداء الرأي بالموافقة أو عدمها لأنها رائدة ولأن مسؤوليها يحترمونها ويقدمون حكمها فهم يحكمون باسمها ويعملون لمصلحتها وينفذون ما توافق عليه ويلغون ما تعرض عليه. وبهذه الطريقة يزدادون أهمية في نمط شعوبهم كما تزداد هي مكانة في نظرهم وفي نظر الغير أيضاً. إن السائد في الغرب أصبح يسنون القوانين ويمهدون الطريق ويدرسون ويتحرون المصلحة العامة ثم يعرضون الأمر على شعوبهم قبل الأقدام على التوقيع والتنفيذ وربط مصير الشعب بمصير مجهول العواقب.

بينما نحن تقدم إلينا المشاريع والأفكار سواء في الفرص أو بالاختيار من

أجل ذلك، وتعطى تعليمات فقط لتبرير الموافقة للاعتراض وبيان الثغرات والأخطار. ثم يأتي المسؤول ويعلن أن الأمر قد انتهى وأصبح ملزماً للجهات المعينة للتنفيذ فقط. والغرب نفسه أصبح يعرف أسلوبنا في التعامل مع مصالح بلادنا فهي لا تربط كما عنده. برأي الشعب ولكن برأي ومزاج المسؤول أو مجموعة من المسؤولين. ومن السهل على الغرب في هذه الحالة أن يتدخل بالوعد أو بالوعيد فيحقق مبتغاه على أيدي المسؤول الواحد أو مجموعة المسؤولين العاملين في الخفاء. والغرب يعرف أن الأمر لن يخرج إلى الفور للمناقشة ولن يتوقف على الاستفتاء واحتمالات الرفض. لذلك يتجه مباشرة إلى الجهة التي يعرف أنها صاحبة القرار ويعرف أنها مستبدة بالرأي وأنها لا ترد له طلباً وغاية ما تبديه هو تكييف القرار والإعداد لتبريره وإعلانه وإلزام «الشعب» به. وبهذه الطريقة أصبح الغرب يعرف أنه لا رأي لشعوبنا فيما يعلن باسمها وأنها غائبة عن ساحة القرار حتى على التأثير فيه. فإذا أحدث أن أبدى الشعب لا يقوم بذلك تلقائياً وإنما أثير فثار أو أوعز إليه فتحرك، لذلك يطلبون من المسؤولين مباشرة وقف ما يجري ولا يعيرون أدنى اهتمام للفاعل (الشعب).

نحن نتحدث عن الديمقراطية في لحظة سياسية واحدة، وهي موسم الانتخابات. في هذه اللحظة التي تمر بسرعة تظهر فيها الحركة والتجمعات والصور رغم أن البرامج واحدة والمفردات واحدة والإخراج واحد والملحن واحد. فإذا انتهى العرس ورجع الضيوف (الشعب) إلى ديارهم، عادت الديمقراطية إلى نقطة الصفر. فهناك كل أنواع الحيل حتى لا تطبق في الميدان، ويظهر الحاوي (حسب تعبير بني نبي) في ثيابه السحرية وألعابه الشيطانية فيتبارك ديمقراطيتنا وهو يعرف أنها دبرت بليل وطبخت بمهارة حتى تكون على مقامه لأعلى مقاسنا. وما دامت الديمقراطية على هذا النحو فهي لن تسلم من الراشي والمرتشي ومن الناشزة والمفكرة ومع ذلك تنتهي الأمور ولا يرجع إليها بالتحقيق والتثبيت.

ولكن هذا ليس موضوعنا الأساسي. إن ما نريد أن نشير إليه هو أن

الجزائر تعرف في هذه المرحلة التي أطلقوا عليها ـ ظلماً وجهلاً ـ عصر العولمة ومكافحة الإرهاب الإسلامي، منعرجات خطيرة، ومع ذلك لم يستفت الشعب فيها. . هل توقف المسؤولون وشرحوا للناس ما العولمة التي يؤمنون بها والتي يقودون الشعب على ضوئها (أو ظلامها) إلى النحو والتطور؟ وهل كلفوا أنفسهم باسم الديمقراطية أن يقولوا للشعب ما الفرق بين الحداثة والعولمة والتقدم ونحوها من المصطلحات التي فلوكها يومياً ولا نرى منها ما تعدنا به. أننا نسير من الظلام ونمد أيدينا إلى المجهول، فإلى أين نحن سائرون؟

ولنفرض أن العولمة هي قدر لنا، فهل مجرد قوانين واستثمار واتخام البلاد بالمستوردات وإلغاء الثوابت الوطنية والقفز إلى الأمام؟ أنظروا الشعب وحي ما هو منتظر منه، هل شوارعنا وساحاتنا وحافلاتنا وطائراتنا وقطاراتنا تسير حسب مقاييس العولمة. هل تعليمنا ومؤسساته وأساتذته وطلابه يتلقون ما يجعلهم يعيشون العولمة دون خطر عليهم؟ وإذا كان الجواب بالنفي فلماذا يخرجون علينا كل يوم في قبج وكبرياء بأننا نعيش عصر العولمة والحداثة. وإذا كان الجواب بالإثبات فهو هراء وهذيان.

خرج هذه الأيام أحد المسؤولين يتحدث عن انضمام الجزائر إلى منظمة التجارة العالمية الحرة. وأخبرنا أن الجزائر في ذلك «مدعومة» من قبل إفريقيا والمغرب العربي. . . وكم وددت أن أحدهم سأله ما معنى «مدعومة» هذه؟ وما فائدتها للجزائر بعد أن تغرق في بحر المنظمة الأخطبوط وكل تبعاتها وتداعياتها على الاقتصاد الوطني. وكم كنت أود أن أحدهم سأله لماذا لم تجر مناقشات واسعة، على مختلف الصعد المعنية بالموضوع وبكل شفافية ووضوح وانتهيتم إلى ضرورتها وفائدتها للشعب الجزائري، وكم كنت أن أسمع أحدهم يسأله بعد ذلك: لماذا لا تستفتون الشعب في الانضمام أو عدم الانضمام إلى المنظمة؟

ولنقش بقية العناوين الخطيرة على مصيرنا. نفس المنح ونفس الأسئلة

كنت أتمنى أنها أثيرت مع الذين مع يحاولون يربطوننا بالحلف الأطلسي الذي طالما ساعد في حربها لنا، ومع الوجود الأمريكي العسكري والأمني الذي تعاني منه شعوب الأرض اليوم. هل سنستفتي الشعب حول هذا الموضوع؟ ولماذا لا نستعد إن التعاون مع الغير سواء كان قريباً أو بعيداً يحتاج إلى موقف شعبي قوي والتزام منه لا يتزعزع. لأن ذلك يتعلق بمصيره هو لا بمصير المسؤولين على ربطة بعجل هذه الدولة أو تلك. وكم من معاهدة أو اتفاق في التاريخ أصبح بعد سنوات أو عقود قيداً ومذلة للبلاد وشعبها، كما حدث في كوبا وباناما ومحميات الخليج وإمارات الهند.. إننا نريد أن ندخل الصرح ونحن نعرف أنه ممرد من قوارير لا أنه ماء يغرق المغفلين والبلهاء.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للعلاقات مع الخارج فكذلك ليس من حق فرد أو فئة أن تستأثر بإصلاح نظامنا التعليمي والتربوي، مهما أوتيت من العلم والدراسة. نعم لا بد من الإعداد والاستعانة بالخبراء وأهل الاختصاص أولاً، ولكن المرحلة الأخرى هي أن يناقش الموضوع على أوسع نطاق وفي مختلف الولايات ثم تصاغ الخلاصات والبرنامج الأساسي ويعرض الأمر على الاستفتاء لأن مصير الإصلاح يمس كل الشعب ويؤثر على كل الأجيال. ولا يصح أن يصاغ الإصلاح من أصحاب النزوات والموتورون من المدرسة الأساسية ومن أنصار العولمة والحداثة وحدهم، ثم يفرض على جميع بعض غليظة شعارها: هذا وإلا... ومن حق أي قادر على الأدلاء بالرأي من الموضوع أن يبديه دون إقصاء. ولكن إذا صيغ البرنامج وافق عليه الشعب فإنه يكون ملزماً للجميع عن رضا وحماس. والقاعدة تقول: كل مفروض مرفوض. ثم إن الإصلاح يحتاج بعد الموافقة عليه إلى مجلس أعلى للمتابعة والإرشاد، ولا يترك الأمر للجولة والمفسدين ولو قالوا أنهم علماء ومصلحون.

لقد كان الاستفتاء على المصالحة الوطنية نموذجاً، كان على الجزائر أن تحتذيه في كل الأمور المصيرية الهامة. لأن الاستفتاء جُنّة (بضم الجيم) ووقاية للبلاد والشعب وحماية المسؤولين والتزام من جميع الأطراف. وكم نحن في

حاجة إلى تعميم هذه التجربة في إصلاح التعليم (ولا نرى أن الأوان قد فات)، وفي التعاون مع الدول الكبرى وفي الدخول إلى منظمة التجارة. وفي كل ما هو آتٍ مما يربط الجزائر بالقضايا الدولية أو المؤسسات الدولية ذات التداعيات السياسية والاقتصادية والثقافية على مستقبل الشعب. أننا نريد أن يحترم الآخرون كل الشعب الجزائري وليس مسؤوليه فقط. نريد منهم أن يعرفوا ويتأكدوا أن الديمقراطية ليست حكراً على جنس أو دين أو بلاد وإنما هي ممارسة صالحة للجميع إذا احترموها.

13 فبراير 2006

تأصيل الهوية(*)

الجزأرة مصطلح نستعمله للدعوة لاستعادة الجزائر شخصيتها الثقافية التاريخية، وهو مصطلح ظهر عندنا في منتصف الثمانينات عندما بلغت الأزمة حدتها وكان علينا أن نتخلص من معظم الأجانب ونعتمد على أنفسنا في تسيير شؤوننا في مختلف الميادين. وقد استعمل المصطلح نفسه عندنا كتيار فكري سياسي للدلالة على ضرورة انطلاق الجزائر من تجربة علمائها ومفكريها بدل اللجوء إلى تجارب العلماء والمفكرين الأجانب. أما اليوم فنستعمل مصطلح الجزأرة لإضفاء الطابع الثقافي الوطني على مدننا لتكون حقاً وصدقاً جزائرية وليست مدناً هجينة تزيد من حيرة المواطنين وتشككهم في ذواتهم وتاريخهم.

نحن نتصور أن حلول الذكرى الخمسين لانطلاق الثورة ستجعل الجزائريين يغيرون كثيراً من معالم حياتهم، ومنها معالم عاصمتهم ومدنهم وأحيائها وساحاتها وشوارعها بما يتلاءم وعظمة الحدث. فليس من المعقول ولا من الوطنية ولا الشرف أن تظل آثار وأسماء أولئك الذين دمروا الجزائر بكل معاولهم ماثلة أمام الجيل الحاضر. إن المتوقع في هذه المناسبة العظيمة هو أن يأمر المسؤولون في هذا الوطن جميع السلطات المعنية بأن تحدث تغييراً جذرياً، مخطط الأهداف والوسائل، من أجل استعادة مدننا شخصيتها. وعلى المواطنين في هذه الحالة أن يتعاونوا على تنفيذ هذا التغيير، كما تعاونوا أيام الثورة على استرجاع الاستقلال.

(*) نشر بعنوان «جزأرة الجزائر».

رغم غياب مؤسسات التوجيه المعنوي والتعبئة الفكرية والثقافية في بلادنا فإني لا أتصور أن تغيب عندنا جهات مهمتها الحفاظ على طابع المدن وتجميلها وجزأرتها. فلا يعقل أن يحارب الجزائريون قرابه ثماني سنوات ويستشهد منهم مليون ونصف ثم يتقاعسون عن استكمال مظاهر الاستقلال والسيادة المتمثلة في إحياء الرموز التاريخية والفكرية للوطن.

إن الزائر لبلادنا يصدمه بقاء مظاهر الاحتلال في المدن الجزائرية، بما فيها العاصمة. ولا شك أنه سيتساءل مع نفسه: هل عجز الجزائريون عن استكمال الشوط الأخير من استرجاع استقلالهم؟ هل فيهم أنصار العهد البائد الذين يحبون بقاء الطابع الأجنبي لبلادهم؟ كيف يعقل أن تغير الجزائر من نظامها السياسي والاقتصادي ومن مواثيقها وقوانينها ونظامها التربوي من أجل مواجهة العولمة والتعايش مع الآخر ثم لا تهتم بتغيير بيئتها وبنيتها الداخلية التي تعطيها حقيقتها بين الدول والأمم والجماعات أو هم مجرد كتلة بشرية تأكل وتتناسل وتموت وبلادهم مجرد منطقة جغرافية تستقبل الجيوش الغازية، غادية ورائحة؟

معاذ الله أن يكون كل جزائري من الصنف الذي يعيش ويتكاثر ثم يموت. إن الجزائري السلبي فقط هو الذي لا يصنع التاريخ بل يصنع به التاريخ، ولا يشيد المآثر بنفسه بل يشيدها غيره في بلاده، وهو الذي يمر على الدنيا دون أن تسمع أو تحس به. ولكننا نربأ بالجزائري عن ذلك لأن ثورته في حد ذاتها قد حجزت له مكاناً تحت الشمس، وعليه أن يبرهن في دائرة هذه الشمس أنه أهل لهذه الأمانة العظيمة.

نحن نسمع طيلة الأعوام عن مهرجانات وندوات ومؤتمرات لإحياء ذكرى فلان في مدينة شهيرة أو في بلدة صغيرة. وهذا يدل على شغف الناس بماضيهم وبمآثرهم وبالتعلق بأجدادهم وتخليد أسمائهم التي يعتزون بها لأنهم يجدون فيها ذواتهم وتاريخهم، فلماذا لا تتوحد هذه الجهود وتنظم وتنسق وتنطلق في

اتجاه واحد هو جزأرة الجزائر واكتشاف تراثها الذي غيبته أيدي السنين؟

إن إحياء التراث رغبة دافقة تنبع من غريزة كل مواطن. ففي كل بلدية اليوم متنورون يشيرون بإحياء الذكريات وتخليد المآثر على قدر ما يعرفون وما يملكون من معلومات ووسائل. ولكن هذه الجهود بقيت مبعثرة ومحلية وفردية. وقد ينتج عنها تقزيم المحتفى به، فبدلاً من أن يكون رمزاً وطنياً يصبح فقط علماً محلياً. خذ مثلاً ابن باديس، فلو احتفلت به مدينة قسنطينة وحدها لأساءت إليه لأنه في الواقع كان يعمل للجزائر كلها وليس لمدينة بعينها. والأمر كذلك بالنسبة للأمير عبد القادر، فلو احتفلت به مدينة معسكر وحدها لأنزلته دون منزلته لأنه كان يعمل لفكرة شملت الوطن كله. وهكذا يقال عن قادة الفكر والسياسة الآخرين.

إن عدم توجيه الاحتفالات جعل البعض يعبثون برموز الجزائر. فهم يظنون أن من اختاروهم للذكرى يستحقون كل العناية وينسون أو يتناسون الآخرين. فالعابثون قد لا يهمهم من أمر الرموز والمآثر إلا ما أنتجته قريتهم أو مدينتهم أو قبيلتهم. وتبعاً لذلك يأتون بأسماء نكرة يلوكونها سنة بعد أخرى وكأن الأفلاك لا تدور إلا حول هذه الأسماء.

زرت قسنطينة منذ شهور ولما خرجت من محطة القطار واجهني تمثال عظيم ظننته أول مرة لأحد أبطال الجزائر فإذا به تمثال الأمبراطور البيزنطي قسطنطين، أول من اعترف رسمياً بشرعية الديانة المسيحية في دولته. وإذا كان لسلطات الاحتلال مبرر لنصب التمثال وتعظيمه فما المبرر لبقائه في محطة قطار مدينة العلم (قسنطينة)؟ كم مرة ترددت على أسماعنا كلمة (تمقاد) في السنة، وكم مرة ترددت كلمة (سيدي عقبة)؟ وكم زائر زار (تيبازة) و (قبر الرومية)، وهو لا يكاد يسمع بـ (قلعة بني حماد) أو بمدينة (أشير) أو (المشور)؟

لقد أصبح بعض المواطنين يبحثون عن موقع في منطقتهم يهم الأجنبي كقبر مجهول، أو طريق مغمور، أو مدينة وهمية، جلباً للزائر الأجنبي

واستجلاباً لخاطره. ولا يكاد هذا المواطن يعرف أو يعتز بمعلم لمجاهد، أو ضريح لمرابط دافع عن الإسلام أيام حرب الثغور، ولا لمدرسة شيخ قضى حياته في تعليم الناس.

هذا التوجه في تناول حياتنا الثقافية والتاريخية هو الذي أفسح المجال للعابثين والجهلة من أبناء جلدتنا الذين هم ضحايا لتأثيرات خارجية. فالاهتمام بالقديس أوغسطين لم يكن بريئاً من التأثير الخارجي مهما قيل عن أصله وفصله، وعن دينه وعقله. فعقيدته ودفاعه عن السلطة المستبدة هو الذي جعله في عصره وفي العصور التالية علماً على التحدي والتصدي لأعداء الكنيسة والدولة. ومن حق أوروبا والبابوية إذن أن تحي ذكراه وأن تنصب له التماثيل. ولولا ذلك ما أحيا ذكراه المارشال بوجو «قاهر الجزائر» (حسب التعبير الفرنسي) دون غيره من الأعلام. فقد جند له هذا المارشال المدنيين والعسكريين والقساوسة الفرنسيين والأجانب، ووفر لهم المال والمعدات والحماية للقيام باستعراضات طقوسية تمثيلية في عنابة سنة 1843 بينما طمس المارشال نفسه، هو وجنوده وقساوسته، معلماً كان بالجوار وهو مسجد وضريح سيدي أبي مروان وزاوية سيدي البوني التي اشتهرت بالعلم والتصوف.

وقد استمرت هذه العادة فينا حتى بعد استرجاع الاستقلال. فبدل أن نعيد الاعتبار لمن أهملهم الاستعمار أو طمس آثارهم رحنا نبصم باليمين على الصك الذي قدمته لنا جهات مندسة فينا أو محسوبة علينا. وهكذا تركنا مخلفات الاستعمار في ساحاتنا وشوارعنا من أسماء ورموز وأضفنا إليها من عندنا مثلها من الرموز والأسماء غير المألوفة على آذاننا وفي عيوننا والتي لا تحترم ذوقنا لغوياً وإيديولوجياً ونفسياً. من هو (شوفالي) الذي يردده الجزائريون صباح مساء والذي تحتل ساحته مكاناً بارزاً في عاصمتهم؟ ما الذي قدمه للوطن يجعله مقدماً في الاعتبار والاستحقاق على رموز الجزائر في الماضي والحاضر؟ وما قيمة ما قدمه (أودان) للجزائر بالقياس إلى ما قدمه لها أبناؤها الذين أعدموا بعد التعذيب من الثوار والعلماء والمعلمين والأدباء أمثال الشيخ العربي التبسي

وأحمد رضا حوحو والربيع بوشامة وعبد الكريم العقون والدكتور ابن زرجب؟

لقد قامت الفئة المندسة أوائل الاستقلال والبلاد في حالة يعرفها الجميع، بتمرير أسماء زعمت أن أصحابها أنصار للثورة فآمن بمقالها جزائريون كانوا جهلة أو منحرفين أو باحثين عن الشهرة والاعتراف الدولي، وكتبوا لنا في الساحات والشوارع الكبيرة بالعاصمة أسماء أجنبية غريبة. وبدل أن تشتغل الجزائر ببناء نفسها واستعادة شخصيتها صدقت أولئك الأفاقين وجعلت بيتها فسيفساء من الأسماء الغريبة التي تصب كلها في اتجاه واحد، وهو الاتجاه الذي كانت الفئة المندسة تزعم أنه هو طريقها إلى التقدم والازدهار. ومع أن هذا الاختيار قد فشل فإن تلك الأسماء ظلت شاهدة على أن أولئك الأفاقين مروا من هنا وعاثوا في بلادنا فساداً، وهو الفساد الذي عانى منه جيل كامل وما يزال يعاني منه الجيل الحاضر الذي يقول إنه بحث عن الهوية الوطنية فلم يجدها. ماذا تمثل للجيل الحاضر هذه الأسماء: شي غيفارا، وألياندى، وموريس أودان، وشوفالي، وكنيدي، وأولف بالمي...؟ ماذا تمثل هذه الأعلام بالنسبة لجيل حائر يقول أنه لم يعرف من أي قبيل هو؟ من سلالة حمير أو من سلالة عدنان؟ من أتباع أوغسطين أو طارق بن زياد؟

ويجب ألا نخلط الأمور في هذا المجال. فللجزائر ماض سحيق وأبطال وعلماء في كل العصور، ولثورتها أنصار كثيرون. هؤلاء الأنصار ليسوا سواء فيما قدموه لها. ويجب على الجزائر الاعتراف بالجميل لهم جميعاً ولكن على أساس قول الشاعر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

فهناك تفاضل يجب ألا يغيب عن الأذهان. فأبطال الثورة ورموز الماضي من قادة ودول يجب أن يتقدموا على غيرهم. والساحات الكبرى والشوارع الرئيسية يجب أن تحمل أسماء الثوار البارزين وأسماء الدول والممالك والقادة الذين دافعوا عن الجزائر وشيدوا حضارتها. فدولة الموحدين، ودولة

المرابطين، ودولة بني زيان، ودولة بني رستم، ودولة بني حماد. . . وغيرها يجب أن تأخذ مكانها في الساحات والشوارع. وكذلك بعض ملوك وأمراء تلك الدول، وبعض قادة الجزائر العثمانية مثل الآغا حسن الذي هزم الأمبراطور شارلكان أمام العاصمة، وحسن باشا الذي استرجع وهران ومرساها من الأسبان.

ولو كان على الجزائر أن تكرم غير أبنائها لكان عليها أن تختار ساحة لتخليد اسم جمال عبد الناصر. فقد أعطى هذا الرجل للثورة الجزائرية في وقت الشدة من اسمه واسم بلاده وإمكاناته العسكرية والإعلامية ما لم تقدمه أي جهة أخرى خارج الجزائر. ويعرف قادة المناطق ثم الولايات في السنوات الأولى للثورة من هو (الأخ الأكبر) بالنسبة إليهم وماذا يعنيه لهم.

ولو كان التمجيد لشعب دعم الثورة بكل قوة وفعالية وبدون تحفظ لجاء شعب سوريا في الطليعة، ومعه شعب ليبيا وتونس والمغرب. ولو كان الأمر يتعلق بالتدريب العسكري والدعم المالي بكل أريحية لجاء العراق في الريادة، ثم الأردن والسودان. ولو كان الأمر يتعلق بالدعم الدبلوماسي والمالي في المرحلة الثانية للثورة، لكانت السعودية في المقدمة. ولكن الجهل والحماقة، وربما سوء النية، هي التي جعلت صوت فرانز فانون يتقدم على (صوت العرب). وفي وقت من الأوقات كانت صور (كيم ايل سونغ) في بلادنا منتشرة ربما أكثر من الحديث عن نضال فلسطين.

ألم يحن زمن طي هذه الصفحة الباهتة والعودة إلى أصلها (والرجوع إلى الأصل فضيلة)؟ نحن نتوقع أن يحدث ذلك وأن يلبس الجيل الجديد للجزائر ثوبها الطبيعي الذي يناسبها أو يصبغه بألوانها الأصيلة وينزع عنها هذه الأثواب المرقعة البالية التي خاطها غرباء وأفاقون.

دعوني بهذه المناسبة العظيمة أتطوع باقتراح أرجو أن يسهم في استعادة الجزائر لشخصيتها التاريخية والثقافية ويوفي بالعهد لمن ضحوا من أجلها.

وأعني بذلك: إطلاق أسماء الشهداء والعظماء والعلماء والممالك والدول والإمارات التي تداولت على الجزائر ودافعت عنها وحمتها من العدوان بالسيف والقلم. كما أقترح أن نترك حيزاً مناسباً لمن ناصروا الجزائر في وقت الشدة. فالاعتراف بالجميل من أخلاقنا وكرم الضيافة من أصولنا.

ويشمل اقتراحي نماذج فقط من الشهداء والعلماء والدول والأبطال والمدن.

الشهـــداء:

تخصص لهم ساحات وشوارع ومؤسسات ومراكز حسب أهمية كل واحد منهم. ومقياس الأهمية هنا هو دور الشهيد ومكانته في الثورة منذ التخطيط لها ثم قيادة معاركها وتحقيق انتصارها عسكرياً ودبلوماسياً.

العلماء قديماً وحديثاً:

تعطى الأولوية للعلماء والكتاب الذين عاصروا الاحتلال وقاوموه بنضالهم الفكري والعلمي والتربوي للحفاظ على هوية الجزائر، وقد أشرت إلى بعضهم. ثم العلماء الذين سبقوا الاحتلال وتركوا أعمالاً تفتخر بها الجزائر في الفقه واللغة والأدب والتاريخ والفلك والطب والجغرافيا والرحلة والمنطق، أمثال عبد الرحمن الأخضري، وابن معطي الزواوي، وأحمد الونشريسي، وابن قنفذ القسنطيني، وابن حمادوش الجزائري، وأحمد البوني، وأحمد المقري التلمساني، وابن رشيق المسيلي، وأحمد الغبريني، والحسين الورتلاني، وأحمد بن عمار الجزائري، ويحيى ابن خلدون (أخ المؤرخ)، وغيرهم كثير.

الدول والممالك:

هناك دول وممالك تركت في الجزائر آثارها أو نبعت من الجزائر نفسها مثل: الرستمية، والزيرية، والموحدية، والمرابطية، والحمادية، والزيانية، وإمارة بني مزنى، وإمارة سويد، وإمارة ابن القاضي، وإمارة بني جلاب، وإمارة الثعالبة...

القواد والأمراء والملوك:

منهم عقبة بن نافع، وحسان بن النعمان، وطارق بن زياد، وعبد الرحمن بن رستم، ومحمد بن تومرت، وعبد المؤمن بن علي، ويوسف بن تاشفين، ويغمراسن، وأبو حمو الزياني، وبلكين بن زيري، وسالم التومي، وخير الدين بربروس، وحسن آغا، ومحمد الكبير...

المدن الإسلامية:

عاشت الجزائر في محيط من المدن الإسلامية فورثت بعضها وتأثرت بأخرى، ومن هذه المدن: القيروان، فاس، تلمسان، تونس، قسنطينة، بجاية، الجزائر المحروسة، غرناطة، قرطبة، إشبيلية، طليطلة، دمشق، بغداد، القاهرة، مراكش، مكة المكرمة، المدينة المنورة، القدس الشريف، طرابلس، صنعاء، اسطانبول.

وهناك مدن أخرى لعبت دوراً حضارياً بارزاً، وهي: طشقند، دلهي، بخارى، خوارزم، شيراز، صقلية، تمبكتو، شنقيط...

الصحابة والتابعون وقادة الإسلام:

الخلفاء الراشدون (بأسمائهم)، وأبرز خلفاء بني أمية، وأبرز خلفاء بني العباس، وبعض خلفاء وأمراء الأندلس، والمغرب العربي أمثال عبدالرحمن الناصر، أبو الحسن المريني... وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس...

زعماء النهضة:

الأمير عبد القادر، عمر المختار، محمد المهدي السوداني، جمال الدين الأفغاني، محمد بن يوسف أطفيش، طاهر الجزائري، محمد عبده، رفاعة الطهطاوي، شكيب أرسلان، عبد الحميد بن باديس، خير الدين التونسي،

البشير الإبراهيمي، محمد رشيد رضا، محمد علي جناح، مدحت باشا، سليمان الباروني، عبد العزيز الثعالبي، سيد أحمد خان، مالك بن نبي.

علماء المسلمين:

الإمام مالك بن أنس، ابن خلدون، ابن رشد، ابن سينا، ابن طفيل، أبو العلاء المعري، أبو الطيب المتنبي، ابن النفيس، ابن الهيثم، الطبري، البيروني، الفارابي، حجة الإسلام الغزالي، الأدريسي، ابن بطوطة...

أحداث كبرى:

انتصار الجزائر على الأرمادة الأوروبية سنة 1541، فاتح نوفمبر سنة 1954، مؤتمر الصومام سنة 1956، استرجاع الاستقلال سنة 1962، فتح الأندلس، معركة حطين، الانتفاضة...

خاتمة القول:

باعتبار العاصمة هي مقصد كل الجزائريين وما يتغير فيها يهم ويؤثر على الجميع، أقترح ما يلي:

1 ـ تسمية محطة شوفالي الحالية بساحة الموحدين (تخليداً لاسم دولة الموحدين) التي وحدت بلدان المغرب العربي والأندلس في دولة واحدة.

2 ـ تسمية ساحة موريس أودان الحالية بساحة المرابطين (تخليداً لاسم دولة المرابطين) التي شملت معظم بلدان المغرب العربي والأندلس وأجزاء من إفريقيا. (مع إطلاق اسم أودان على شارع من شوارع العاصمة اعترافاً بنضاله).

3 ـ إطلاق شوارع وحدائق وساحات: صوفيا وغيفارا وفرانز فانون وأمثالهم... على سوريا، وجمال عبد الناصر، ومالك بن نبي، على التوالي.

مع إطلاق الأسماء القديمة المذكورة على شوارع ومستشفيات (كما هو الحال بالنسبة لفانون مثلاً) ومدارس تناسب أدوار أصحابها.

وفي الأخير نتمنى أن تستيقظ الضمائر الوطنية، وتتكاتف الصفوف، وتتشابك الأيدي على صنع مستقبل الجزائر الزاهر.

ابن عكنون، الجزائر، 22 سبتمبر 2004

عن القيادة الملهمة

بمناسبة تكريمه وإعادة طبع (أعماله الكاملة) في واحد وعشرين مجلداً تضم 31 كتاباً، ألقى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله الكلمة التالية:

مرت إحدى وخمسون سنة (51) على انطلاقة الثورة، إنها مدة كافية للعبرة والتأمل، فهي تمثل أكثر من جيل في الدورة الخلدونية للتاريخ. وكأن البارحة كاليوم حين انطلقت الرصاصات الأولى إيذاناً بالثورة على الاستعمار ونحن طلاب على أبواب الامتحان في جامع الزيتونة.

كما تلاحظون فأنا من جيل يقال عنه مخضرم. فقد كتب الله لي أن أعيش العهد الاستعماري بكل عنجهيته وقمعه، وأعيش عهد الثورة بكل إصراره وآماله، وإن من عاش فترة الاستعمار وفترة الثورة يصعب عليه أن يقبل ما حدث للجزائر أثناء الاستقلال من خيبة أمل بل ومن مآس أحياناً. لقد كنا نتوق بعد الاستقلال إلى عالم مثالي من العمل الجاد لبناء الوطن واللحاق بركب المتقدمين.

لقد ظَلَمْنا التاريخ عندما لم نواصل معه المسيرة. فقد كان التاريخ قضية كبيرة عند ظهور الحركة الوطنية بين الحربين. كان الوعي بالتاريخ هو الوطنية ذاتها، وكانت الوطنية تعني الاعتزاز بالهوية، وكانت الهوية تعني الانتماء الحضاري للعروبة والإسلام.

هكذا بدأت الوطنية عندنا بمعركة التاريخ. لم تكن المقاومة المسلحة في القرن التاسع عشر تهتم كثيراً بالتاريخ ـ كان همها الأكبر هو الجهاد في سبيل الله

وطرد المحتل من البلاد. أما منذ حركة الأمير خالد فقد كثر الحديث عند قادتنا عن التاريخ وعن الهوية الوطنية.

لقد أنكر المستعمرون وجودنا كأمة. قالوا إن بلادنا كانت سائبة. فتصدّتْ الحركة الوطنية لهذا الادعاء وأخذت تفلي الأوراق وتنبش الماضي لكي تثبت عكس ما ادعاه المستعمرون. وأنتم تعرفون أن هناك جزائريين تبنوا أطروحة الاستعمار في ذلك الوقت وأنكروا وجود أمة جزائرية في التاريخ.

نعم، تصدى حزب الشعب وجمعية العلماء لمسألة التاريخ هذه لارتباطها بالوطنية والهوية. وإذا كان حزب الشعب قد اهتم بالرموز التي وقفت في وجه الاستعمار الروماني والوندالي فإن جمعية العلماء قد اهتمت برموز التاريخ الإسلامي والعربي الذين جابهوا الاحتلال البيزنطي والفرنسي.

وربما أثير استغرابكم حين أقول إنني وجدت في جريدة المنار والبصائر مقالات ضافية عن تاريخ الجزائر قلما نجد نظيراً لها اليوم. وكثيراً ما تعرضت جريدة المقاومة الجزائرية والمجاهد إلى مسألة التاريخ هذه لترد على المستعمرين.

ولعلمكم أيضاً فإن لجنة تكونت سنة 1961 برئاسة السيد ميسوم صبيح لتضع أمام الوفد الجزائري المفاوض تصوراً حول تاريخ الجزائر وكيف يجب أن يكون في اتفاقيات إيفيان، وكيف سيدرس، ومن سيدرسه، بعد الاستقلال. وما يزال تقرير هذه اللجنة حبيس الوثائق الوطنية.

وللأسف فإنه بعد الاستقلال لم نضبط مسألة التاريخ هذه. فقد ظلت مفتوحة للتأويل والاجتهاد، أي بقي يديرها غالباً من كانوا يشككون في وجود أمة جزائرية في الفترة الواقعة بين الحربين.

لقد ظهر بيننا اليوم من يدعو إلى مواطنة جديدة، ومن يشكك في الهوية، ومن يجعل وطننا هو العالم كله، حتى لقد قال أحد الأجانب إن الجزائريين هم مواطنو العالم، ومعنى ذلك أنه ليس لهم وطن حتى بعد الاستقلال، لأنهم

تنكروا لتاريخهم أو شككوا فيه على لسان دعاة المواطنة الجدد.

إننا أضعنا خط السير الذي رسمه الأجداد والذي ارتضته الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية والثورة. والعجب أن السلطة عندنا ومعظم النخب لم تكتف بهذا الطرح بل أدخلتنا في العولمة قبل الأوان فسارعنا إلى تغيير المنظومة التربوية بدون دراسة عميقة لضمان النتائج وعواقب التغيير، وعممنا الإذاعات الجهوية وكأن بلادنا أصبحت مؤلفة من فيدرالية غير متجانسة، وأطلقنا العنان لإنشاء جامعات محلية - بل هي جامعات قبلية وعروشية.

إن تجربة الجزائر في الأمم فذة، فإذا حاولت تقليد غيرها فشلت. إنها فذة في نوع الحكم أثناء العهد العثماني. وفذة في شكل الاستعمار الفرنسي الاستيطاني، وفذة في ثورتها العظيمة، فلماذا تقلد الجزائر غيرها وهي ليست من هذه الطينة أو تلك؟ لقد كان عليها أن تبني شخصيتها وترسخ قيمها إلى أن تنشأ أجيال في ظل سيادة وطنية وثقافة تاريخية واعية مستوحاة من تجربتها الخاصة، ولكن أين القيادة الملهمة؟

الثلاثاء 29 نوفمبر 2005

تكريم بسكرة

أيها الحضور الكريم

لا أستطيع أن أعبر لكم ـ مهما تفننت في انتقاء الكلمات ـ عن سعادتي وأنا أخاطبكم بعبارات الشكر والامتنان على ما تفضلتم به نحوي من تكريم يرفع رأسي ويعلي مقامي بين العاملين لخير هذا الوطن العظيم.

أنتم يا من أعددتم منذ شهور لهذا الحدث المتميز، وأنتم يا من جئتم لتشريف هذا الحفل البهيج الذي يشهد على أن عروس الزيبان تحسن اختيار رفيق دربها، وأن الجزائر البيضاء لا تنسى اليد البيضاء التي مدت لها ساعة العسر.

أشهد أنني إن كنت غائباً عنكم فإني حاضر بينكم، فأنا أنظر الآن إلى وجوهكم الناضرة وأحس بنبضات قلوبكم الدافئة. وها أنا أمد يدي لتصافح يد كل واحد منكم بقوة. وبكل تواضع أقول لكم شكراً على تكريمكم لشخصي الذي هو في الحقيقة تكريم لكل المثقفين والمؤرخين في الجزائر. وشكراً على كرمكم الحاتمي الذي ليس غريباً على أهل بسكرة الأجواد، فهم الذين آووا ابن خلدون، وانتصروا للأمير عبد القادر ورحبوا بابن باديس، واحتضنوا الحركة الوطنية بفرعيها الاصلاحي والسياسي، وظهرت على أيديهم جريدة (الاصلاح) وجريدة (صدى الصحراء) ونافسوا أهل قسنطينة والعاصمة علماً وتعليماً ونهضة وتضحية.

إنني ما زلت أذكر يوم رأيت بسكرة أول مرة في خريف 1947 حين كنت

في طريقي إلى جامع الزيتونة بتونس. ثم أصبحت أنزلها أياماً وليالي، وأتجول في شوارعها وأسواقها، وأستمع إلى أحاديث كبارها وعلمائها، وأطرب لموسيقاها البدوية الجميلة. لم أحس يوماً أنني نزلت ضيفاً على بسكرة. كنت دائماً أشعر أنها مدينتي وأنني فيها بين قومي الأباة. نزلتها صيفاً فعرفت حرارتها الشديدة ومياهها الساخنة، وجئتها شتاء فخبرت بردها القارس، وحللتها ربيعاً فسحرتني بمنظرها الجميل وهوائها العليل وشمسها الدافئة، .وعبرتها خريفاً فشممت عطر تمورها واستمتعت بألوان ثمارها. بت فيها مرات على الأرض مفترشاً الإسمنت الأملس في حوش من أحواش الأقارب، ونمت مرات في فنادقها ذات النجوم الزاهية والحجرات الباهية. ألا ترون معي أن لي مع بسكرة أسرار حب لا تعرفها (بعد الله) إلا هي؟

قرأت عن رجال العلم الذين أنجبتهم بسكرة، فكان على رأسهم علماء الزيبان عبد الرحمن الأخضري صاحب المؤلفات العجيبة في زمن التخلف العلمي في البلاد الإسلامية كلها. لقد أصبح الأخضري منارة يهتدي بها علماء الإسلام. فورد على بنطيوس من أجله علماء أمثال محمد بن علي الخروبي الطرابلسي وأحمد الدرعي المغربي وأبي سالم العياشي والحسين الورتلاني وكل هؤلاء تتلمذوا على مؤلفات الأخضري لقد كانت مؤلفاته نبراساً في الفلك والرياضات والبلاغة والمنطق والتصوف، وكانت تدرس في مختلف المعاهد الإسلامية في الهند ومصر وسوريا واسطنبول وتونس والمغرب. وإلى وقت قريب كانت مؤلفات الأخضري، هي المتون التي يحفظها الطلاب في المعاهد الإسلامية لسهولتها وشمولها ودقتها.

من حق بسكرة أن تفتخر أيضاً بالصحابة والتابعين الذين حملوا راية الإسلام، وعلى رأسهم عقبة بن نافع الفهري الذي قضت حكمة الله أن يضمخ برفاته الطاهرة تراب بسكرة. كما قضت الحكمة الإلهية أن تتضمخ تربتها برفات صحابة وتابعين آخرين، وأن ينتسب إليها سيدي خالد العبسي (على رواية)، والشيخ سعادة، وأبو الفضل البسكري وابن سلامة البسكري، وأضرابهم. أما

في العصر الحديث فإن بسكرة قدمت للجزائر والعرب والمسلمين نخبة ممتازة من أبنائها العلماء والمناضلين الذين نالوا شهادة الحرية وشهادة العلم. وتطول القائمة لو حاولت ذكر أسمائهم. فما بالك بذكر أعمالهم ومواقفهم.

مرة أخرى أشكركم على تفضلكم بحضور هذا الحفل، راجياً قبول اعتذاري الخجول على تغيي الاضطراري. وأدعو الله أن يسدد خطى العاملين على رفعة الوطن. والسلام.

2004/12/19

* نشرت في الشروق اليومي بتاريخ 19 يناير 2005 مع تقديم كتبه الشاعر الأخضر عبد القادر السائحي.

تكريم قسنطينة

أيها السادة الحضور

اسمحوا لي، في البداية، أن أشكركم على هذه المبادرة العلمية الكريمة. لقد شرفتموني بإقامة هذه الندوة التي أرجو أن تكون ملهمة لندوات أخرى تشمل غيري أيضاً. وإن سعادتي لتزداد عمقاً عندما تعقد هذه الندوة في مدينة عزيزة على كل جزائري لما لها من صيت حضاري ممتاز، وهي مدينة قسنطينة التي بدأ ارتباطي بها منذ 1947 والتي أنجبت علماء يشار إليهم وإلى آثارهم الفذة، أمثال ابن القنفذ وعبد الكريم الفكون وابن باديس ومالك بن نبي.

وأغتنم هذه الفرصة لأشكركم جميعاً على تشريفكم لي وتكريمكم إياي، وأخص بالذكر هنا السادة رئيس جامعة قسنطينة عبد الحكيم جكون، ورئيس جامعة الأمير عبد القادر عبد الله بوخلخال، وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية حميد خروف، ومدير مخبر التاريخ والفلسفة إسماعيل زروخي، وجميع أعضاء هيئة التدريس والمشاركين في الندوة القادمين من مختلف الجامعات، والطلبة... الذين شرفوني بالحضور والمداخلات العلمية والذين ستكون كلماتهم نبراساً للأجيال الصاعدة التي تطمح إلى الاهتداء بآرائهم وأبحاثهم في الوقت الذي تعز فيه الوثائق ويغيب فيه الشهود.

أيها السادة الحضور

إن الجزائر، رغم ما يقال عنها لا تتنكر لمن أحبها ولمن عاش وعانى من أجلها. فالوطن يطلب من أبنائه الوفاء والتضحية، ولكنه لا يضيع حقهم في المكانة اللائقة بهم في حوليات تاريخه وسجلات رموزه.

إن هذه الجزائر الحبيبة عاشت بقيم وثوابت أخلص لها أجدادنا وكافحوا من أجلها وماتوا دونها. ولا يليق بجيلنا اليوم أن يتنكر لهم تحت أي عنوان أو مبرر. لقد رفض أجدادنا مغريات الاستعمار في الحصول على مواطنة مزيفة أو جنسية مشوهة بجبرهم على التخلي عن هويتهم (مثل قانون نابليون سنة 1865، ومشروع فيوليت سنة 1936، وقرار لجنة فرنسا الحرة سنة 1944...) ذلك أن أجدادنا كانوا يعرفون أن وراء قبولهم هذا العرض يعني تخليهم عن ثوابتهم المقدسة، وفي مقدمتها الدين الإسلامي واللغة العربية. نعم، إن الإسلام هو الذي أعطى للجزائر اسمها ولونها وهويتها، وهو الذي أمد المجاهدين في جميع الثورات، ولاسيما ثورة نوفمبر، بروح التضحية والفداء، وهو الذي وحد المواطنين على كلمة سواء، وجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

أما اللغة العربية فهي أداة التعبير عن حضارة الإسلام وثقافته وماهيته، وهي لغة الإعجاز القرآني والأدب الإنساني، والصوت المجلجل عن عالمية الإسلام. وفي هذه اللغة من الجمال الفني والذوق الأدبي ما تتفوق به على مختلف اللغات. وهي جواز السفر الإلهي في جيب كل عربي ومسلم إذا مشى في عالمه القديم الممتد من طنجة إلى جاكرتا وفي عالمه المعاصر حيث توجد جالية عربية أو مسلمة. وأنت عندما تسأل الجزائري عن تراثه المكتوب فإنه لا يذهب بك أبعد من الفتح الإسلامي. ومن حسن الحظ أن للجزائر كتابها ولغوييها وأدباءها وعلماءها عبر العصور، وهم ينتظرون من جيل الاستقلال بعث آثارهم والتنويه بإسهاماتهم المدونة بلغة الضاد.

إننا نشهد اليوم تحدياً كبيراً في العلوم والمعارف وفي الثورة التكنولوجية على الخصوص. وعلى علمائنا وطلابنا أن يواجهوا هذا التحدي بالتعلم غير المحدود وإتقان اللغات الحديثة ومنافسة أمثالهم في الشعوب المتقدمة. وقد أثبتت الأيام أن الجزائري قادر على التحدي وعلى تجاوز العراقيل والمثبطات مهما كانت.

فمنذ خمسين سنة كان جيلنا يعيش على وقع «الوطنية» والظفر بالحرية والتخلص من الاستعمار، وكان مقياس الولاء للوطن هو ما يملكه الفرد من روح وطنية واستعداد للتضحية في سبيل الوطن ولكننا اليوم نشهد تغييراً واضحاً في المفاهيم، فقد تغير مفهوم الوطنية لأنها أصبحت تعني إدراك العلم والتكنولوجيا والسيطرة على وسائل المعرفة من أجل حماية الوطن والإسهام في تقدمه، ولم يعد المطلوب هو حماية الوطن بالبنادق ومدافع الهاون. فالجامعات الغربية تجدد نفسها كل خمس سنوات وتجدد موادها برامجها وطرق تدريسها وأساليب التعامل مع الطالب باستخدام الطاقة وعلوم الطب النفسي والأحياء والكيمياء...

لقد حان وقت الخروج من القوالب المحنطة التي ورثناها عن إدارة استعمارية بائدة، وأن لا نكتفي بالتقليد الببغائي وترديد شعارات خشبية عندما نعالج قضايا العلم والتقدم. فالعقل نور قذفه الله فينا وعلينا أن نحسن الاستضاءة به، والعلم حياة أمرنا الله بطلبه (ولو في الصين) لنحيا به حياة العزة والكرامة وندرك به كنه الخلق والخالق والمخلوق. إن العقل لا يعني مجرد التحكم في الغرائز كما يفسره علماء النفس، والعلم لا يعني رفع الأمية وكثرة الشهادات كما هو حالنا نحن اليوم، أو التجمع في مناسبات محددة لاستلام براءات التكريم التي تمنح لغير وجه الله في معظم الأحيان.

دعوني أختم بالعودة من حيث بدأت، فأثمن مبادرتكم، داعياً الله العلي القدير أن يجعلها ذخراً للوطن وفائدة للأجيال الصاعدة. ودعوني أكرر شكري لكل من أسهم في إنجاح هذا اللقاء الطيب الذي أرجو أن تعم فائدته كل ذي فضل على الوطن وثقافته الأصلية، وما أكثر أصحاب الفضل في هذه البلاد!

والسلام عليكم

قسنطينة في 2004/01/11

جدلية الاحتلال والتحرر

لو كنت أمريكياً لهلّلت لمطارحات العرب والمسلمين حول العولمة معتبراً أن الخطاب العربي الجاري من علامات النجاح. ولا شك أن الجزائريين يذكرون أن فرنسا تركتهم في مرحلة من تاريخهم، يختارون: إما الرضى بالعيش تحت هيمنتها والإشادة بحضارتها، وإما الرضى بالتخلف المزري. فهل الاستعمار والعولمة وجهان لعملة واحد؟

عبر أحداث التاريخ والعلاقات الإنسانية هناك جدلية بين الاحتلال والتحرر بحيث لا يمكن أن يكون هناك احتلال بدون مقاومة ولا هذه بدون احتلال. نعم قد يتخذ الاحتلال أشكالاً مختلفة ولكنه يظل احتلالاً وسيطرة على الآخر، فيؤدي ذلك إلى التحدي وردود الفعل وهو ما نسميه المقاومة، والمقاومة قد تكون عنيفة عنف الاحتلال وقد تكون ضعيفة كالتحدي النفسي أو الموقف السلبي، لكنها تظل مقاومة كامنة ومكتومة، في انتظار لحظة الانفجار وفرصة الضرب بقوة وعنف، وعندئذ ترفع المقاومة شعار التحرر من عبودية المحتل الغاشم. إن هذه الجدلية بين الاحتلال والتحرر هي التي تسمى في أدبياتنا الإسلامية بالتدافع، ودفاع الناس بعضهم ببعض، وتداول الأيام بين الناس.

ورغم أننا نتحدث هنا عن جدلية الاحتلال والتحرر باعتبارها تمثل طرفين متعارضين هما المحتل الأجنبي والتحرر الوطني، فإنها تصدق أيضاً على طرفين من أهل الحضارة الواحدة أو الجنس الواحد. فاحتلال المسيحي للمسيحي ومقاومته للتحرر منه، واحتلال المسلم للمسلم ومقاومته للتحرر منه أيضاً نماذج موجودة عبر التاريخ. فالتاريخ الأوروبي حافل بالصراعات بين المحتلين

والمقاومين بين أهل القارة أنفسهم، وحديث ابن خلدون عن العصبية القبلية والغلبة القومية (من نفس القوم) بين أهل الحضارة الإسلامية يدخل في هذا المجال.

ولكن حديثنا هنا يتناول تدافع الحضارات المختلفة مع بعضها، وصراع القوي مع الضعيف على الإطلاق، كاحتلال الرومان والفرس للشعوب المجاورة لهم في العصور القديمة، واحتلال الغرب للشرق في العصور الحديثة. كما سيتناول حديثنا ما يترتب على ذلك من تحديات ومقاومة وردود أفعال قامت بها حركات تحررية للتخلص من هيمنة الأجنبي ولو كان من نفس الحضارة.

ونعتقد أنه قد حان الوقت لنعرف الاحتلال والتحرر قبل المضي إلى صلب الموضوع. ففي القاموس السياسي واللغوي أن الاحتلال conquête, conquest هو فرض هيمنة بالقوة العسكرية على قوم عجزوا عن صده بكل أشكال المقاومة. أما المقاومة فهي كل فعل يتصدى للاحتلال ويعمل على إنهاكه وتكسير شوكته. وهذه العملية النضالية هي التي نسميها «تحرراً». فالذين يقاومون الاحتلال إنما يريدون التحرر منه لكي يتمتعوا بحريتهم ويحافظوا على ذاتيتهم وخصائص حضارتهم، وهي التي أصبح يطلق عليها في العصر الحديث «الهوية الوطنية». ومن الواضح أنه لا يوجد من يرضى بالاحتلال حتى ولو كان من سكان الأدغال أو «الشعوب البدائية». فهؤلاء يقاومون الدخلاء عليهم لا باسم الحرية والهوية الوطنية والحضارة ولكن باسم غريزة البقاء التي ترفض كل هيمنة أجنبية ولو كانت تريد إخراجهم من حالتهم «البدائية». وإذا كانت هذه حالة الإنسان البدائي فكيف تكون حالة الإنسان الذي ارتقى درجات في سلم الحضارة وأصبح واعياً لدوره في مسيرة الحياة؟

وإذا كانت هناك إشكالية للتحرر والتحدي فيجب أن نعترف بأن هناك إشكالية للاحتلال والهيمنة أيضاً. فليس كل شعب أو دولة تستطيع أن تفرض الاحتلال وليس هناك تلقائية الاحتلال، كما لا توجد وسيلة واحدة له. ففي

العصر الحديث نجد الأوروبين قد مارسوا الاحتلال على مراحل في مناطق كثيرة من العالم، حسب استعدادات كل شعب وإمكانيات كل دولة. ففرنسا مثلاً حاولت الاحتلال في أمريكا الشمالية وفي الهند ولكنها أجبرت من قبل منافسيها على التخلي عما احتلته. وبريطانيا جربت عدة أنواع من الاحتلال في الهند قبل أن تفرض هيمنتها عليها سنة 1858. وقد بقي احتلالها لمصر ثنائياً تتقاسمه مع فرنسا حتى بعد سنة 1882 أي إلى ما يعرف بالاتفاق الودي سنة 1904. ونفس الشيء يقال عن البرتغال في الخليج العربي والبحر الأحمر وجنوب شرقي آسيا، ثم إسبانيا في الأمريكيتين.

ولكن الجيش الفرنسي الذي انهزم في مصر وفي أوروبا انتصر في إفريقيا، فقد استطاع بعد خمس عشرة سنة من واترلو أن يحتل الجزائر. لماذا؟ ربما لأن الجزائر كانت مستهدفة بالاحتلال منذ العهد النابليوني، فقد قيل إنها كانت مستهدفة قبل مصر، ربما لأنها أقرب مسافة لفرنسا من مصر، أو لأن وضعها السياسي والاجتماعي جعلها أكثر قابلية للغزو، أو للتخلص من مشكلة الديون التي كانت الجزائر تطالب بها. ولكن ذلك كله لا يقوم دليلاً على نجاح الاحتلال. أما الذي كان وراء النجاح فهو إطلاق الدول الأوروبية يد فرنسا خارج أوروبا، ومساندة الطبقة الليبرالية الفرنسية الجيش الفرنسي في مغامراته لأنها كانت تبحث عن أسواق ومستعمرات تنافس بها الطبقة الليبرالية الإنجليزية. كذلك وجدت أسرة البوربون المحافظة مصلحتها في إبعاد الجيش عن مسرح الأحداث والزج به في مغامرة يكون فيها شارل العاشر هو اللاعب الناجح سواء انتصر الجيش أو انكسر. فكان احتلال الجزائر رهاناً لعدة أطراف في فرنسا تتسابق كلها على كسبه.

وهكذا نرى أن إشكالية الاحتلال تحتاج - مثل إشكالية التحرر - إلى ظروف مواتية واستعدادت مناسبة. فقد نجح الإنجليز في الشرق الأقصى والأوسط لأنهم كانوا مندفعين من أجل تسويق إنتاج الثورة الصناعية، ولهم أسطول ضخم وخبرة دبلوماسية واسعة، بينما في الطرف الآخر كان هناك دول

منغلقة على نفسها، مثل الجزائر، حتى أن السياسة التي عرفها الإنجليز ثم الأمريكيون في الشرق الأقصى عرفت بـ (سياسة الباب المفتوح) أي أنه كان على تلك الدول، ولاسيما الصين وما جاورها، أن تفتح أبوابها للغربيين ليستثمروا ويقيموا القواعد العسكرية ويعقدوا الصفقات التجارية. كما وجدوا شعوباً نائمة أو متخلفة غارقة في الأمية والعزلة. فكان على الاحتلال أن يرفع عند آذان تلك الشعوب شعار: «حي على الفلاح» كما ترفع أمريكا اليوم في الشرق الأوسط شعار: «حي على الإصلاح».

لقد أدى عنف الاحتلال الإنجليزي في الهند بعد ثورة السيبوي سنة 1857 إلى إخماد الثورات عموماً فواجهت الفئات الاجتماعية إشكالية التحرر بطريقة لا تضر بها لحمل السلاح من جديد. وهذا الوضع في الهند يذكرنا بوضع الجزائر بعد ثورة بوعمامة سنة 1882. وكما قربت فرنسا المارونيين على المسلمين في لبنان قربت بريطانيا الهندوس (البراهمة الآريين) على المسلمين في الهند. وأحس المجتمع الهندي بلحظة حيرة وعجز عن مجابهة الواقع: رأى البعض الخلاص في التعامل والتعاون مع إدارة الاحتلال والإقبال على الوظائف المفتوحة والتعلم في المدارس الإنجليزية. وكان هذا هو موقف أعيان الهندوس بعد أن لوحت لهم إدارة الاحتلال بتميزهم على المسلمين. وكان على رأس هذا الاتجاه الهندوسي النخبة التي تزعمت حزب المؤتمر الهندي الذي برز إلى الوجود سنة 1885 بتحريض وتشجيع من الإنكليز أنفسهم.

أما مسلمو الهند فقد اختلفوا مع مواطنيهم الهندوس حول التعامل مع المحتل، وأصروا على رفض الاحتلال بكل أشكاله. كان المسلمون يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعي في السلطة وأن الإنكليز اغتصبوا منهم السلطة وحرموهم من حقوقهم وامتيازاتهم في الهند. ولكنهم اكتشفوا بعد عقود أن الهندوس يتقدمون وهم يتأخرون في السياسة والثقافة والاقتصاد. فظهرت منهم فئة تدعو إلى تغيير هذا الوضع وإلى منافسة جيرانهم مع المحافظة على تراثهم وهويتهم الإسلامية. وأعلنت هذه الفئة أنها مستعدة أيضاً لتولي الوظائف

المفتوحة أمام كل الهنود ودخول المدارس الإنجليزية في الهند وحتى في بريطانيا نفسها. وكان على رأس هذا الاتجاه الإسلامي (الجمعية المحمدية) التي أسسها سيد أحمد خان، أحد رموز الإصلاح والتغيير في الهند الإسلامية.

تطور حزب المؤتمر الهندي إلى حزب مسالم «يطالب» الإدارة الإنجليزية بالحقوق الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، ولا يتجاوزها إلى الحقوق السياسية والوطنية. وخلالها ظهر على الساحة الوطنية الهندية (غاندي) فبعث في حزب المؤتمر روح الاحتجاج والعصيان بدل المطالبة الهادئة. ورأى غاندي أن استعمال الوسائل السلمية يمكن أن يؤدي إلى نتائج إيجابية، فاتخذ عدة أساليب لإقناع الإنجليز بضرورة الاعتراف بحقوق الهند، ومنها أسلوب اللاعنف، وأعلن عن مقاطعة البضائع البريطانية وقاد مسيرات العصيان والامتناع عن دفع الضرائب، وأصبح «اللاعنف» مذهباً سياسياً تحررياً معروفاً. وأصبح المهاتما غاندي رمزاً لهذا المذهب، بينما لم يتفق الجميع على فعاليته، فقد ظهر من الهندوس من دعا إلى العنف والثورة ضد الاحتلال الإنجليزي. أما المسلمون الهنود فقد قادتهم الجامعة الإسلامية التي ولدت سنة 1906 والتي تزعمها فيما بعد محمد علي جناح الذي دعا إلى إنشاء دولة خاصة بالمسلمين باسم باكستان. وقد قاد محمد علي جناح الجامعة (الحزب) إلى تحرير باكستان سنة 1947.

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد قامت نتيجة الصراع الطبقي والقومي فإنها قد أدت إلى تغييرات جذرية في المفاهيم وفي الخريطة الدولية. من ذلك ظهور القوميات المحلية أو الحركات التحريرية الوطنية التي كانت تنمو تحت الاستعمار، مثل الحركة الفيتنامية والحركة الهندية، والحركة المصرية والحركة الجزائرية، وهي الحركات التي عرفت في أدبيات العصر باسم حركات الشبان أو الفتيان (مثل مصر الفتاة والجزائر الفتاة). وقد ظهر على رأس كل حركة زعيم أفرزته أحداث الحرب العالمية الأولى، فكان هوشي منه الفيتنامي، وغاندي الهندي، والثعالبي التونسي، وزغلول المصري، والأمير خالد الجزائري. وكان

هؤلاء الزعماء يفكرون سياسياً من أول أمرهم وينشطون على الساحة الدولية وينسقون جهودهم مع التيارات الأوروبية المناصرة لقضاياهم. والملاحظ أن أغلب هؤلاء كانوا ينشطون خارج أوطانهم لأن السلطة المستعمرة منعتهم من حرية التنظيم والتعبير فيها. وكانت وسيلتهم لرفع مظالمهم وعرض مطالبهم هي العرائض والتوصيات وإصدار الصحف وتوزيع المنشورات السرية... وقد عانت معظم القيادات الوطنية السجن والنفي. ومن المفارقات في هذا المجال أن اضطهاد هؤلاء القادة كان أيضاً مدرسة يتدربون فيها على الزعامة. فالجدلية هنا بين التحرر السياسي والقمع الإداري.

ومن التغييرات التي حدثت في المفاهيم والعلاقات الدولية ظهور مبدأ تقرير المصير. لقد كان إقرار هذا المبدأ في ظاهر الأمر طعنة في خاصرة الاستعمار، ولذلك رفضته الدول الكبرى عندئذ، مثل بريطانيا وفرنسا، لأنه يؤدي إلى تفكيك إمبراطورياتها ويحرمها من اليد العاملة الرخيصة، ومن الأسواق المربحة، ومن مستعمرات كان (المعمرون) يعيشون فيها في بحبوحة من الأمن والسلام. ولكن مبدأ تقرير المصير جعل «الأقليات» والجنسيات المختلفة تتحرك بدافع النعرة القومية والعصبية الوطنية فطالبت، بلغة السلم أولاً وبلغة العنف ثانياً، بحق تقرير المصير والتحرر. وقد ساعد على ذلك إنهيار أربع إمبراطوريات على الأقل بعد الحرب وإعادة تشكيل خارطة أوروبا والمستعمرات. فظهرت ألوان كثيرة على الخريطة الدولية لم تكن موجودة من قبل، وكذلك ظهرت لغات وأعراق متنوعة. وسرعان ما انتقل ما حدث في أوروبا من تغييرات إلى آسيا وإفريقيا. فاعترف العالم باستقلال ذاتي لجنوب إفريقيا، وحققت مصر استقلالاً محدوداً، ونال العراق استقلاله، وانفصلت باكستان عن الهند، واستقلت إندونيسيا بمساعدة اليابان، وحصلت سوريا ولبنان على وعد بالاستقلال، ولكن الشمس لم تشرق بعد على الجزائر.

كان على هذه الحركات الوطنية التي جوبهت بالعنف من إدارة الاحتلال أن تطور كفاحها وتكيف وسائلها في التحرر. ومنها حركتا الجزائر وفلسطين.

فوسائل العنف القديمة لم تعد تجدي، ورفع راية الجهاد وحده لم يعد يكفي لأن الاستعمار نفسه طور وسائله واكتسب مناعة قوية. فقد ظهرت في ظله حركات وأحزاب تدعي الاعتدال وتطالب بالاندماج والتعايش مع السلطة الاستعمارية. وأفرزت المدرسة الاستعمارية نفسها ذهنيات جديدة تساعد على إزالة الحواجز اللغوية والنفسية بين الأهلي والمستعمر. وتحرك النظام الإداري ففتح مجالاً محدوداً للتمثيل النيابي وغير لهجة الخطاب، واعترف بضرورة الإصلاح. ودخلت على الخط بين الأهلي والمستعمر أحزاب ومنظمات إنسانية وحقوقية واشتراكية تنادي بتحسين أوضاع (الأهالي) ومعاملتهم معاملة إنسانية حسب المواثيق الجديدة التي صيغت في جنيف.

غير أن الأساليب الاستعمارية لم تقرب (الأهالي) من التحرر. ولم يكن هناك بد من اللجوء إلى السلاح بعد فشل السياسة والاحتجاج بالقوانين الدولية ومبدأ تقرير المصير. وهكذا لم يبق أمام حركات التحرير سوى حمل السلاح فشنت حركات فيتنام وكينيا وفلسطين وتونس حرب عصابات. بينما بقي الجزائريون ينتظرون الفرصة. وقد طال عليهم أمد الانتظار واستفحل خلافهم حول الزعامة وتوقيت وجاهزية الثورة. لقد كان شبح مجازر مايو 1945 يخيم على الرؤوس ويؤثر على خطط المسؤولين، فهم يخشون من انتكاسة جديدة ومقتلة رهيبة أخرى بعد أن جربوا الثورات وعانوا من فشلها. إذن ما جدلية التحرر الجديدة في الجزائر؟ هل هي العنف مقابل العنف من جديد؟ هل هي السياسة مقابل السياسة؟ هل هي العنف مقابل السياسة؟ لقد حاول بعض القادة التفاوض مع الحلفاء فلم يحصلوا على طائل، وجربوا حظهم في الانتخابات فكانت مثالاً في التزوير، ولكن ذلك لم يؤد إلى التحرر المنشود.

لقد نشبت الانتفاضة في تونس والمغرب وقامت ثورة في مصر كانت في صالح حركات التحرير في آسيا وإفريقيا، كما نالت ليبيا استقلالها مما أعطى للجزائريين مساحة جغرافية عريضة للتحرك وأغراهم بالعمل الثوري. وكل هذه التطورات قد أثرت إيجابياً على حركات التحرير ليس في الجزائر فحسب بل في

الوطن العربي وآسيا وإفريقيا، مما جعل مؤتمر باندونغ 1955 يكتسي طابعاً خاصاً بالنسبة لهذه الحركات. لقد كان العالم عموماً يعيش مرحلة صراع إيديولوجي حاد بين المعسكرين الشرقي والغربي. وقد تساءل بعض الجزائريين: ألم يان للثورة أن تنفجر عندنا أيضاً؟ وجاء الجواب ولكنه لم يأت هذه المرة من الأحزاب المعروفة وإنما جاء من تنظيم سري أطلق على نفسه في النهاية اسم (جبهة التحرير الوطني). فكانت الجدلية هذه المرة بين الاحتلال والثورة مجدداً باعتبار الثورة هي أعلى درجات المقاومة.

لم يكن الذين تبنُّوا الثورة من القادة البارزين ولا من المفكرين المعروفين وإنما كانوا من المناضلين الثانويين في صفوف حزب الشعب/ حركة الانتصار. وفيهم عادت الجزائر إلى الأسماء المجهولة والمصطلحات الرمزية التي عرفتها أثناء انتفاضات القرن التاسع عشر فبدل محمد بن عبد الله وجدنا سي المبروك، وبدل بوشوشة وجدنا سي لطفي، وبدل فلان وفلان وجدنا صوت العرب وهواري بومدين... ولعل ما امتاز به الجيل الجديد من الثوار عن زملائهم هو عدم خوضهم في السياسة الانتخابية والسعي إلى الزعامات الفردية، فكان همهم الأكبر هو تجاوز الخلافات الفردية والإيديولوجية إلى عملية التحرير، وانتزاع الشعب حقه في تقرير المصير، ودفع القادة المعروفين إلى الانصهار في بوتقة الكفاح الثوري بدل الاستمرار في أوهام النظريات واحتمالات المفاوضات.

وقد استغرق اتخاذ المواقف حوالي سنة ونصف. والواقع أن كل الأطراف كانت في حاجة إلى هذا الوقت، فالثورة احتاجته لتثبت للجزائريين أنها تختلف عن الثورات الأخرى، وأنها منغرسة هذه المرة في تربة الشعب، وأن الذين يقودونها لا يبحثون عن شهرة أو زعامة وإنما هم عناصر من مختلف أطياف المدن والأرياف عاشوا على نبض الناس بعيداً عن الجدال والنقاش السياسي العقيم. كما أن القيادة السياسية التي فوجئت بالثورة احتاجت إلى وقت لتتعرف على مبادىء وأهداف العناصر الجديدة قبل أن تتخذ قرارها من الثورة. وهناك قطاع عريض من الرأي العام كان أيضاً ينتظر المزيد من المعلومات عن أصالة

الثورة. ونفس الشيء يقال عن الأنصار في الخارج، فالعرب والأصدقاء في باندونغ وفي أروقة الأمم المتحدة كانوا يتطلعون إلى معرفة حجم وإيديولوجية وقيادة هذه الثورة الوليدة قبل الالتزام بنصرتها، ذلك أن بيان أول نوفمبر ليس فيه كل الجواب على هذه التوقعات ولا يكفي وحده لإقناع المترددين والسائلين.

كان على الثورة إذن أن تراجع نفسها وأن تعيد النظر في وقع خطواتها ومدى علاقاتها الداخلية والخارجية، وأن توسع من دائرتها لكي تنفتح في الداخل على مختلف التيارات والقيادات بشروط معينة. فكان في برنامج الصومام جواب لأغلب المساءلات. ولم يكن برنامج الصومام «المانشفيكي» شافياً لكل الأطراف. فقد كان في الجيل الجديد من الثوار «بولشفيون» لهم رؤيتهم في الثورة ورأوا أن مؤتمر الصومام قد حرمهم منها وبالتالي حرمهم من عرض وجهة نظرهم في سير الثورة ومستقبل الوطن. وهكذا انهزموا أمام التيار الداعي ربما إلى جعل الثورة جماهيرية/ منشفية لا نخبوية، وقومية/ إسلامية لا وطنية محلية.

ومع ذلك كان لبرنامج الصومام أهميته العلمية والتاريخية. فقد أعاد هيكلة الثورة على أسس جديدة واضحة، واحتضن كل متعطش لاسترجاع استقلال الجزائر، وفتح أبواب الثورة أمام الراغبين في الانضمام إليها بشروط مخففة. أما على المستوى الدولي فقد مد مؤتمر الصومام يد الثورة لطلب الدعم والمساعدة، وأعلن للغرب ما لا يخيفه كما أعلن للشرق ما يرضيه. ويمكن القول إن الثورة قد تخلت، في سبيل هذا التكتيك المؤقت، عن بعض أصالتها ورموزها، واتبعت استراتيجية جديدة تتمثل في التعاون مع الكل (إلا الضالين) في سبيل استرجاع الاستقلال. وبذلك قد يصح القول إن الثورة تخلت عن إشكالية التحرر الشامل من الاحتلال واكتفت باسترجاع الاستقلال السياسي.

وفي الختام يمكن أن نخرج من هذه الورقة بالنقاط التالية:

1 ـ أن انطلاقتها تقوم على مبدأ (من عزّ بزّ)، أي أن كل قوة، سواء كانت روحية أو فكرية أو عسكرية أو اقتصادية، تريد فرض نفسها على غيرها بمختلف الوسائل، بما فيها التأثير السلمي والتدخل العسكري.

2 ـ أن الثورة ضد المحتل هي أعلى أنواع المقامة، وأن الثورة بدون برنامج هي عبث أو انتحار لأنها فاقدة لمبدأ وجودها. ولنتصور مصير الثورة الفرنسية بدون شعار الحرية، والثورة البولشفية بدون الإيديولوجية اللينينية، والثورة الجزائرية بدون راية الجهاد.

3 ـ أن الحضارات تتدافع وتتغالب. فكما أن هناك قابلية للاستعمار هناك قابلية للعولمة. ويخطىء من يعتقد أن العولمة أو (الأمركة) متوجهة فقط لشعوب الشرق الأوسط أو العالم الإسلامي، فالواقع أن أوروبا نفسها تعيش الأمركة منذ خطة مارشال. والأوروبيون يئنون من (الأمركة)، ولكن على طريقتهم الخاصة... وأنتم ترون الآن كيف ينظم الأوروبيون أنفسهم كقوة موازية لأمريكا في مختلف المجالات.

4 ـ أن خطابنا الراهن حول العولمة يدل على عدم النضج في اتخاذ موقف منها. فبدلاً من أن نفعل، نحن المسلمين والعرب، ما تفعله الصين وأوروبا، نكتفي إما بجلد أنفسنا إلى درجة الموت وإما بالدعوى إلى الانهزامية القائلة بضرورة ركوب موجة العولمة حتى لا تفعل بنا ما فعلته (تسونامي) في جنوب شرق آسيا. فأين العقل أيها السادة؟

الجزائر 14 يناير 2005

*** قدمت في ملتقى وزارة المجاهدين (فندق الأوراسي): (إشكالية التحرر والتحديات الدولية الراهنة) أيام (6 ـ 8 فبراير 2005). ثم نشرت في وقائع الملتقى.**

من الشرع الفرنسي إلى الشريعة الإسلامية

تاريخ الجزائر يجعل أولي الأمر منا (إن كانوا منصفين) يراجعون «قرارهم السيادي» في إلغاء شعبة الشريعة الإسلامية والتقليل من أهمية التاريخ في المدارس. وليس عيباً ولا تخاذلاً أن يرجعوا إلى الحق، ولكن العيب والتخاذل كل التخاذل في الإصرار على الخطأ، سيما إذا كان الخطأ جسيماً ويتعلق بهوية الأمة وحضارتها.

القياس مع الفارق

في البداية دعونا ننبه إلى أنه من الخطأ قياس الجزائر على البلدان الإسلامية الأخرى لاختلاف تجربتها مع الاستعمار. فالجميع يعرف أن تجربة الجزائر الثقافية والتعليمية مع هذا الاستعمار كانت تجربة فريدة من نوعها... فريدة لا في إيجابيتها، ولكن في سلبيتها، وهي التجربة التي لم تعشها لا تونس ولا المغرب مثلاً، ولم تعشها حتى إندونيسيا تحت الاستعمار الهولندي المشهور بالتجهيل والاستغلال.

لقد تعرضت الجزائر إلى تشويه مبرمج لحضارتها وإلى تغييب مخطط لتاريخها وإلى طعن مدروس في دينها مما يبرر لها اليوم اتخاذ الخطوات التي تستعيد بها شخصيتها وتصحح بها ما أفسده الاستعمار من ذاتها. فإذا تجرأنا نحن أنفسنا على زعزعة الثوابت وخلخلة القيم وقفزنا إلى حلبة الأمم التي لم تتعرض ثوابتها إلى التشويه فإننا سنكون من الذين (يخربون بيوتهم بأيديهم) بتكوين جيل جاهل برسالته وعاق لوطنه.

نعم إن الجاهلين فقط هم الذين يتجرءون اليوم على ركوب سفينة تائهة في عرض البحر ويسوون بين الجزائر وبقية البلدان الإسلامية التي ربما تكون قد أصيبت «بالتخمة» من دراسة الشريعة واللغة والتاريخ، أو التي ربما لم تحسن برمجة هذه المواد والتخطيط لمستقبل أبنائها حين يتخرجون في الشريعة واللغة والتاريخ ثم لا يجدون مكاناً لهم في المجتمع ولا في سوق العمل مما قد يؤدي إلى التذمر المفضي إلى التطرف المفضي بدوره إلى الفتنة.

إن جيلنا لم يدرس ـ كما هو معروف ـ تاريخ الجزائر ولا لغتها ولا شريعتها على الحقيقة. فنحن جيل عربي بالوراثة ومسلم بالفطرة ويعرف تاريخ بلاده بالهواية لا بالتعلم والدراسة والفهم. فالجزائري من جيلنا لم يذق ربما حلاوة الإيمان عن وعي ومعرفة وعقيدة، ولم يتمتع بأحكام الشريعة ويقف على عدالتها ومنطقها لأن أغلب حكامه قبل الاستعمار كانوا غارقين في الجهل، ثم كان حكامه في العهد الاستعماري (ضغثاً على إبالة) فحرموه من الشريعة والتاريخ واللغة دراسة وتطبيقاً.

من محمد إلى بوسكي

فقد عوض الفرنسيون شريعتنا بقوانين نابليون وتدخلوا في أصول وفروع قضائنا وفلسفة الحكم عندنا، بل تدخلوا حتى في تفاصيل أحوالنا الشخصية. فكانوا هم المشرفين على مؤسساتنا الدينية والتعليمية، وهم الذين يعينون لنا المدرسين والقضاة، وهم الذين قاموا بتفسير شريعتنا من مصادر ديننا، بل هم الذين قرروا في مكاننا ماذا ندرس وماذا نترك من أبواب الفقه الإسلامي، وهكذا منعوا شيوخنا من تدريس أبواب كاملة في الفقه، كباب الجهاد، وتشريع الجزية، تماماً كما يفعل الأمريكيون اليوم في الشرق الأوسط واليهود في فلسطين.

تخصص بعض القضاة الفرنسيين في شريعتنا وأصبحوا هم الآمرين والناهين فيها، وهذا شيء يغبطون عليه، فترجموا مراجعنا في الفقه المالكي مثل سيدي خليل، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وتحفة الحكام لابن عاصم،

وادعوا أنهم يفقهون موطأ الإمام مالك ومدونة الإمام سحنون أكثر من علمائنا الذين أعدوهم بأنفسهم في مدارسهم الخاصة، وهم في ذلك صادقون لأن علماءنا قد سدت في وجوهم دراسة الشريعة الإسلامية على حقيقتها. لقد أصبحت الشريعة الإسلامية غريبة بين أهلها، كما أصبح التاريخ واللغة لغزاً أو حراماً على أهلهما.. ومن القضاة الفرنسيين الذين تخصصوا في الشريعة الإسلامية وحلوا محل القضاة المسلمين: زيس، وسوتيرا، ومورينو، وبوسكي...

هل نحن في حاجة إلى التذكير بسورة (لا أقسم بهذا البلد)؟ لقد خلق الله الجزائر في كبد حين سلط عليها استعماراً فرنسياً، ثم سلط عليها بعض أبنائها المغضوب عليهم الضالعين في ركاب هذا الاستعمار المنكود. إن من عيوب الثورة الجزائرية أنها لم تفرق بعد انتصارها بين من كان معها وبين من كان عليها، فقد احتضنت أنصارها وأعداءها على السواء في وقت واحد ورفعت شعار المصالحة مبكراً، فكانت النتيجة هذه الطبعة الهجينة من الثقافة والإسلام والتاريخ، وكان المواطن الجزائري كالبصير في بيت مظلم يتلمس طريقه ولا يكاد يهتدي إليه إلا مجروحاً أو ملدوغاً.

طالعوا، إن شئتم، عن علماء الجزائر الذين هاجروا مشرقاً ومغرباً، وابحثوا عنهم وهم مشردون يميناً وشمالاً بعد أن جردهم الاستعمار من صلاحياتهم ومكتباتهم ومؤسساتهم. ثم اسألوا عن مصير مؤسسة القضاء، ومؤسسة الإفتاء، ومؤسسة التدريس، ومؤسسة البحث والتأليف. هل تجدون لها أثراً أو تسمعون لها ركزاً؟ لقد اكتفت الإدارة الاستعمارية بإنشاء ثلاث مدارس على أنقاض كل تلك المؤسسات لتخريج رجال «الإسلام الجزائري» الذي أصبح يوظف «رجال الدين» على المقاس، وحسب «مناصب الشغل» المتوفرة ـ وقلما تتوفر ـ أي عند خلو المنصب بوفاة أحد القضاة أو المدرسين. ورغم هذه المعاملة المهينة فإن بعض القضاة الباقين استمروا في الإلحاح على ضرورة احترام الشريعة الإسلامية التي كانوا ينظرون إليها على أنها آخر حصون الشخصية الوطنية.

وهنا يحق للمرء أن يسأل: لماذا بدأت الثورة بتطبيق الشريعة الإسلامية في المناطق المحررة وأمرت الشعب بعدم التعامل بالقوانين الفرنسية العلمانية؟ قد يكون هناك تفاسير مختلفة لهذا الموقف، ولكن أغلب الظن أن الشعب الجزائري كان متعطشاً للحكم بشريعته التي حرم منها عقوداً طويلة. وربما كان أوائل الثوار يعتقدون أنهم بذلك يطبقون مفهوم الدولة الجزائرية القادمة طبقاً «للمبادىء الإسلامية» التي نص عليها بيان أول نوفمبر. إن الشريعة الإسلامية كانت بالنسبة للثوار في الميدان هي رمز الوحدة الوطنية وهي مرجعية الهوية الحضارية.

إن حكامنا السابقين استنكفوا، لسوء حظنا معهم، عن تأسيس جامعة إسلامية تحفظ التراث الوطني وتكون منطلقاً متجدداً للهوية، مثلما السوربون لفرنسا وكامبريدج لبريطانيا وليدن لهولندا. . . فلم يكن من بين حكامنا من كان بعيد النظر كالمأمون أو عبد الرحمن الناصر أو حتى سيد أحمد خان، فينشىء للأمة معلماً حضارياً تتخرج منه أجيال من النخب والنوابغ في الدين والعلم والفكر، أو من كان يتطلع إلى المجد والخلود وإقامة صرح لهم في معبد التاريخ.

هذه المعجزة فأين النبي؟

وحدثت المعجزة وتحقق الاستقلال فكان عند البعض يعني استرجاع الهوية المفقودة لأن استقلالاً بدون هوية ما هو إلا شقشقة بعير ونفخ في رماد. واستبشر المواطنون بالحديث المتكرر عن الثوابت، وقرءوا: (جاء الحق وزهق الباطل)، وتطلعوا في الأفق لعل «سيداً» حقيقياً يصعد قمة جبل الهقار ويؤذن في الناس أن قد آن الأوان ليعرف الشعب حقيقته ولغته وتاريخه وشريعته. وفي ضباب التخبط في وحل الاشتراكية المستوردة ظهرت بارقة أمل تسمى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة (وقبلها ظهر معهد أصول الدين في العاصمة). فدل ذلك على شعور بعض المسؤولين بضرورة بعث مؤسسة

وطنية إسلامية تملأ الفراغ الذي تركه الحكام الجهلة وتكون منارة للمغرب العربي كله، سيما بعد أن خبا نجم الزيتونة في تونس وتعطلت منابرها وحلقات تدريسها.

بدأت جامعة الأمير تعمل عملها وتشق طريقها الصعب وسط كيد الكائدين، ولم يكن من المنتظر منها أن تحقق هدفها في ظرف عقدين أو ثلاثة، بل يكفيها أنها انطلقت في الاتجاه الصحيح، وأقبل عليها الأساتذة والطلبة والزوار ليكتشفوا مفخرة الجزائر الجديدة الخارجة من رماد الثورة وغبار السنين العجاف. ولكن الظروف الصعبة التي مرت بها الجزائر جعلت جامعة الأمير الإسلامية نفسها من ضحاياها. وكان من نتيجة تلك الظروف الخوف من المتخرجين منها فتقرر تقليص دورها وتخفيض عدد طلابها وفتحها للأساتذة العلمانيين وتحويل وجهتها وجهة تعليمية عادية. فهي اليوم جامعة لا تكاد تختلف عن أية جامعة أخرى في القطر، سواء في برنامجها أو في أساتذتها أو في توجهها.

وإذا نجح «قرار السيادة» الذي سمعنا عنه، فإننا قد لا نسمع مسقبلاً عن تخصص في الشريعة الإسلامية في الجزائر على مستوى الدراسات العليا. وسيكون على الجزائر أن تبعث بطلابها لمواصلة دراستهم العليا في المؤسسات الإسلامية خارج الجزائر، أو أن تستورد الأساتذة ليدرسوا لأولادنا الأحكام الشرعية التي سنكون في حاجة إليها، مع ما في ذلك من مغامرة قد لا تحمد عقباها. ونحن نعرف أنه لا يجوز لحملة الشهادة الثانوية من شعب أخرى دراسة الشريعة الإسلامية في الجامعة، ولكننا نتحفظ على ذلك لأن مراعاة التخصص منذ الدراسة الثانوية أمر توجبه الدراسة الجامعية الصحيحة، ولكن لا بد من إضافة مواد علمية وأدبية ولغوية وفلسفية في المستوى الجامعي لكي يتخرج الدارس «عالماً» بالمفهوم التراثي والعصري معاً. ولماذا لا تصبح جامعة الأمير الإسلامية في الجزائر مثل الجامعة الإزهرية في مصر، كاملة الأدوات، متكاملة التخصصات، ولكنها في نفس الوقت تتمتع بطابع خاص.

إن هناك فرقاً في نظرنا بين إعادة تنظيم الدراسات الإسلامية واختيار عدد الطلبة في الشعب المعنية، وبين إبقاء الأمور على ما هي عليه. فإذا أراد أولو الأمر أن يعيدوا النظر في البرامج وفي نوعية الطلبة وعدد المؤهلين منهم للحياة العلمية، فلهم ذلك، بل هو الواجب الذي تفرضه المنافسة وروح التقدم والتفوق، لأن الدراسة العشوائية والمناهج التقليدية لا جدوى منها للجميع. ولكن إلغاء شعبة الشريعة الذي يعني في النهاية نسف الدراسات الإسلامية من أساسها، كما يتخوف البعض، هو فعل غير حكيم.

ألا بعداً للإيديولوجية في التربية

كما أن منح عهدة التصرف في مثل هذه المسألة الحساسة إلى أناس لهم إيديولوجيتهم الخاصة نحو الدراسات الإسلامية عموماً، وربما نحو الإسلام نفسه، يعتبر تصرفاً خاطئاً من أساسه، ذلك أن ما نسمعه يجعلنا نشك في أن هناك تعليمات خارجية بشأن إلغاء شعبة الشريعة، بل يبدو أن هناك قناعات شخصية وإيديولوجية يريد البعض فرضها على المجتمع، وإنما وجدوا في الحديث عن التدخل الخارجي فرصة للتدثر برداء الحداثة ومضغ الكلام عن العولمة والتلويح بسلاح الخوف من «الإرهاب». ومن الخطر على الأمة أن يتولى تصريف شؤونها الحساسة من لهم أحكام مسبقة وإيديولوجية ضيقة. وكم جلبت «فتنة خلق القرآن» على الأمة الإسلامية من ويلات، وكم جلبت الإيديولوجيات المتطرفة كالنازية والفاشستية والستالينية من ويلات أيضاً على الأمم المعاصرة. إن الجزائر يجب أن تبقى بعيدة عن هذه العقائد الضيقة والعقد المتطرفة وأن تكون منظومتها التربوية منفتحة ومتسامحة دون إهمال ثوابت الأمة وشخصيتها.

ومرة أخرى نقول إن الجزائر ليست كالبلدن الإسلامية الأخرى في كل شيء، فهي تريد أن تحس بنبض تاريخها وبيان لغتها وطعم شريعتها في مختلف مجالات الحياة. ومن حسن الحظ أننا سمعنا أيضاً بوجود مشروع رسمي لبناء

مسجد نموذجي في العاصمة، فلماذا لا يكون هذا المسجد المبارك نواة لمعلم تفاخر به الجزائر جاراتها من الحواضر الشرقية والغربية فيستقبل طلاب الشعب المكرسة للشريعة الإسلامية ويخرج منهم نوابغ من العلماء الذين تحتاجهم البلاد في الداخل والخارج؟ ولماذا لا يكون هذا المسجد منارة للحضارة العربية الإسلامية على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ما دامت للشعوب الأخرى مناراتها؟ وما الفائدة أن يكون مسجداً للعبادة فقط ما دامت الأرض كلها قد جعلت بِساطاً طهوراً للصلاة؟

9 يونيو، 2005

الجزائر المضطربة أو بين جبهة التحرير والحزب الشيوعي

تقـديـم

عندما تذكر الكتب التي ألفت عن الثورة الجزائرية إبان اشتعالها تذكر الكتب التي كانت تدعمها، والتي كانت تقف ضدها، ثم المحايدة. ويأتي كتاب مايكل كلارك (الجزائر المضطربة) في مقدمة الكتب المعادية للثورة. ومع ذلك فهو كتاب موثق ومليء بالمعلومات التي ما تزال إلى اليوم حبيسة الأرشيف. ولذلك رأينا أن نترجم منه فصلاً عن العلاقة بين جبهة التحرير الوطني والحزب الشيوعي الجزائري أثناء الثورة، وبالأخص العلاقة بين مكافحي الحرية وجيش التحرير الوطني.

طبع هذا الكتاب مرتين إبان الثورة في ظرف قصير. الطبعة الأولى ظهرت سنة 1959، والثانية سنة 1960، وقد اقتنيت هذه الطبعة فور صدورها، وكنت إذاك أحاول المقارنة بينه وبين كتاب جوان جيلسباي (الجزائر: تمرد وثورة)[1] الذي يعد كتاباً معتدلاً، وكتاب إدوارد بير (المشكل الجزائري)[2]، وكتاب

(1) ترجم هذا الكتاب إلى العربية من قبل عبد الرحمن أبو طالب، الدار المصرية، القاهرة 1963، وكذلك من قبل خيري حماد دار الطباعة، بيروت 1961 بعنوان **الجزائر الثائرة**.

(2) إدوارد بير E. Behr المشكل الجزائري.

ريتشارد بريس (الجزائر في محنة)[1]. وكلها كتب تصنف ضمن الكتب المقبولة أو حتى المتعاطفة مع الشعب الجزائري أثناء الثورة. أما كتاب مايكل كلارك، Michael Clark فكنت كلما قرأت منه أستشيط غضباً وأتهم صاحبه بالعداء للشعب الجزائري وثورته وأعده من أنصار المستوطنين دعاة «الجزائر الفرنسية» ومن أنصار الجيش الفرنسي الذي كان يحميهم. ولذلك يمكن أن نعد كلارك في أقصى اليمين بلغة السياسيين اليوم. ولا أعرف أن كتابه قد ترجم جزئياً أو كلياً إلى اللغة العربية.

جاء في غلاف كتاب (الجزائر المضطربة Algeria in Turmoil) أن مايكل كلارك عمل مراسلاً لجريدة (النيويوك تايمز) في شمال وغرب إفريقيا مدة أربع سنوات، وغطى لها الثورة الجزائرية، ومن ثمة فإنه عندما كتب عن (الجزائر المضطربة) لم يعتمد فقط على معلومات مأخوذة من الشخصيات والحوادث ذات الصلة بالثورة ولكنه أتى أيضاً بمعلومات مأخوذة من الوثائق الرسمية التي لم تكن مفتوحة من قبل للجمهور. وقبل أن يتوجه كلارك إلى شمال إفريقيا أوائل سنة 1953 كان مراسلاً لجريدة (التايمس) في الشرق الأوسط في باريس، ثم أصبح مرتبطاً بمكتب العمل الدولي في جنيف.

قدم الناشر للطبعة الثانية من هذا الكتاب بقوله في الصفحة الداخلية إن هذا أول كتاب شامل عن الثورة الجزائرية في أي لغة. إنه كتاب يقدم تحليلاً شاملاً للوقائع السياسية والدينية والعرقية التي تبرز الصراع الجزائري الحالي. ففي صفحات هذا الكتاب وصف مفصل للثورة وخلفياتها وعواقبها، وهو يحتوي على سبع خرائط بما فيها خريطة الصحراء الجزائرية..

وقد أضافت معلومات غلاف الكتاب أن السيد كلارك تتبع تاريخ الجزائر منذ الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الثانية إلى اندلاع الثورة الوطنية سنة 1954. ثم تتبع الحركة الجزائرية في مراحلها المتتالية من العنف والقمع،

(1) ريتشارد بريس R. Brace الجزائر في محنة.

موضحاً القصة في صلتها بالخلفية المعقدة للسياسات العربية والاضطراب والتراوح الفرنسي. وفي نفس الوقت قام بشرح عجيب للصعوبات التي ظهرت بسبب وجود ثقافتين تتصارعان بيأس في بلد واحد، الأولى ثقافة حديثة ومتقدمة تكنولوجياً، والأخرى ما تزال مقيدة بتقاليد عتيقة ونظام قانوني بال.

وفي ضوء هذا المضمون فإن التاريخ المفصل الذي قدمه السيد كلارك يزداد عمقاً ويتقاطع بحدة مع صلاحية المقولة المبسطة: إما الاستعمار وإما الاستقلال، التي اعتاد القارىء الأمريكي العادي للصحف أن يحكم بها على القضية الجزائرية. وفي الفصل الأخير وصف المؤلف وناقش الأحداث التي جاءت بالجنرال ديجول إلى السلطة في ربيع 1958 وأوضح كيف أثرت سياسة هذا الجنرال الجزائرية على نتائج الثورة وتطورها. لقد أضاف السيد كلارك معلومات جديدة لهذه الطبعة جاعلاً من مادة كتابه هي الأكثر فائدة والأحدث زمناً فيما توفر من دراسات عن الثورة الجزائرية.

2005/5/28

النص المترجم

كما رأينا[1] فإن الحزب الشيوعي الجزائري قد تمزق بدعمه الكامل لقضية التمرد[2] التي كان من عواقبها خروج معظم الأعضاء الأوروبين منه. وقد وضع يوجين منوني Mannouni النقاط على الحروف عن هذا الموضوع حين نشر في جريدة لوموند مقالته عن الشيوعيين الجزائريين. لقد قال في هذه المقالة:

إن معظم الذين تعرضوا للسيد موليه [3] Mollet حين زار الجزائر في فبراير 1956 كانوا عمالاً منظمين لا يختلفون في هياجهم عن قدماء المحاربين اليمينيين. فالتهديد الإرهابي الذي شعر به في نفس الوقت عمال سكيكدة وملاكو عين عبيد قد أثار نفس القلق لدى كل الأوروبيين. لقد حل رد الفعل العنصري محل الأولوية بالنسبة للتضامن الطبقي السابق[4].

لقد لاحظ السيد منوني أيضاً أن العضوية في الحزب الشيوعي الجزائري لم تتجاوز في أي وقت اثني عشر ألف عضو. ثم أضاف «فإذا كان ثلاثة من

(1) بدأنا الترجمة من صفحة 320 وانتهينا إلى صفحة 329، وقد سبق للمؤلف أن تحدث عن نشاط الحزب الشيوعي وجبهة التحرير قبل هذه الصفحات.

(2) يقصد الثورة، وهو لا يسميها كذلك وإنما يعتبرها تمرداً على سلطة شرعية هي السلطة الفرنسية.

(3) هو جي موليه رئيس وزراء فرنسا وزعيم الحزب الاشتراكي، وقد زار الجزائر فاعتبره المستوطنون لينا من الثورة فضربوه بالطماطم والبيض وثاروا في وجهه فقطع زيارته ورجع إلى بلاده وغير سياسته وتوعد الثورة بالويل والثبور.

(4) أنظر لوموند، 23 مارس 1957 (المؤلف).

الخمسة الذين في قيادة الحزب مسلمين فإن أربعة أخماس أعضائه كانوا أوروبيين، ورغم محاولة الحزب الشيوعي الجزائري أن يكون «جزائرياً» فإنه بقي ملتصقاً كالضمادة بالحزب الشيوعي الفرنسي. ذلك أن خلاياه كانت غير مرتكزة في القصبة، ولكن في الأحياء الإسبانية ـ الجزائرية من وهران بينما كانت فروعه في مدينة الجزائر مرتكزة في الحيين الآهلين بالسكان وهما باب الواد وبلكور، في حين كان العمال، كما قال السيد منوني، هم «ضحايا الإرهابيين الذين يتربصون في ساعات الفجر».

قبل اندلاع الثورة[1] استطاع الحزب الشيوعي الجزائري أن يرسل نائبين عنه من الدرجة الأولى[2] إلى البرلمان في باريس (وهما السيدة ألس سبورتس Sportisse وبيير فايي Fayet). كما استطاع الحزب أن يرسل نائباً من الدرجة الأولى أيضاً إلى المجلس الجزائري[3]، وهو السيد رينيه جيسترابو Justrabo. ولكن نجاح الحزب في انتخابات الدرجة الثانية كان ضئيلاً. إن كل من بقي في الحزب في بداية 1956 كانوا أعضاء نشطين أوفياء يكافحون من أجل إنشاء قوة قادرة على خوض حرب عصابات وقادرة أيضاً على السيطرة على مساحة صغيرة تمثل المطرقة والمنجل[4]. إن الشيوعيين لا يمكنهم أن يأملوا في تحقيق أكثر من ذلك دون حرمانهم ذات يوم من غنيمة الانتصار.

إن قضية الطالب العسكري هنري مايو H. Maillot أحسن ما يوضح هذه الخطة والأخطار المحدقة بها. ففي فجر يوم الرابع من أبريل 1956 غادرت

---

(1) سبق أن المؤلف يسميها تمرداً rebellion وليس ثورة revolution.

(2) كانت الهيئة الانتخابية في الجزائر مقسمة إلى قسمين على أساس عنصري: الأوروبيون ويمثلون هيئة إنتخابية من الدرجة الأولى، والمسلمون ويمثلون هيئة انتخابية من الدرجة الثانية.

(3) هيئة محلية استشارية مكونة من نواب أوروبيين يمثلون الدرجة الأولى ونواب مسلمين يمثلون الدرجة الثانية.

(4) يعني بهما شعار الشيوعيين.

مدينة مليانة شاحنة عسكرية محروسة محملة بالأسلحة والذخيرة متوجهة إلى مدينة الجزائر الواقعة على بعد 74 ميلاً جنوب شرق مليانة. ووصلت الشاحنة إلى هدفها قبل الساعة التاسعة صباحاً بقليل. وبمجرد ما غادرها حراسها للبحث على شيء يأكلونه صعد الطالب العسكري (مايو) الذي كان يقود القافلة، إلى جانب السائق، وهو بريفات جاك دوميرق Private J. Domergue وأمره أن يواصل سيره نحو غابة (بينام) الواقعة غرب مدينة الجزائر. لقد عثر فيما بعد على الشاحنة. كما عثر على السائق مربوطاً في شجرة، ولكن مايو اختفى واختفت معه حمولة السلاح والذخيرة.

كانت الأسلحة المفقودة تتمثل في رشاشات خفيفة وبنادق ومسدسات وكمية من القنابل اليدوية. لقد تردد أن الجريدة الشيوعية السرية (ليبرتي) قد أمرت أعضاء الحزب أن يحصلوا على الأسلحة بأية طريقة ممكنة لتسليح القوات التي تخوض معركة تحرير الجزائر. وبعد يومين صدر بلاغ من (مكافحي الحرية)، وهو تنظيم لحرب العصابات الشيوعية، يعلن أن مايو قد انضم إلى (قوات المقاومة). وقد تضمن البلاغ أيضاً قائمة بأسماء الأسلحة المسروقة. وفي الثامن عشر من شهر مايو أرسل (مايو) نفسه رسالة في شكل منشور مطبوع على الميميوغراف إلى رفاقه القدماء، وهم فيلق النقل رقم 504، وإلى الشرطة والصحافة شرح لهم فيه أن انضمامه إلى صفوف المكافحين الجزائريين إنما هو استجابة منه لنداء حزبه.

وقد علم أن مايو من مواليد الجزائر العاصمة منذ 28 سنة خلت، وهو ابن لموظف بلدي كان سابقاً كاتباً عاماً لاتحاد الموظفين البلديين الذي يسيطر عليه الشيوعيون. ثم أصبح مايو الابن أيضاً كاتباً عاماً لاتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية، وهو منظمة شيوعية طليعية، وموظفاً محاسباً في الجريدة الشيوعية اليومية وهي (الجزائر الجمهورية). كما مثل مايو الجزائر في مؤتمرات الشباب التي انعقدت في براغ ووارسو. ولكنه عندما تطوع للقيام بدور نشيط في الجيش (الفرنسي) وأصبح جندياً احتياطياً، أقسم أنه قطع جميع علاقاته بالحزب. إن ما

يعنينا الآن هو رأي المسؤولين فيه، فهو عندهم: «حي الضمير، منظم في حياته، مخلص في عمله، جلد، منضبط تماماً، كما أنه في صحة جيدة، وجد مؤهل لحمل السلاح». ولكن هذا المدح لم يؤثر كثيراً على المحكمة العسكرية في مدينة الجزائر التي حاكمت مايو غيابياً في الثاني من مايو 1956. فقد حكم عليه بالموت.

وفي يونيو 1956 شوهدت فرقة مسلحة في مكان لم يكن من قبل موضع عمليات يقع قرب (لامارتين) شرقي أورليانزفيل[1]. هذه الفرقة عاينتها وحدة أمنية فهاجمتها خارج قرية تسمى (بودوان). لقد سقط في هذه المجابهة سبعة ثوار وأوروبيان. ورغم بياض الشعر والحواجب فإن إحدى الجثتين الأوروبيتين سرعان ما عرفت بأنها جثة هنري مايو. أما الجثة الأوروبية الأخرى فهي لشخص يدعى موريس لابان M. Laban الذي كان مديراً لمدرسة في بسكرة الواقعة في مقاطعة قسنطينة والذي كان رئيساً لخلية شيوعية هناك[2]. هذا الشخص (لابان) كان قد اختفى من مقاطعة قسنطينة في شهر ديسمبر 1955. وقد وجدت نسخة من قرار الوالي بطرده على جثته.

لقد بات واضحاً الآن أن الشيوعيين كانوا يحاولون إنشاء موضع قدم لهم من أجل خوض حرب عصابات خاصة بهم في منطقة أورليانزفيل. ولعلهم كانوا في هذا المشروع مدعومين من قبل الفروع المحلية للحركة المصالية، أي الحركة الوطنية الجزائرية (MNA)، وهي المنظمة التي كانت ما تزال مؤثرة نسبياً في المنطقة ولكنها ما تزال في حاجة إلى حلفاء أكثر من حاجة جبهة التحرير إليهم (أي إلى الشيوعيين). حقيقة أن البرهان على ذلك مطلوب هنا، ولكني لا أستغرب إذا علمت أن جبهة التحرير لها يد في القضاء السريع على المجموعة الشيوعية في (بودوان).

---

(1) هي الأصنام ـ حالياً الشلف، ولامارتين هي كريمية اليوم.

(2) عن موريس لابان Laban انظر كتاب: Laban Maurice Un Algerien J. Einaudi (جزائري: موريس لابان)، édition, ge Cherche Midi. Paris. 1999.

لم ينج إلا عضوان فقط من المجموعة الشيوعية، وهما لوسيان أحمادو غراب[1]، الهارب من الجيش مثل مايو، ومحمد بوعلام سكرتير اتحاد عمال الميناء في وهران ومحرك الإضراب السياسي في وهران في الثالث من فبراير 1956[2]، كلا الرجلين اختبأ بعض الوقت عند الدكتور ميشيل مارتيني الجراح الرئيسي في مستشفى أورليانزفيل الذي يقال إنه كان عضواً سابقاً في خلية شيوعية في سان أندري قرب باريس. ثم اختفى الرجلان (غراب وبوعلام) في وهران. ولكن في شهر أغسطس توجه غراب نحو الجنوب، تاركاً بوعلام وراءه، والتحق بالجبال قرب تلمسان.

وفي ليلة 26 أغسطس 1956 اكتشفت دورية بدوية (فرسان احتياطيون) جماعة كبيرة من الثوار كانت في اليوم السابق قد اختطفت أربعة من الأروبيين. إن الاشتباك الذي حدث شمال تلمسان بين قنطرة يسر والعبدللي Les Abdlellys[3] قد كلف الثوار أربعة عشر قتيلاً وأسر ثائر واحد. والمعلومات المأخوذة من هذا الأسير هي التي شجعت قوات الأمن لتقوم بعملية تمشيط في المنطقة. ثم حدث

---

(1) ولد غراب في البليدة سنة 1926 وهو ابن لمدير مدرسة قبائلي اختار الحالة المدنية الشخصية (أي تخلى عن أحواله الشخصية الإسلامية). وبعد أن ترك غراب الابن الدراسة الطبية في الجزائر ورمى بنفسه في الحركة الشيوعية، انضم إلى هيئة تحرير جريدة (الجزائر الجمهورية)، وكان يكتب فيها باسم أحمد أغريب. وفي يونيو 1955 نودي عليه للخدمة العسكرية كاحتياطي إداري الفرقة الطبية وعين في مستشفى (دوكرو) Ducros العسكري في البليدة. وفي 7 أبريل 1956 هرب الطالب العسكري، أغريب (المؤلف).

(2) كان مكافحو الحرية تحت قيادة عبد القادر (لوسيان) قروج، وهو مدير مدرسة سابقاً. وقد حاولت المنظمة قبل حلها الإبقاء على «مجموعات عمل حضرية» في مدينة الجزائر، بالإضافة إلى مجموعة شيوعية في الجبال. أما قروج فقد قبض عليه في يناير 1957. (المؤلف)

(3) هي سيدي عبدللي حالياً.

اشتباك ثان في أول سبتمبر قتل فيه هذه المرة، ثائران وأسر اثنان، أحدهما كان يلبس لباساً عسكرياً (الخاكي) ويحمل مسدساً ثبت أنه هو غراب. أما رفيقه (ميلود القاسمي) فقد كان يلبس لباساً مدنياً ويحمل رشاشاً من نوع (طومسون)، وحين مثل غراب أمام محكمة وهران في الحادي عشر من سبتمبر حكمت عليه بالموت، بينما حكمت على القاسمي بخمس سنوات سجناً.

ورغم النهاية القاسية التي وجدها غراب نفسه، أو لعل ذلك كان بسببها، فإن لسانه ظل يتحرك بحرية فارضاً على السلطات الفرنسية مواجهة منظمة شيوعية سرية في مقاطعتي الجزائر ووهران. وفي الرابع عشر من سبتمبر، اختطف ثلاثون شخصاً من بينهم خمسة أوروبيين. وكان الدكتور (مارتيني)، جراح مستشفى أورليانزفيل و(بوعلام) الزعيم العمالي في وهران من بين المخطوفين. وقد ادعت الشرطة أن المنظمة الشيوعية كانت تساعد الثوار في الحصول على الأسلحة والذخيرة وتوفير الطعام والمخبأ واستمرار الاغتيالات، واستعمال العنف والتحضير للأعمال التخريبية لخطوط السكة الحديدية.

وفي نفس الوقت تخلى الشيوعيون عن فكرة إنشاء منطقة حرب عصابات خاصة بهم. ففي الأول من يوليو 1956 صدر بلاغ قيل أنه صادر عن مركز القيادة العامة لمكافحي الحرية. أعلن البلاغ عن حل الوحدات الشيوعية و «اندماجها» في جيش التحرير الوطني التابع لجبهة التحرير. وقد قال البلاغ أيضاً إن تنظيم مكافحي الحرية قد أنشيء لكي يشرك الشيوعيين والوطنيين معاً في النضال المسلح. ودون إعطاء أي سبب لهذا التحول في السياسة اكتفى البلاغ، بكل بساطة، بإصدار الأمر إلى أعضاء مكافحي الحرية أن ينضموا إلى جيش التحرير الوطني بأسلحتهم وتجهيزاتهم وأن يقبلوا بسلطة جبهة التحرير عليهم.

ومنذ ذلك اليوم فإن هدف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري (التي كان يرأسها. . . الدكتور الصادق هجريس) هو أن تحصل على موافقة جبهة التحرير على تشكيل لجنة للمقاومة غير سياسية شبيهة بمجلس المقاومة

الذي سيّر حركة المقاومة في فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية. إن مثل هذه اللجنة، كما أرادها الشيوعيون، ستجمع ممثلي كل المنظمات التي ترغب في لعب دور نشيط في «تحرير الجزائر» وستكون راضية بالتخلي عن قرارات سياسية أساسية مؤقتاً في انتظار التعبير عن الإرادة الشعبية بواسطة مجلس تأسيسي مثلاً. إن هذا الاقتراح سيعطي بالطبع للشيوعيين أيضاً، صوتاً في الهياكل العليا للثورة وفرصة للمناورة بحرية أكثر في توقعات الصراع السياسي القادم. ولكن جهود الشيوعيين في هذا الاتجاه كانت بدون جدوى لأنهم كانوا يسيرون في الخط المعاكس للطبيعة الحقيقية للثورة الجزائرية. والواقع أن الثورة الجزائرية تختلف عن حركة المقاومة الفرنسية بخصوصية واحدة أساسية وهي أن الذين صنعوها كانوا يطلبون السلطة لأنفسهم فقط. وبالإضافة إلى ذلك فإن الشيوعيين المتعاطفين معهم كانوا أقوى وأكثر عدداً في فرنسا، ولم يكن حالهم كذلك في الجزائر. فليس إذن من المتوقع أن ترضى الجبهة بالتنازل للشيوعيين في مقابل تعاون ودعم ليست في حاجة إليهما.

وقد اعترف العربي البوهالي، الكاتب العام للحزب الشيوعي الجزائري، أن الحزب، بفشله في إلقاء نفسه في أتون الصراع العسكري عند اندلاع الثورة قد اتبع طريقاً خاطئاً. ولكن البوهالي أخبر أحد الصحافيين في برلين في يناير 1957 أن الحزب قد أدخل بعض التعديلات، وقال إن «القوات المسلحة» باتفاق مع جبهة التحرير قد انضوت تحت لواء جيش التحرير الوطني، وأضاف أن الحزب الآن يتطلع إلى المشاركة في تشكيل سياسة جبهة التحرير الوطني. ولكن البوهالي لم يشر إلى أن جبهة التحرير قد رفضت هذه الفكرة قبل هذا التصريح.

قبل هذا التصريح بشهر أيضاً كتبت جريدة (المجاهد) اللسان المركزي للثورة، بطريقة جارحة عن «القيادة الشيوعية البيروقراطية» التي فقدت الاتصال بالشعب ولم تكن قادرة، كما قالت الجريدة، على «تحليل الوضع الثوري تحليلاً صحيحاً». إن الحزب الشيوعي الجزائري قد انتهى كقوة يحسب لها

حساب. كان ذلك هو كل الشكر الذي حصل عليه الشيوعيون على «دمج» وحداتهم في جيش التحرير الوطني وعلى قبولهم سلطة جبهة التحرير الوطني. إن وجهة نظر الثوار في الواقع كانت بسيطة جداً وهي أن جبهة التحرير ترحب بمكافحي الحرية كـ «مجاهدين»، ولكنها عازمة على المحافظة وعلى حدودية الهيكلة، لذلك رفضت عروض الزعماء الشيوعيين.

ورغم ذلك فإن الشيوعيين واصلوا جهودهم المسلحة للاحتفاظ بنصيب من الكعكة الثورية. فهم لم يستطيعوا أن يبقوا على فرق مكافحة مستقلة عن جيش التحرير، كما لم يستطيعوا الدخول في مجالس الثورة. إن الإرهاب فيما يبدو هو الذي ما يزال يوفر الميدان الواعد لمسعاهم. وفي هذه الحالة فإنه إذا كان بالإمكان إزهاق عدد كبير من الأرواح البشرية، فإن جبهة التحرير قد تضطر إلى الاعتراف بتفوق التكنيك الشيوعي واغتنام الفرصة للتحالف مع الحزب الشيوعي.

ففي 13 نوفمبر 1956 جاءت إشارة إلى شرطة الجزائر (العاصمة) بأن طردا مشبوهاً قد وضع في خزانة بمحطة أشغال الغاز بالحامة من قبل رجل يعمل بالمحطة يدعى فرناند إيفتون Yveton .[1] ولقد عثر رجال الشرطة الذين أرسلوا لفحص الطرد، على كيس في المكان الذي وصف لهم، فإذا به يحتوي على صندوق مقسم نصفين، في أحدهما قنبلة مستطيلة، وقد عثر عليها، وفي النصف الآخر ساعة موقوتة على الساعة السابعة والنصف مساء، إضافة إلى بطاريتين وأسلاك للتوصيل. وقد ظهرت كلمة بيتي (Betty) على الاسطوانة. وفي الحين قامت الشرطة بإبطال مفعول القنبلة.

أما (إيفتون) الذي اعتقل في عين المكان فقد اعترف بأنه هو الذي وضع

---

(1) عن إيفتون انظر كتاب جان ـ لوك إينودي J. L. Einaudi مضرب المثل: قضية فيرناند إيفتون Paris, ed. Harmattan, F. Yveton، 1986.

الكيس ومحتواه في الخزانة. وأخبر الشرطة أن (بيتي) قد سلمت إليه في أول النهار من قبل امرأة أوروبية اسمها غير معروف ولها شعر أصفر، وقال أيضاً أن قنبلة أخرى موقوتة كانت ستوضع تحت صهريج غاز للتخزين في ضاحية حسين داي. لقد كانت هذه الاعترافات مزورة. ولكن الشرطة شرعت في مطاردة لا هوادة فيها. والواقع أن إيفتون كان متواطئاً مع جاكلين قروج، وهي امرأة أوروبية ذات شعر أسود وزوجة لقائد منظمة مكافحي الحرية التي انتهى أمرها. فقد تمكنت هذه المرأة من تسريب القنبلة الثانية ووضعها في سيارة للشرطة كانت متوقفة. ولكن القنبلة لم تنفجر.

وقد تبين أن (إيفتون) كان مناضلاً شيوعياً منذ المراهقة. إن هذا الرجل العامل الذي يبلغ الثلاثين سنة من العمر والذي كان في السابق كاتباً في فرع الأبيار للحزب الشيوعي الجزائري، كان أيضاً صديقاً مقرباً من (هنري مايو) (Maillot)، وهو الذي رافق السيدة مايو أثناء جنازة زوجها.

وعندما جيء بإيفتون للمحاكمة السريعة في 25 نوفمبر 1956، وهي المحاكمة المرخص بها في حالة التلبس بالجريمة المكشوفة، أنكر أنه كان يقصد قتل الأرواح البشرية. لقد قال إن الهدف من (بيتي) كان مجرد لفت الأنظار. غير أن مدير محطة الغاز ورجلين آخرين شاهدين معه قد شهدوا، خلافاً لادعاء إيفتون، أن هناك أناساً يترددون على المحطة دائماً بين الساعة السابعة والثامنة مساء بالقرب من الخزانة التي وضعت فيها القنبلة. وهكذا وجدت المحكمة العسكرية لمدينة الجزائر أن (إيفتون) مذنب «بمحاولة هدم بناية غير مسكونة بواسطة مادة متفجرة» وحكمت عليه بالموت. ونفذ فيه الحكم في الحادي عشر من فبراير 1957.

إن (إيفتون) وهو رجل خشن، قاده حظه إلى أن يدفع حياته ثمناً للقضية التي آمن بها. ولكن درجات بعض رفاقه في الإرهاب كانت أفضل منه، لأنهم كانوا أكثر منه فعالية ومخادعة. ففي 12 نوفمبر 1956 انفجرت ثلاث قنابل

موقوتة. وكان المظنون أنها جميعاً وضعت من قبل الشيوعيين[1]، القنبلة الأولى كانت قد انفجرت في حافلة الترولي بالمدينة، والثانية في مخزن خردوات في ضاحية الحراش، والثالثة في محطة السكة الحديدية بحسين داي. وقد جرح 36 شخصاً في ذلك اليوم، من بينهم إحدى عشر امرأة وعشرة أطفال. وقد أصبح بعض هؤلاء الأطفال معوقين مدى الحياة - وهي مساهمة عظيمة في الصراع من أجل الحرية[2]. وفي 28 نوفمبر انفجرت قنبلة أخرى عزتها الشرطة إلى الإرهابيين الحمر (الشيوعيين؟)، انفجرت في محطة حافلة الترولي في حي باب الواد الآهل بالسكان في مدينة الجزائر متسببة في جرح اثني عشر شخصاً. وفي نفس اليوم جرح ثلاثة أشخاص نتيجة انفجار قنبلة شيوعية في حسين داي.

ومع هذه الجهود فإن الشيوعيين لم يستطيعوا أبداً أن يهرقوا دماء بريئة كالتي هرقها اختصاصيون من رجال جبهة التحرير الوطني. ففي شهر ديسمبر 1956 وحده قامت المنظمة الإرهابية التي يتزعمها سعدي ياسف وعلي عمار (المعروف بعلي لابوانت) بخمسة وثمانين هجوماً متفرقاً داخل حدود مدينة الجزائر، متسببة في مقتل 24 شخصاً وجرح 116. وكان 14 من القتلى مسلمين مدنيين، و 5 أوربيين مدنيين و 5 من الجنود. ومن بين الجرحى 24 من المسلمين المدنيين و 64 من الأروبيين المدنيين و 28 من الجنود. وكان الانفجار الأكثر قسوة في هذه الاحتفالات الإرهابية هو الذي تسببت فيه قنبلتان موقوتتان في الثلاثين من سبتمبر، الأولى في مطعم (كافيتيريا) والثانية في مقهى (ميلك بار). وكانت النتيجة مقتل امرأة واحدة وجرح 62 شخصاً، حوالي

---

(1) في الحقيقة لا يوجد سوى مفجرات فلمونات الزئبق لهذه القنابل التي جاءت من المخبر الشيوعي في بئر الخادم. أما المتفجر نفسه، وهو مزيج من بوتسيوم الكولرات، والنيتروفثلين والنشا فقد وفرتها جبهة التحرير الوطني، وهو مثال غريب من التعاون ضمن المنافسة بين الطرفين. (المؤلف)

(2) يظر من العبارة الأخيرة أن المؤلف يسخر من الطرفين: الشيوعيين وجبهة التحرير في ادعائهما أنهم يحاربون من أجل الحرية.

نصفهم من النساء والأطفال. وفي منتصف الليل جرت خمسة عشر حالة بتر في مستشفيات المدينة. وكان الطفل فيرناند بو F. Pons وعمره ثماني سنوات من بين أولئك الذين بترت لهم سوق.

وهناك إنجازات أخرى شهيرة لسعدي ياسف وعصابته:

- في 27 يناير 1957حدث انفجار لقنابل موقوتة وضعت في مقهيين في مدينة الجزائر بواسطة فتيات مسلمات مما أدى إلى مقتل أربعة أشخاص وإرسال خمسين شخصاً إلى المستشفى.
- وفي 7 فبراير 1957 انفجرت قنابل موقوتة في مدينة الجزائر في ملعبين رياضيين مما أدى إلى مقتل تسعة أشخاص وجرح خمسة وأربعين شخصاً.
- وفي 3 يونيو 1957 انفجرت قنابل موقوتة كانت مخْفِيّة في قواعد أعمدة الإنارة قرب مواقف الحافلات خلال زحام الخروج من العمل بالمساء. أما الإصابات فكانت مقتل عشرة أشخاص وجرح ستة وثمانين.
- وفي 9 يونيو 1957 انفجرت قنبلة موقوتة كانت موضوعة تحت منصة أوركسترا في كازينو الكورنيش في ضاحية سانت أوجين (بولوغين حالياً) وذلك خلال حفلة رقص، وكانت النتيجة مقتل عشرة أشخاص، بينهم قائد الأوركسترا وجرح تسعين آخرين.

ونتيجة لهذه الأعمال الإرهابية قام الجنرال ماسو الذي أصبح هو القائد الأمني للجزائر الكبرى قبل «الإضراب التمردي»[1] الذي دام من 28 يناير إلى 4 فبراير 1957، بالاحتفاظ برجال فرقة المظلات العاشرة متمركزة في المدينة وما حولها، وشرع في مطاردة متواصلة بحثاً عن إرهابيي جبهة التحرير. إن هذه العملية هي التي أصبحت تعرف (بمعركة الجزائر).

ومن المؤكد أن الطريقة التي استعملها المظليون لا يمكن بأية حال تبريرها

(1) هو الإضراب الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني تحدياً للزعم بأن الشعب لا يتبعها.

من الناحية اشرعية العادية. ومع ذلك فإن حرباً سرية قاسية استعملت فيها الأرواح البريئة كمخالب، قد فرضت نفسها على المدينة. إن ضحايا القنابل والخناجر والرصاص الإرهابي قد ازدادوا عدداً في المدة الأخيرة، بحيث هناك 146 إصابة في ديسمبر 1956، و194 في يناير 1957. إن دعاة الأخلاق الجالسين على الكراسي المتحركة يكادون ينتهون إلى اللاإنسانية عندما يضعون القانون فوق كل الاعتبارات الأخرى وينكرون في الواقع على الكائنات البشرية العادية حقوقها في الحماية، وغالباً ما يكون الأمر متعلقاً بالحياة نفسها.

لقد كانت باريس مزدحمة بهؤلاء الأخلاقيين. وكان أحدهم هو المؤلف بيير هنري سيمون، وهو من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، والذي نشر كتاباً صغيراً عنوانه (ضد التعذيب)[1] انتقى فيه أعمالاً لا يقبل معها مبرر كأمثلة على قسوة الشرطة والجيش، لكي يحاكم سياسة كاملة، ـ سياسة على درجات متفاوتة مع وضع أنصار الوطنيين كما تمناها السيد سيمون و«ليبراليون» آخرون داخل مؤسسة الكنيسة. إن هذا الكاتب الداعية (سيمون) تجرأ على إهداء «صيحته من أجل العدالة والشرف» إلى الذين قاوموا هتلر من الفرنسيين رجالاً ونساءً.

أما كون التجاوزات قد وقعت فذلك أمر مؤكد. ولكن من الحق أيضاً أن السيد لاكوست ومن كان معه، ومازالوا يقومون، بجهد كبير لتفادي تلك التجاوزات. ولا يعني رفض «العقوبات القاسية وغير العادية» أن الجرائم التي يحاول الجنرال ماسو ورجاله محاربتها كانت أكثر وحشية من الدرجة الثالثة[2].

---

(1) باريس، منشورات دي ساي، 1957. (المؤلف)

(2) في أبريل سنة 1957 قامت حكومة موليه التي كانت تحت نيران النقاد اليساريين بمحاولة لذر الرماد في العيون. فأعلنت أنها قد عينت لجنة للمحافظة على الحقوق والحريات الفردية في الجزائر. هذه اللجنة ضمت اثني عشر مواطناً متميزاً من بين من خدموا في الحكومة ومن أصحاب الاختصاص. وعقدت اللجنة أول اجتماعاتها في العاشر من مايو 1957 في فندق ماتينيون (مقر رئاسة الوزراء) بحضور رئيس الوزراء موليه، وروبير =

إن المظلين عندئذ قد استعملوا علاجاً قاسياً للحالة المرضية التي وجدوا مدينة الجزائر عليها، فإذا كانت بعض الجرائد الباريسية قد هاجمتهم على أنهم قد ارتكبوا التعذيب فإنهم على الأقل قد ربحوا اعتراف مدينة الجزائر لهم بالجميل. إن السيد سيمون ومعارضيه ربما ليس لهم إلا معرفة قليلة بالانفراج الكبير الذي حدث بعد التخليص من الخوف المعنوي، ولا يمكنهم أن يشكوا من أن المسلمين إن كان لا بد، هم الأكثر اعترافاً بالجميل من الأوروبيين.

بنهاية فبراير 1957 هرب أغلب زعماء جبهة التحرير المحليين من مدينة الجزائر إما إلى جبال القبائل وإما إلى تونس. وآخر عضو في تنفيذية جبهة التحرير الباقين في البلاد، وهو العربي بن المهيدي قبض عليه في 26 فبراير من قبل المظليين بقيادة نائب الجنرال ماسو، وهو العقيد مارسيل بيجار. ولكن سعدي ياسف الذي أصبح زعيم الثوار في مدينة الجزائر، بقي في المدينة مع مساعده علي لابوانت. لقد خفضا من ظهورهما إلى أن انسحبت فرقتان من فرق الجنرال ماسو الثلاث، في أفريل 1957. وكانت الحملة في باريس على المظليين على أشدها لارتكابهم التعذيب، مما خدم خطتهما باللجوء إلى فترة توقف عن النشاط يحتاجانها بصورة ملحة إذا كانا سيستأنفان عملهما. وعندما انتهت تلك الفترة استأنفا في الحال إحياء شبكة القنابل التي كانت قد تضررت جداً.

لقد أنجز الرجلان (سعدي ولابوانت) نتائج باهرة تجاوزت ما كانا

= لاكوست (حاكم الجزائر) وفرنسوا ميتران وزير العدل. وقد انتخب رئيساً لهذه اللجنة بيير بيتاي وهو قاض بمحكمة الاستئناف. أما كاتبها العام فكان موريس قارسون المحامي الشهير لدى المحكمة. وقد استمعت اللجنة في نهاية الأمر إلى عدة شكاوى ونظرت في أمثلة من الاعتقالات التعسفية والتعذيب. ولسوء الحظ فإن فائدة اللجنة قد تأثرت بحقيقة وهي أنها لم تدخل في مرجعيتها التجريد من أبسط الحقوق الإنسانية، وهو الحق في الحياة والحماية، ونتيجة لذلك فإن اللجنة في الجزائر بصفة عامة، قد فقدت مصداقيتها منذ البداية. (المؤلف)

يحلمان به. فقد انطفأت عشرات الأرواح عندما انفجرت قنابل موضوعة في عمود كهرباء في الثالث من يونيو، وقتل عشرة آخرون في كازينو الكورنيش في التاسع من يونيو، أما مجموعة الجرحى في الحادثين الإرهابيين فقد بلغ 176شخصاً في أسبوع واحد، مما أسس لسابقة جديدة. ومن جهة أخرى فإن انفجار 9 يونيو قد أدى إلى مظاهرة عنصرية شريرة بعد يومين. فبعد تشييع جنازة الضحايا حاول نحو 2000 أوروبي، معظمهم من الشباب، أن يثأروا من جرائم جبهة التحرير بدم مسلمين أبرياء. فقد قتل اثنا عشر مسلماً على يد هؤلاء الغوغاء، وجرح على الأقل خمسة عشر، وأضرم الأوباش النار في عدة سيارات، وتعرض حوالي المائة محل إلى النهب والحرق. وقد علقت جريدة (لوفيجارو) في اليوم التالي على المظاهرة بقولها: إن صراخ ألفي متظاهر: «الجزائر فرنسية» قد ساعد بصفة قوية جبهة التحرير، وهو الأمر الذي يتركنا نحن عاجزين عن الكلام. إن يوم 9 يونيو كان حقاً يوماً مشهوداً لصالح الثوار».

ومن الواضح أن المنظمة الإرهابية[1] يجب القضاء عليها مرة أخرى. وقد تحقق هذا بطريقة ماهرة. فقد ألقي القبض على إرهابي يدعى عبد القادر محمود، ودخل عقيد فرنسي في حذائه ، إذا صح التعبير[2]. استعمل هذا العقيد الذي يدعى غودار Godard، أسلوب السجين محمود، ودخل في مراسلات مع ياسف، وحاز بسرعة على تقديره. وكان نجاح محمود الجديد (غودار) ظاهراً بكل وضوح. فعندما يعثر الحظ بإرهابيين بارزين آخرين كان محمود دائماً قادراً على الظهور دون أي أذى. لقد كانت «بركته» وحيله، وإرادته قد تحدت كل مقارنة. فقد أدى عمله إلى تصفية رمال Ramel المسؤول العسكري تحت ياسف، والشريف ذبيح المعروف باسم مراد، وهو المسؤول السياسي تحت ياسف، وذلك في شهر أغسطس (أوت). وفي العاشر من شهر سبتمبر عين ياسف محمود (غودار) مسؤولاً على كل العمليات العسكرية في منطقة الجزائر.

(1) يعني بها التنظيم الحضري الذي يقوده ياسف سعدي في مدينة الجزائر.
(2) يقصد أنه تقمص شخصيته.

وبعد خمسة عشر يوماً تحرك الفرنسيون ضد ياسف نفسه، فقبضوا عليه في القصبة مع شابة تعمل معه هي زهرة ظريف. أما علي لابوانت الذي كان ما يزال طليقاً، فقد تولى القيادة على «المنطقة الذاتية لمدينة الجزائر». غير أنه وجد نفسه في 7 أكتوبر، محاصراً من جنود المظلات في مخبئه بالقصبة، فلم يبق إلا أن يتمزق جسده إرباً إرباً عند انفجار مخزن المتفجرات.

وبهذا الحادث الدرامي انتهى الكابوس الطويل للإرهاب الحضري في الجزائر. أما ياسف سعدي فقد نجا من الإعدام نتيجة صدور العفو العام الذي أصدره الرئس ديجول، في يناير 1958.

وأما الشيوعيون فقد تخلوا عن السباق من أجل الفوز بالتفوق في ميدان الإرهاب منذ وقت طويل وانخفضت أسهمهم منذ ذلك الحين فأصبحت لا تخرج عن لعب أدوار غير فعالة من الشغب فقط.

ابن عكنون، يوم 26 مايو 2005

فضائل الاحتلال الفرنسي

منذ عام والحبر يسيل غزيراً بشأن القانون الفرنسي الصادر في فبراير 2005 والمعترف بجميل قادة فرنسا في المستعمرات وخاصة في المغرب العربي، والمنوه بفضل الجيش والساسة وعلماء الاستشراق وحلفائهم من أبناء المستعمرات، والمساهمين معهم في تثبيت قواعد وقيم المدنية الفرنسية وفرض القوانين الاستثنائية على الأهالي (الاندجين) المتخلفين في نظرهم حضارياً. ولا نتوقع أن الحبر سينضب حول هذه المسألة ولو كان البحر مداداً، بل ربما سيزداد جرياناً، سيما من قبل الشعوب التي عانت من الاستعمار وتشوهت هويتها بفعله وبنعل جحافل المغيرين وهم يحملون إليها أسلحة الدمار المتقدمة طيلة عقود من الزمن.

السكوت المخجل

نحن الآن في ميدان معركة وساحة جدال، ولكل طرف الحق في استعمال السلاح الذي يقدر عليه، من سلاح الحق والقانون إلى سلاح الكلمة والقلم. ومن الدبلوماسية إلى الغوغائية. ومهما كان السلاح فإن الحكمة تقول إن الهجوم خير من الدفاع. وقد بدأ الفرنسيون بالهجوم فلم يبق أمام الآخرين إلا الدفاع أو الفناء. وحضارة أي أمة بل وجودها متوقف على قدرتها في الدفاع عن نفسها وتحويل دفاعها إلى هجوم، أو عليها أن ترضى بالانقراض. ذلك أنها إذا استسلمت أو تخاذلت فمصيرها الفناء، وكم في سلة التاريخ من أمم فانية وحضارت بائدة.

لن نفتح باب المحاسبة الآن فنسأل: لماذا لم نبدأ بالهجوم، ولدينا كل الحق وكل المنطق في فتح هذا الباب؟ ولماذا سكتنا على الاحتلال سكوتاً مخجلاً منذ اتفاقيات إيفيان؟ فالتاريخ قد سجل أننا أول من وقع عليه الفعل الاستعماري، وأننا هُوجِمنا في عقر دارنا ظلماً وعدواناً، وأن مسألة المروحة ليست إلا خرافة تشبه خرافة أسلحة الدمار الشامل اليوم في العراق. وقد أثبت الجزائريون عبر تاريخهم مع الاستعمار أنهم لم يستسلموا لمنطق الغالب والمغلوب وأن السلام الروماني ـ الفرنسي لم يستتب ولم تعرفه الأرض الجزائرية. ولكن سكوتنا منذ اتفاقيات إيفيان سكوت أهل المقابر على السجل الفظيع للاحتلال وكأن صفحته قد طويت هو الذي جعل الفرنسيين اليوم يتطاولون علينا (وعلى أمثالنا) ويتباهون بأنهم كانوا في بلادنا يقومون بأداء رسالة حضارية لوجه الله والإنسانية. فنحن الذين بسكوتنا أعطيناهم سلاح الهجوم علينا بكل عنهجية، ولو تمسكنا بحقوقنا التاريخية وبمواقفنا التي تلخصت في ثورة نوفمبر للزم الفرنسيون حدودهم ولطلبوا منا الغفران على ما ارتكبوه في حقنا من موبقات وفظائع.

درس من الصين واليهود

انظروا إلى ما فعل أبناء الصين حين أصروا، رسمياً وشعبياً، على أن تعتذر اليابان للشعب الصيني على ما ارتكبته من فظائع أيام احتلالها لبلادهم، ولم يكتفوا منها بالاعتذار. وأقرءوا ما قام به الكوريون (الجنوبيون) عندما خرجوا عن بكرة أبيهم يطالبون أيضاً اليابان بمراجعة كتاب التاريخ الموجه لتلاميذ الثانويات والذي يشيد بدور جيش احتلالها لبلادهم. وقد أصر الصينيون والكوريون، ومعهم الفيتناميون والماليزيون، على أن تنزع اليابان من كتاب التاريخ كل ما فيه تمجيد لجيشها حين احتل هذه الشعوب ولم يلقوا سلاحهم حتى استجابت اليابان لمطالبهم.

هذه الشعوب لها ذاكرة يقظة، وهي تقرأ التاريخ وتستفيد من دروسه

وتخاف من حكمه. إنها تخشى أن يكتب عنها في طيات الزمن الآتي أن غيرها قد احتلها فلم تقاومه أو استكانت لعدوها أو اعترفت له بالجميل، بعد أن احتل وأباد واغتصب، ومع ذلك لم يتحرك لها ضمير ولم ينبض منها قلب ولم يرتفع لها صوت. إن هذه الشعوب تخاف حكم التاريخ الذي لا يرحم وحكم الأجيال التي ستلعنها وترميها بالخزي والعار والخضوع لزبانية الاستعمار. وقد كان بإمكان هذه الشعوب الآسيوية أن تنغمس في شراء السلع اليابانية كما انغمسنا نحن في شراء السلع الفرنسية حتى أصبحنا نتباهى أمام العالم، دون خجل، بأن شريكنا التجاري الأول هو فرنسا.

ثم انظروا ماذا فعل اليهود بأعدائهم. وهم يشكلون نموذجاً في حفظ تاريخهم ومحاسبة غيرهم عليه ولو بالادعاء والاختلاق. فبعد أن تمكنوا من إقامة دولة وبناء قوة أخذوا يطاردون أعداءهم في مختلف البلدان. فقبضوا على الأحياء منهم ولو كانوا في جُحْر ضب، وتسقطوا أخبارهم ولو كانوا في غيابات جب، وحاكموهم وقتلوهم وشنعوا بهم على طريقتهم وخدمة لأهدافهم. ثم نصبوا أنفسهم قضاة للدول والشعوب والأفراد الذين أساءوا في نظرهم معاملة اليهود ولو بكلمة أو تصريح أو تشكيك في قول قالوه أو مبدأ تبنوه. فالدول عليها أن تدفع الثمن تعويضاً بالأموال والاعتذار العلني الصريح لهم ولو تلطخ أنفها بالأوحال، ولو ديست كرامتها وسيادتها بالنعال. وعلى الأفراد الذين شككوا في تاريخ اليهود أو محرقتهم أن يعودوا إلى الجادة التي رسمها اليهود وأن يعتذروا عما بدا منهم وأن يسحبوا آراءهم إذا وردت في كتاب، وأن يتراجعوا عن خطابهم إذا ورد ذلك في خطاب.

القعود مع الخوالف

أما الجزائريون فقد قعدوا مع الخوالف وتنازلوا عن حقوقهم وأعلنوا التسامح والنسيان لتاريخهم وطي صفحاته. وحتى عندما اعترف المجرم بجريمته وألف كتباً مفصلة عما ارتكبه ضدهم قرءوا ذلك على أنه قصص للتسلية أو

أخبار عابرة لا تحرك ساكناً ولا توقظ سادراً. فهم إلى الآن لم يطالبوا الدولة التي احتلتهم بالحديد والنار وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم وأرضهم لا بالتعويض ولا بالاعتذار، ولم يخطفوا أو يغتالوا أو يهددوا من خطف أو اغتال آباءهم وأجدادهم، ومن استفزهم بما نشره من تفاصيل عن تعذيبهم وقتلهم وتدميرهم واغتصابهم. لقد بقي مرتكبو الكبائر ضد الجزائريين يسرحون ويمرحون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. لماذا؟ ربما لأن ذلك طبيعة من طبائعهم السلبية، وربما لأن «حركى» الأمس الذين استحقوا اليوم من فرنسا الشكر والتمجيد هم عملاء اليوم الذين يعيشون بيننا في أمن وأمان، وينشرون بيننا ثقافة التسامح والغفران، وأصول الصداقة والمصالحة مع من باع فينا واشترى وألغى ثقافتنا وشوه ديننا. وأي تمجيد أرقى من هذا التمجيد للاحتلال؟ فإذا كان النواب الفرنسيون يشيدون بفضائل احتلالهم لبلادنا فعملاؤهم في الجزائر يشيدون بتلك الفضائل في رمز الثقافة الفرنسية ورفع راية «عفا الله عما سلف».

ونحن لا نلوم اليوم المشرعين الفرنسيين على تشريعهم ولا بافتخارهم بجيشهم وحضارتهم ولغتهم وقادتهم. أولاً، لأن هذا شأنهم ما داموا لا يخافون إلا ولا ذمة. ولا يتوقعون منا ردود فعل تهدد مصالحهم، ومنها لغتهم المسحورين نحن بها. وثانياً، لأنهم يعرفون أن طابورهم سيدافع عنهم سراً وعلانية وأنه سيمرر قانونهم عندنا بعد تعبيد الطريق أمامه بوسائله المختلفة التي حذقها طيلة عهدي الاحتلال والاستقلال. وثالثاً، لأنه سبق للفرنسيين أن شرعوا لنا قوانين ضد هويتنا وديننا، ومع ذلك وجدوا منا رهطاً ساند تلك القوانين وبررها وحرص على تطبيقها. وكنا نسمي هؤلاء الرهط بالعملاء والجهلة، ولم نكن نعتقد أنه بعد ثورة نوفمبر، سنجدهم بيننا يتصدرون المجالس ويتقدمون الصفوف السياسية والثقافية والإعلامية، ويديرون دفة الأمور الاقتصادية، ويتناسلون ويتوزعون الأدوار في جمعيات وأحزاب وخلايا مهمتها محاربة الحس الوطني على عدة جبهات وتثبيت قواعد الفرنسية وتبييض صفحات

الاحتلال السوداء وتغييب من تسول له نفسه الكشف عنها بالقلم أو باللسان.

الرباط غير المقدس

وإذا كنتم في شك فانظروا هذا الترابط بين الجزائر وفرنسا منذ الاستقلال. إنه ترابط شمل مختلف المجالات وكل القطاعات، فأصبحنا نحن في بلادنا وكأننا «نواب» فقط عن الفرنسيين، ومن يستطيع اليوم أن يلغي أو يعدل من هذا الترابط الوثيق بين بلادنا وفرنسا؟ فليس غريباً إذن أنه في قمة هذا الترابط المشبوه يأتي الحديث عن معاهدة الصداقة من جهة وقانون فضائل الاحتلال من جهة أخرى، النغمة هناك وصداها هنا. فهل هي مجرد صدفة؟ لا نظن ذلك. إن «قانون فضائل الاستعمار» يعني التنازل عن كرامتنا وحقوقنا في سبيل صداقة زائفة مع فرنسا. إن النواب الفرنسيين يتعالون علينا باسم الرسالة الحضارية المستحقة لقانون الفضائل، أما نحن فقد ظهرت عندنا أصوات تخفف من حدة ردود أفعالنا قائلة تارة: هذا القانون شأن فرنسي، وتارة هو قانون لا يمثل الرأي العام الفرنسي، أو هو قانون لا يمنع فرنسا الرسمية من الاعتذار للجزائر.

غير أن سبر الآراء قد أظهر أن خمسة وستين في المائة من الشعب الفرنسي تؤيد قانون التمجيد والفضائل. كما ظهرت أصوات على لسان اليسار الفرنسي تطلب إلغاء بعض مواد ذلك القانون، تمويهاً ونفاقاً، ذلك أن الوطنيين الجزائريين يدركون أن هذا اليسار هو الذي ارتكب الفظائع ضدهم منذ فاتحة المقاومة، وأن أول من فعل ذلك معهم هم أتباع (سان سيمون) صاحب نظرية الاشتراكية المثالية، وأن آخرهم هو (جي موليه) الاشتراكي المادي وصاحبه (لاكوست)، وكبيرهم فرنسوا ميتران، والحفيد (ساركوزي) الذي ضرب أخيراً المغتربين الجزائريين القاطنين في حواشي باريس وأصدر ضدهم قوانين صارمة لا تضاهيها إلا قوانين «الاندجينا» في الجزائر، فكيف يزعم هؤلاء أنهم أنصار الحق والعدالة للشعوب التي عانت من احتلالهم، وعلى رأسها الشعب الجزائري؟

ذاكرة نوفمبر لا تكفيح

من الخطأ الشائع لدى الجزائريين اقتصار ردود فعلهم على ثورة نوفمبر (1954 ـ 1962)، لأن أكبر نكبات الاحتلال الفرنسي صبت على الجزائر خلال هذه الثورة، وهذا صحيح، ولكن تاريخ المقاومة والاحتلال يشهد ـ لو درسوه بجدية وعناية ـ أن صفحة الاحتلال كلها نكبات لا تقل ضراوة عما جرى أثناء ثورة نوفمبر، مضافاً إليها انتزاع الأراضي والنفي من الوطن إلى المستعمرات الفرنسية النائية. أما حرب الإبادة ونصب المشانق والتعذيب والتغريم الفردي والجماعي والقوانين الاستثنائية... فقد وقع مثلها أو أفظع منها في عهد المقاومة ـ وهو عهد طويل بل هو ليل فاحم السواد. ومن لم يفهم وحشية الاحتلال وروح المقاومة لن يفهم أبداً روح ثورة نوفمبر وأسرارها.

فليقس أخوتنا الذين عاشوا الثورة أو توقفت ذاكرتهم عند أحداثها ما عرفوه أو عاشوه في عهد (لاكوست) و(صالان) و(أوسريس)... على ما عاناه أجدادهم في عهد (بوجو) و(راندون) ويوسف و(سنطارنو) و(بيلسيي) و(دي قيدون) وأمثالهم. وليتقوا الله في جزائر المقاومة كما يتقونه في جزائر شهداء ثورة نوفمبر. وليعلموا أن الفرنسيين لم يعملوا على نشر الحضارة في الجزائر وإنما عملوا على محو حضارة بلادنا وإزالة خريطتها من الوجود. وما أرحم الأمريكيين اليوم بالعراقيين إذا قيس فعلهم بفعل الفرنسيين بالجزائريين. لقد أسقط الفرنسيون دولتنا وقرروا وحدهم الاحتفاظ ببلادنا ملكاً لهم بناء على قانون اخترعوه سنة 1834 وهو يشبه قانون فضائل الاستعمار لسنة 2005. واستولوا على خزينة وأملاك الدولة الجزائرية وألغوا القوانين الجارية والشريعة السارية. وحلوا الجيش واغتصبوا عتاده وأسطوله ومؤسساته، وضموا الأوقاف الإسلامية والمساجد إلى إدارتهم، وطاردوا العشائر الفارة من الاحتلال حتى تقطعت بها السبل فاختفت في الكهوف أو قضت نحبها عطشاً وجوعاً في الفيافي.

وقد أنشأ الفرنسيون بعد ذلك فرقاً عسكرية من الجزائريين وجعلوها

أدوات يضربون بها المقاومة هنا وهناك واصطنعوا قادة من ابن إسماعيل، إلى ابن إدريس، إلى بلونيس، إلى شكال. . . وهكذا جعلوا الجزائريين يضربون بعضهم بعضاً ليهنأ بال المستوطنين ولا ترهبهم صعلكة (الاندجين) ولا سلاح (الفلاقة) الذين لم يفهموا رسالة فرنسا الحضارية ولم يقدروا قيمة السلام الفرنسي. فإذا كان من حق الفرنسيين أن يفتخروا بإنجازات جيشهم وقادتهم والمتعاونين معهم في المستعمرات فإنه من واجب الأمريكيين أن يفتخروا أيضاً بما حققوه اليوم في العراق وأفغانستان من ديمقراطية على أيدي المرينز وصعاليك المدن الكبيرة والمتعاونين معهم من العراقيين المعروفين بالعمالة. ولماذا يكون الفخر والمجد مقصورين على طرف دون آخر؟

تناقض في المواقف

في الواقع أننا نتناقض مع أنفسنا في مواقفنا الرسمية والشعبية من ادعاءات الفرنسيين، فإذا كنا نرفض ادعاءهم الفخر والتباهي باستعمارهم فقد كان علينا أن نبرهن على رفضنا بالأفعال لا بالأقوال. فمن جهة نحن نقدم لغتهم على سائر اللغات، بما فيها لغتنا الوطنية والرسمية. لقد قدمنا لغتهم لتزاحم لغتنا في السنة الثانية في مدارسنا الابتدائية، وأجبرنا أطفالنا على أن يرطنوا بها قبل أن يتقنوا أبجدية لغتهم، وما ذلك إلا من إحساس الآباء بعقدة النقص أمام الثقافة الفرنسية. فكيف لا يستأسد الفرنسيون علينا ولا ينظرون إلينا نظرة الازدراء كما كانوا يفعلون في عهد الاحتلال؟ وهل قام الفرنسيون باحترام لغتنا وثقافتنا كما تقتضي أصول المبادلة والندية؟

ومن جهة ثانية ألغينا كتابة لغتنا على واجهات المحلات ومن كثير من الأوراق الرسمية وجعلناها لغة مبتذلة في الخطاب الرسمي والشعبي. استمع إن شئت إلى إذاعتنا الوطنية (الأولى) المخصصة للغة العربية فإنك ستسمع عجباً، ستسمعها تخاطب جمهورها بمختلف اللهجات واللغات: البربرية والفرنسية والإنجليزية. . . فضلاً عن اللهجات العربية. أما مذيعو هذه الإذاعة فأغلبهم لا

يكادون يفقهون ما يذيعون. ولا ندري كيف تأهلوا (تأهلن) لهذه المهنة الخطيرة.

أهكذا تكون الإذاعة الوطنية الأولى في الجزائر الغيورة على سمعتها والمؤمنة بدور الإعلام وتوصيل الأفكار عن طريق الكلمة؟ وأي إذاعة هي التي لا تحترم نفسها ولغتها وجمهورها؟ أما ما تقدمه هذه الإذاعة من برامج للمواطن والمستمع الأجنبي فلا مجال للحديث عنه الآن، ويكفي أن نقول إنه يسيء إلى سمعة البلاد وإلى سمعة المذيع نفسه ويعطي الحق لدعاة قانون فضائل الاستعمار الذين هم بدون شك يعرفون الكثير عنا، ومن ذلك مكانة لغتنا بيننا وقيمة إذاعتنا المخصصة لها.

تنازلات مجانية

إننا لم نسمع بعد عن تنازل الجزائر عن قطاع الإعلام إلى فرنسا. ولكننا لن نستغرب إذا سمعنا بذلك ما دمنا قد اعتدنا على سماع الحديث عن رزمة كاملة من التنازلات. أليست فرنسا هي التي سبقت إلى الحصول على تنازل من الجزائر العثمانية في القالة ونواحيها واحتكرت صيد المرجان وأقامت حصناً مسلحاً أصبح بعد التنازل من أسباب احتلال بلادنا؟ أليست فرنسا هي التي حصلت من الدولة العثمانية على تنازلات كبيرة مما سبب تجزئة هذه الدولة في النهاية وجعلها لقمة صائغة في فم الدول الغربية التي أسمتها بالرجل المريض؟ ثم أليس فرنسا خبيرة في توظيف مذيعي (صوت البلاد)، ولها من الخبراء في الصوتيات واللسانيات ما يجعل إذاعتنا الوطنية الأولى أمامها بائرة في أسواق العرض والطلب؟

ولماذا الدهشة؟ ألم تقرأ وتسمع أن الجزائر قد تنازلت لفرنسا عن تسيير المطار والمترو والمنظومة التربوية والمياه وحقوق التأليف والإبداع، وربما يكون ما خفي أعظم مما علم. إن كل هذه التنازلات المجانية لفرنسا تجعلها تتباهى علينا بحضارتها وتشعرنا بالتخلف والنقص، وتسن لنا القوانين التي تريد دون أن تخشى لومة لائم. إن موقفنا من قوانينها يعزز حزبها في الجزائر ويقوي

صوته، ويجعل إعلامها ولغتها شريكاً في سيادتنا، ويكثر من دعاة «الغنائم» الباقية من عهد استعمارها لنا. وهكذا تصبح الأصوات المطالبة بحقوق ورموز السيادة واحترام الشهداء والمجاهدين عندنا نشازاً في سمفونية العصر الجديد.

نحو سياسة بسماركية

وفي الأخير نقول إذا كانت الجزائر تريد حقاً المحافظة على كرامتها فعليها أن تضع شروطها وتحدد مطالبها في التعامل المستقبلي مع فرنسا التي جربنا التعاهد معها منذ القرن السابع عشر، ومع ذلك أذاعت على العالم بعد الاحتلال أن الجزائر لم تكن دولة وإنما أرضاً سائبة من حق فرنسا أن تلحقها بأراضيها. إن التعاهد ليس عملية رومانتيكية آنية ولكنه عملية عقلانية مصلحية ملزمة للأجيال والحكومات المتعاقبة فعلينا نحن أن نكف عن التعاطي مع فرنسا كدولة نعرف مجتمعها ونتكلم لغتها بطريقة عاطفية.

الواجب أن نتعاطى مع فرنسا طبقاً لمبدأ «السياسة الواقعية» البسماركية، وهي السياسة التي تضع فرنسا في الزاوية بالإصرار على أنها أجرمت في حقنا سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وإنسانياً منذ 1827. وكل محور من هذه المحاور يجب أن يكون فصلاً في (الكتاب الأسود) الذي يحتفظ به كل جزائري حر والذي يجب على الجزائر أن تنشره، ولو حاول نواب فرنسا إخفاءه عن الشمس بتمرير قانونهم الفاشل. إن الضحايا والشهداء والأرض الجزائرية الطاهرة والأجيال السابقة واللاحقة والأمم الشاهدة التي دعمت كفاحنا لن تغفر لنا خطايانا إذا نحن تجاوزنا الخط الأحمر وتسامحنا في حقنا المقدس. فالجزائريون اليوم لا يريدون (إيفيان) ثانية ولو كتبت بلغتين(*).

ابن عكنون (الجزائر) 2005/12/23

(*) كتبت اتفاقيات إيفيان باللغة الفرنسية فقط.

صوت الجزائر في البلاد العربية

حدث عظيم أن يعود المرء إلى ذكريات خمسين سنة مضت من حياته، والأعظم من ذلك أن تكون الذكريات هي ذكريات الثورة الجزائرية وهي تشق طريقها إلى الأثير ليصل إلى إسماع الدنيا عبر (صوت الجزائر) الذي كان يزلزل الأرض من تحت أقدام المستعمرين كما كان الرصاص يزلزل السماء من فوق رؤوسهم. والفضل في فتح هذه الذكريات يرجع إلى الأخ الأستاذ عبد القادر نور الذي كان أحد صناع ذلك الزلزال الأرضي.

إن إعلام الثورة الجزائرية متعدد الجوانب، من الكلمة المكتوبة على جدار إلى المقالة العميقة في مجلة أو جريدة، ومن نشرات دورية توزع داخل كل ولاية إلى نشرات توزع على السفرات الأجنبية ووكالات الأنباء ومن خطبة بليغة في ندوة أو مهرجان إلى التصريحات الرسمية في المحافل الدولية، ثم من إذاعة سرية متنقلة في شاحنة وسط الجزائر إلى (صوت الجزائر) وهو يجلجل في الهواء بصوت عيسى مسعودي من إذاعة تونس وصوت أحمد سعيد من إذاعة صوت العرب من القاهرة. واليوم يقدم لنا الأستاذ نور عينة واحدة من ذلك الإعلام الثوري وهو (صوت الجزائر) المسموع من الإذاعة السرية الوطنية ومن إذاعات البلاد العربية الشقيقة. وهو إذ يفعل ذلك إنما يقدمه من تجربة شخصية عايشها بكل جوارحه وليس من بحث محايد استنطق من خلاله الأرشيفات والشهادات.

ونحن لا نريد أن نفصل القول في منهج هذه الجولة في البحث عن صـوت الجزائر أيام الثورة، ولكننا ننبه إلى أنها تنطلق فيما بدا لنا من نقطتين

أساسيتين الأولى هي معلومات وأسماء وتواريخ عن إنشاء محطة صوت الجزائر والثانية تسليط الضوء على دور الإذاعات العربية في الإعلام الثوري الجزائري.

بخصوص النقطة الأولى نلاحظ أن إسماع صوت الجزائر قد مرَّ بثلاث مراحل الأولى مرحلة غاب فيها الوطني ما عدا ما كان يبثه صوت العرب بالقاهرة، وهي مرحلة تمتد من فاتح نوفمبر 1954 إلى ديسمبر 1956. وهي مرحلة لم تسلط عليها الأضواء حتى الآن. لماذا لم تهتم الثورة بمسألة الإعلام إلا بعد مؤتمر الصومام رغم أهميته كسلاح ضد العدو. وهي مرحلة ما تزال في حاجة إلى دراسة وتقييم. المرحلة الثانية تبدأ من 1956 وتنقسم إلى فرعين الأول الجهد الوطني والثاني الجهد العربي. أما الجهد الوطني فقد بدأته الثورة سنة 1956 بإنشاء (صوت جبهة وجيش التحرير) بوسائل يمكن وصفها بالبدائية بل وتعرض القائمون عليها للخطر لأنها جاءت في شكل تحد للنظام الاستعماري حيث يتمركز في الجزائر نفسها. فكانت الإذاعة الجزائرية السرية عابرة الأرض الجزائرية في شاحنة لا تعرف التوقف وإلا اكتشفتها أجهزة العدو وأجهزت عليها.

وبعد تجربة قاسية تعلم القائمون على هذا الجهاز الحساس والفعال ونقلوا معداتهم وأشخاصهم إلى داخل الحدود المغربية 1956/12/16. وقد أطلقوا على المحطة اسم (صوت جبهة وجيش التحرير) وكان لحنه المميز هو (هنا الجزائر الحرة المكافحة، صوت جبهة وجيش التحرير يخاطبكم من قلب الجزائر) ثم تنقلت هذه المحطة عبر المغرب من تطوان إلى طنجة إلى الرباط. وكان يعمل فيه إعلاميون بدون خبرة ولكن لهم إرادة واستعداد لاكتساب الخبرة. وكانت المحطة تقدم التعاليق السياسية والأخبار العسكرية بالعربية الفصحى والدارجة. ثم عُمِّمَتْ التجربة على محطات عربية. لقد كانت المغرب حديثة عهد بالاستقلال وكذلك تونس. ولذلك لم يذع منهما (صوت الجزائر) إلا أوائل سنة 1957.

أما المرحلة الثالثة فقد بدأت بافتتاح (صوت الجزائر) في الإذاعات العربية. فكان صوت الجزائر من إذاعة تونس وصوت الجزائر من القاهرة، ومن دمشق، ومن بغداد، ومن عمان، ومن الكويت، ومن جدة، ومن طرابلس.

وإلى جانب هذا الصوت هناك صوت العرب الذي لم ينقطع منذ فاتح نوفمبر. فكان فريقه المتخصص في شؤون المغرب العربي (أحمد سعيد، محمد أبو الفتوح، ومحمد عروق...) يذيعون ويقدمون البرامج ويشرفون على ما يذيعه الجزائريون من برامج مثل صوت الجمهورية الجزائرية. وركن المغرب العربي، وجزائري يخاطب الفرنسيين.

وكان السياسيون والطلبة الجزائريون هم الذين يقومون بتحضير البرامج وإذاعتها في أوقات محددة. فهناك برامج عربية وأخرى فرنسية وثالثة قبائلية. وكان فريق القاهرة أكثرها إمكانات لتمركز السياسيين والمثقفين والزوار وكثرة الأحداث وتوفر مصادرها. فكان صوت الجمهورة الجزائرية من صوت العرب تحت إشراف الأستاذ أحمد توفيق المدني يساعده فريق من الطلبة وأعضاء الوفد الخارجي.

تلك هي النقطة الثانية التي ركز عليها الأستاذ نور، ونعني بها دور الإذاعات العربية في إعلام الثورة وإسماع صوت الجزائر إلى شعوبها وإلى العالم. فكانت الشعوب العربية تعيش الثورة الجزائرية بكل وجدانها ومشاعرها ونشارك مادياً ومعنوياً في مسيرة الثورة وتعرف عن تفاصيلها بعد أن كانت الجزائر مجهولة أو مغيبة عن بعدها العربي الإسلامي نتيجة السياسة الاستعمارية القائمة على أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا.

ونعتقد أن الأستاذ نور قد أسهم بعمله هذا في تصحيح أمرين الأول المعلومات الإضافية عن تواريخ إنشاء المحطات الإذاعية، والكشف عن أسماء الذين شاركوا في تغذية أصوات الجزائر عبر سنوات الثورة، والثاني تصحيح الحكم عن دور الإعلام العربي في الثورة الجزائرية. ذلك أن البعض قد تنكر

اليوم لهذا الدور أو أخذ يقلل منه. بينما الاعتراف بالجميل فضيلة في حد ذاته، والاعتراف بالحقيقة أجمل ما في الوجود. فقد تظافرت الجهود العربية مع الجهود الجزائرية في خدمة الثورة في جميع أبعادها السياسية والعسكرية والثقافية والإعلامية. ومن الدلائل على ذلك هذه الصفحات التي أمامك.

10 مارس 2005

حرب الكلمات الجزائرية

البث الإذاعي أثناء الثورة، 1954 ـ 1962

بقلم روبرت ج. بو كميلر[1]

خـلاصـة

هذا البحث هو تحليل للبث الإذاعي في شمال إفريقيا خلال حرب الجزائر من أجل الاستقلال. فهو تحليل للممارسات الإذاعية في كل من مصر والمغرب وتونس، بالنسبة لعلاقتها جميعاً بالصراع الجزائري. إن تقدم التحليل قائم على التطور الكرونولوجي عبر المراحل المختلفة من حرب البث الإذاعي. وهذه المراحل تشمل (1) البث من صوت العرب في القاهرة. (2) برامج جبهة التحرير الوطني (FLN) المرسلة عبر التسهيلات المصرية. (3) دخول إذاعة

---

(1) جامعة فرجينيا، قسم وودرو ويلسون للدراسات الحكومية والشؤون الخارجية.

مجلة مغرب ريفيو، Maghreb Review عدد14، 1989 صص 196 ـ 213

يود الباحث أن يشكر الدكتور ERIK NAKJAVANI من جامعة بيتزبورغ على اقتراحاته المفيدة. وقد قام الباحث، لإنجاز هذه الدراسة بالرجوع إلى نشرات خمسين حادثاً مهماً من الحرب الجزائرية التي دامت سبع سنوات ونصف، بالإضافة إلى نماذج عديدة أخذت عشوائياً من (المصلحة الإعلامية للنشرات الأجنبية). ولا تدعى هذه الدراسة أن تكون عملاً شاملاً لكل ما حدث خلال الحرب، ذلك أن كتاب أليستر هورن (حرب وحشية من أجل السلام: الجزائر 1954 ـ 1962، نيويورك، 1979) وكتاب ويليام كوانت Quandt (الثورة والقيادة السياسية: الجزائر 1954 ـ 1968، كمبريدج، 1969) يعتبران الكتابين المؤهلين الشاملين.

تونس ثم إذاعة المغرب كمحطات مناضلة أيضاً (4) وأخيراً استعمال منظمة الجيش السري (OAS) البث الإذاعي عند نهاية الصراع الجزائري. إن هذه الدراسة تنتهي برأي وهو أن استقلال الجزائر قد تحقق جزئياً بفضل توظيف البث الإذاعي الذي أسهم في تشكيل الآراء وأعاد توجيه الأفكار ووحد الجزائريين في معركة مشتركة.

* * *

اندلع صراع الاستقلال الجزائري في يوم القديسين، سنة 1954. ووراء العنف الذي دام سبع سنوات ونصف انفجرت معركة أخرى. إنها حرب الكلمات المذاعة على أمواج الأثير. إن هذه الحرب الإذاعية التي شنت على أمواج الأثير من القاهرة والرباط وتونس كانت موجهة إلى الجزائر وكذلك محطات الإذاعة السرية داخل البلاد نفسها، كان لها وقع عميق على نتائج الصراع. لقد كان هذا الصراع أكثر من كونه معركة دعائية بين فرنسا والكولون من جهة والوطنيين الجزائريين من جهة أخرى، لأن هؤلاء جندوا لها أيضاً دعم الدول العربية ـ الإفريقية المحيطة، وخاصة مصر وتونس والمغرب. فمحطاتهم الإذاعية جعلت الثورة عبارة عن نداء لكل شمال إفريقيا إلى الوحدة العربية ضد الهيمنة (الإمبريالية) الغربية. ومن خلال هذه المحطات كانت هذه الدول تعيد توجيه تصوراتها، كما جعلت الجزائريين يتوحدون في نضال مشترك أثر على طبيعة الصراع نفسه. وهذه الدراسة ستبحث محتوى برامج الإذاعات، كما ستتبع آثار المراحل المختلفة للحرب التي خيضت على أمواج الأثير. وهذه المراحل تشمل:

1/ إذاعة صوت العرب من القاهرة.

2/ برامج جبهة التحرير الوطني (FLN) الموجهة بفضل التسهيلات المصرية.

3/ دخول إذاعتي تونس ثم المغرب الميدان باعتبارهما إذاعتين محاربتين.

4/ استعمال منظمة الجيش السري (OAS) أيضاً للإذاعة عند اقتراب نهاية الصراع الجزائري.

المذياع: سلاح حرب الكلمات

أدخل الفرنسيون المذياع إلى الجزائر لأول مرة سنة 1937. فقد كانت أجهزة البث الإذاعي لبرامج فرنسا الخامسة (F. Cinq) قد ركبت في مدينة الجزائر وقسنطينة ووهران، وكانت معظم البرمجة ترسل مباشرة من باريس بواسطة هذه الأجهزة، مادام القليل فقط من البرمجة ينتج في الجزائر نفسها. كانت لغة البث السائدة هي اللغة الفرنسية مادام الكولون الأوروبيون هم المستعملون الرئيسيون للمذياع. غير أنه بحلول أوائل الخمسينات كانت هناك حصص محدودة بالقبائلية والعربية بادرت بها الحصص المخصصة للغة العربية والقبائلية المراقبة من الدولة. ولكن ـ وكما لاحظ أحدهم ـ فإن «هذه الخدمة كانت نتيجة تفكير في سياسة (فرق تسد) التي اتبعتها فرنسا في الجزائر، وذلك بالتركيز على التنوع اللغوي ومحاولة جعل المجموعتين العربية والقبائلية على مسافة من بعضهما». [1]

ونتيجة لذلك، ونظراً إلى أن المذياع كان ينظر إليه على أنه رمز للهيمنة الفرنسية والمتكلم باسم سياساتها الاستعمارية، فإن قليلاً فقط من الأهالي الجزائريين قد امتلكوا هذا الجهاز. وتثبت أرقام (اليونسكو) لسنة 1949 أن غير الكولون امتلكوا فقط 24.000 أو 15٪ من أجهزة المذياع المستعملة. [2]

ويبدو أن المذياع كان يفصل الكولون عن «الأندجين» (الأهالي). حقاً لقد لاحظ فرانز فانون أن شعار المعركة عند الكولون قد يكون هو «لولا الخمر

---

(1) ريتا كروز أو براين R.C.O. Brien : الاحتراف الإذاعي: دراسة حالة الجزائر والسنغال (برايتون، انجلترا، 1976، ص 24.)

(2) الاتصالات الدولية: الصحافة والإذاعة والفيلم (باريس: اليونيسكو، 1950، ص41).

والمذياع لأصبحنا ربما كلنا متعربين.»[1] إن تكاثر بيع المذياع للأهالي الجزائريين تصادف مع مبادرة الدول العربية حديثة الاستقلال، لامتلاك محطات وطنية للبث الإذاعي وبرامج باللغة العربية في أواسط الخمسينات.[2] وهذا الاتجاه نحو امتلاك المذياع كان بالخصوص واضحاً بعد إنشاء مصر لبرنامج (صوت العرب) ومثيله من البرامج ذات الصلة الجزائرية. وهكذا، فإن هناك تحولاً في التصور والتفكير حول المذياع وقع بين الأهالي الجزائريين. ولعل (فانون) هو الذي أحسن شرح هذا التحول، فقد كتب سنة 1959 قائلاً: «بطريقة تكاد تكون سحرية، فقدت الأداة التقنية لجهاز الاستقبال الإذاعي هويتها كشيء عدو. ولم يعد المذياع جزءاً من مخزن المحتل للثقافة القمعية. وقد أصدر المجتمع الجزائري قراراً ذاتياً وذلك بجعل المذياع من الوسائل الأولى لمقاومة الضغوطات النفسية والعسكرية المتزايدة من قبل المحتل. إنه ذلك القرار الذاتي الذي آمن بالتقنية الجديدة، ومن ثم أدخل المجتمع نفسه في بوتقة الأنظمة الدالة التي جادت بها الثورة. . . . إن امتلاك مذياع أصبح يعني دفع الفرد ضريبته إلى الأمة، أي أنه اشترى به حق الدخول إلى الصراع الذي يخوضه شعب موحد»[3].

إن الإحصاءات التي قدمتها (اليونسكو) تؤيد ما ذهب إليه فانون. فأجهزة الاستقبال الإذاعي بلغت أكثر من الضعف بين 1954 ـ 1962. وإضافة إلى ذلك فإن المستمعين كانوا بالتأكيد أكثر من هذه الأرقام المشار إليها، لأنها تأخذ في الحسبان عدد الناس الذين يستفيدون من كل جهاز إذاعي.

(1) فرانز فانون: دراسات عن الاستعمار المحتضر ترجمة هاكن شوفالييه (نيويورك، 1965، ص74).
(2) نفسه، ص74.
(3) نفسه، ص 84.

أعداد مستقبلي الإذاعة في الجزائر (بالآلاف) [1]

	1952	1953	1954	1955	1956	1957	1958	1959	1960	1961 ـ 1962
المستقبلون	222	259	277	312	384	429	444	504	596	674
المستقبلون لكل ألف ساكن	24	28	29	32	39	42	43	46	54	61

كانت الرخصة مطلوبة من كل مالك لجهاز مذياع، وعندما بدأ الأهالي الجزائريون يشترون الجهاز بأعداد كبيرة وضعت السلطات الفرنسية شروطاً ثقيلة لبيع هذه الأجهزة. وكثير من أجهزة اللاسلكي (الترنزيستور) والبطاريات كانت في الواقع تهرب عن طريق المغرب وتونس.[2] وبعد سنة 1957 منعت السلطات الفرنسية تقريباً بيع البطاريات وبدأت بمصادرة كل الأجهزة الإذاعية التي يملكها أعضاء جبهة التحرير الوطني (FLN) أو المتعاطفين معهم.[3]

وهذه المعركة حول أجهزة البث الإذاعي لم تكن من جانب واحد فقط. ذلك أن جبهة التحرير أيضاً حاولت في عدة مناسبات أن تسكت الإرسال الإذاعي الذي يسيطر عليه الفرنسيون. ومنذ بداية الصراع كانت محطات الإذاعة

(1) إحصاء سنوات 1955 ـ 1960 مأخوذ من الإحصاءات عن الإذاعة والتلفزيون، 1950 ـ 1960 (باريس: اليونسكو، 1963، ص 56 ـ 57). ما يتعلق بأرقام سنة 1961 ـ 1962 يمكن العثور عليها في إذاعة وتلفزيون العالم (باريس، اليونسكو، 1965، ص 29). في سنة 1950 كان هناك 15 جهاز إرسال إذاعي (11 موجة متوسطة وأربع موجات قصيرة) تعمل بقوة 176 ك واط في الجزائر. وبحلول فترة 1959 ـ 1960 لم يضف إلا جهاز إرسال واحد بموجة متوسطة، ولكن القوة ازدادت إلى 728 ك واط (اليونسكو، 1963، ص 38).

(2) فانون، ص 85.

(3) نفسه، ص 96.

والكهرباء هدفاً للثوار. ففي يوم كل القديسين (أول نوفمبر 1954) مثلا ضربت جبهة التحرير في مدينة الجزائر هذه الأهداف بالقنابل، ولكنها لم تؤثر فيها إلا قليلاً.[1] كما أن جبهة التحرير كثيراً ما قنبلت «إذاعة الجزائر» التي يشرف عليها الفرنسيون خلال التراع. وغالباً أيضاً ما تستأنف المحطات بثها بنفس الوتيرة التي تضربها بها جبهة التحرير بعد إصلاحها.[2] وأخذ في الاعتبار محاولاتهما المشتركة للسيطرة على استعمال الخصوم لمحطات البث الإذاعي، فإن كلاً من السلطات الفرنسية وجبهة التحرير يبدو أنها كانت تعترف بفعالية قوة الكلمات المذاعة (المرسلة). وكان هذا صحيحاً بعد أن تحول التصور الأهلي الجزائري من اعتبار الإذاعة «شراً» إلى النظر إليها على أنها أداة مفيدة. وكلا الطرفين كان مدركاً أن المذياع له عدد من المكونات القائمة فيه مما يجعله مستعداً للتأقلم مع المجتمع الجزائري وأنه بذلك يمكنه أن يساعد على خدمة القضايا التي يتبناها برنامجه. إن الإذاعة كانت أقل كلفة، وأكثر فعالية في الوصول إلى عدد أكبر من الناس، ولا سيما إذا كان أكثر أعضاء هذا المجتمع من الأميين. فعيشة الثورة كانت نسبة الأمية بين جميع الأشخاص الذين هم فوق 15 سنة في الجزائر قد وصلت بين 80 ـ 85 في المائة.[3] ومن المحتمل أن يكون هذا الإحصاء الصادر عن اليونسكو يشمل أيضاً عدداً كبيراً من المستوطنين (الكولون). وبذلك تكون نسبة الأمية بين الأهالي الجزائريين فقط قد ارتفعت بالتأكيد إلى فوق 90 بالمائة من السكان.

إن مجتمعاً كان غارقاً في التقاليد الشفوية مثل مجتمع الجزائر، تصبح الكلمة بكل وضوح أكثر تأثيراً فيه من الكلمة المكتوبة. إضافة إلى ذلك، فليس

---

(1) جريدة واشنطن بوسط وجريدة التايمس هيرالد، 2 نوفمبر 1954ص 6.

(2) فانون، ص 92.

(3) الاتصالات الدولية: الصحافة والإذاعة والفيلم والتلفزيون، الطبعة الثالثة، (باريس: اليونسكو، 1956، ص55). إن أرقام سنة 1950 أرقام تقريبية، أما اليونسكو فتعطي للجزائر 9.367.000 نسمة.

من السهل على السلطات أن توقف البث الإذاعي كما توقف الصحف أو المنشورات السياسية لأن التشويش على أجهزة الإرسال الإذاعي لا يكون فعالاً إلا جزئياً فقط. وهناك عوامل أخرى جعلت الإذاعة مفيدة منها توفرها في كل وقت، ومرونتها (سيما الوحدات المدارة بالبطاريات والتي يمكن استعمالها في مناطق بدون كهرباء)، وقدرتها على الوصول إلى المناطق النائية، وأخيراً قدرتها على جلب جمهور مستمع للأخبار أو للدعاية لأنها تتغطى بمظاهر التسلية. كما أن برامج التسلية نفسها يمكن استعمالها أيضاً لأغراض سرية. وخلال وقت قصير كان الموظفون الجزائريون في مصلحة الإذاعة العربية الحكومية قد أنتجوا برنامجاً للأطفال أطلقوا عليه اسم «جمال الظلام». وكان موضوعاً بهدف جعل الأطفال يتغلبون على الخوف من الظلام، ولكنه سرعان ما ألغي بعد أن تبين الفرنسيون أن البرنامج كان مستعملاً لإحداث مشاعر التعاطف مع جبهة التحرير التي يعمل أعضاؤها تحت جنح الظلام.[1] باختصار فإن المذياع كانت له طاقة كامنة ليكون أداة قوية للثورة. ولعل هذه الطاقة لا تظهر في أي مكان أكثر مما تظهر واضحة في البث الإذاعي القادم من القاهرة.

صوت العرب: بداية حرب البث الإذاعي

محطة «إذاعة القاهرة» دشنها الرئيس المصري محمد نجيب في شهر مايو، 1953 لتذيع على محطة إرسال ذات موجة قصيرة واقعة في أبو زعبل على بعد 15 ميلاً من العاصمة. إن هذه المحطة تسمع على بعد يقدر بـ 2500ميل.[2] والواقع أن ما كان يعرف باسم «إذاعة القاهرة» كان في الحقيقة عدداً من الإذاعات، وكلها ترجع إلى القاهرة. وأكبر وأهم برنامجين فيها بالنسبة لموضوعنا هما برنامج الإذاعة المصرية المحلي Egyptian Home Service ثم البرنامج الأكثر شهرة وهو «صوت العرب» الذي بدأ يذيع في الرابع من يوليو

(1) أوبراين، ص 24.

(2) التايمز (لندن)، 4 مايو، ص 7 أ.

1953. وكلا البرنامجين قادر على الوصول إلى الجزائر.[1]

ومنذ البداية كانت إذاعات القاهرة موجهة نحو بلاد المغرب (المغرب العربي) التي كانت ما تزال ترزح تحت الاستعمار الفرنسي. وعندما كانت المغرب وتونس في حالة ثورة سنة 1953 «تهدم أعمدة الإمبرالية الفرنسية» كان (صوت العرب) يستغرب لماذا كانت الجزائر خامدة وساكنة كما لو كانت «في سبات عميق»[2] وهو الاستغراب الذي استمر إلى أن اندلعت الثورة الجزائرية في غرة نوفمبر 1954، وعندئذ أعلن برنامج صوت العرب إلى العالم العربي:

«أيها الإخوة. . . . إن الجزائر قد عادت إلى النضال البطولي المجيد من أجل الحرية والعروبة والإسلام! فبعد القمع الذي فرضته الإمبريالية ودام تسع سنوات [أي منذ حوادث سطيف 1945]، ها هي الجزائر اليوم قد رفعت رأسها في كل مكان وبكل فخر. اليوم. . . . وعلى الساعة الواحدة صباحاً بدأت الجزائر تعيش حياة الكرامة والعزة. اليوم بدأت النخبة القوية في الجزائر الانتفاضة الجزائرية من أجل الحرية ضد الهيمنة الفرنسية في شمال إفريقيا. . . . إنها انتفاضة عارمة وبلا هواده تشترك بها الجزائر في نضال المغرب العربي والتي يجب أن تقود كل المغرب العربي إلى الحرية والكرامة.»[3]

---

(1) انظر دوغلاس بويد D. A. Boyd «تطور الإذاعة المصرية: صوت العرب في عهد ناصر من فصلية الصحافة quarterly journalism (شتاء 1957) ص 654 ـ 653، وكذلك بويد «الإذاعة المصرية: أداة التطور السياسي الوطني» كتاب الصحافة Monograph journalism رقم 48 (ليكسنغتن، كونتاكي، فبراير، 1977)، فهو يقدم عملاً جيداً عن الموضوع، وقد لاحظ (بويد) أن الأرض والمناخ والموقع تجعل بإمكان البرنامج الرئيسي المصري المحلي أن يسمع في أماكن أخرى في الشرق الأوسط.

(2) مصلحة الاستعلامات الإذاعية الأجنبية (FBIS)، 4 نوفمبر 1954، أ 1 ـ 3وقد نقل صوت العرب من برامجه السابقة في الثاني من نوفمبر 1954.

(3) مايكل كلارك M.K. Clark الجزائر المضطربة: تاريخ الثورة (نيويورك 1959) ص110، انظر أيضاً النيويورك تايمس 3 نوفمبر 1954، 8: 3، وهناك إذاعات عربية أخرى ـ وهي خارج نطاق هذه الدراسة ـ مثل (صوت الاستقلال الوطني والسلام) التي تنطلق من =

كان ما صدر من القاهرة قد أدى بالسلطات الفرنسية في الجزائر إلى ادعاء أن الثورة موجهة من الخارج. فهذا الحاكم العام للجزائر «روجي ليونار Roger Leonard» قد عبر عن هذه الفكرة ووصم إذاعة (صوت العرب) بأنها تدعو إلى عدم الاستقرار.[1] وقدمت باريس شكوى ضد مصر، وحاولت التشويش على إذاعات أخرى مماثلة. ولكن هذا التشويش لم يكن ناجحاً إلا جزئياً. مثلا في اليوم التالي للثورة، أذاع جيش التحرير الوطني الجزائري نداء. وبعد أن سرد تاريخ القمع الفرنسي منذ 1830 ووضع خطوطاً لوسيلة الرفع من وتيرة النضال، استمر النداء المذاع يقول:

«إن أي نقص في اليقظة سيتسبب في سقوط عدد كبير من الضحايا. ولذلك فإياكم وضياع الوقت. سيروا إلى الأمام مع تنظيم عملكم إلى جانب القوات التحريرية التي يجب عليكم أن توفروا لها كل الدعم والحماية في كل الأوقات والأماكن. وبهذه الطريقة ستنتصرون في قضيتكم. إنه لجريمة ألاّ تبالوا بالنضال، وإنها لخيانة أن تعرقلوا مسيرة النضال. إن الله مع المناضلين من أجل القضايا العادلة. وليس هناك قوة تستطيع الوقوف في طريقهم، ما عدا الاستشهاد في ميدان الشرف والكرامة والتحرير الوطني. فليعش جيش التحرير! ولتعش الجزائر المستقلة!»[2]

استنكر الفرنسيون إذاعة القاهرة والدعم المصري للثوار. ففي الثاني عشر

= بودابست وكانت تسمع في شمال إفريقيا، ونشرتها يوم 25 أكتوبر 1954، و4 نوفمبر1954 تعتبر نماذج واضحة لهذه اللهجة حين تقول إن شعوب تونس ومراكش والجزائر سوف لا تخدع من قبل الإمبريالية الفرنسية، إن هذه الشعوب ستستمر في نضالها حتى تصبح صاحبة السيادة على مصيرها (FBIS، 27، أكتوبر، ب، 1 ـ 2).

« إن الحكومة الفرنسية تريد خلق مناخ خال من الأمن العام ، إنها تمهد الطريق للقمع العام لكل الأمم وكل من يتكلم عن الحرية والديمقراطية» (FBIS، 5 نوفمبر، ب 2).

(1) النيويورك تايمس، 3 نوفمبر 1954، 8: 3.

(2) FBIS، 3 نوفمبر 1954، أ 2.

من نوفمبر عبر رئيس الوزراء الفرنسي بيير منديس فرانس عن قلقه إزاء ما سماه نداءات مصر من أجل التمرد والقتل.[1] وبعد أسبوع من هذا التصريح عبر منديس فرانس في خطبة نارية له في النادي القومي للصحافة على نفس الرأي حين قال إن الجزائريين يتعرضون يومياً إلى «التحريض على العنف بواسطة دعاية منظمة صادرة عن إذاعات بودابست والقاهرة... إن هذه الحرب الكلامية قد منحت لها أهمية دموية بمدها بالسلاح وتسريب المهيجين من نفس العاصمتين.»[2] وعندما اشتدت أصوات الاتهامات والاحتجاجات الفرنسية وافق الرئيس جمال عبد الناصر على تلطيف لهجة الإذاعة لكي يسمح لباريس بالوقت «لإنجاز وعودها في شمال إفريقيا».[3] ولكن تلك المهلة لم تستغرق طويلاً ففي زمن قصير استأنفت موجات الإذاعة إرسالها بكامل الحمية والإثارة. ولم تتوقف فرنسا خلال هذه الفترة عن الضغط على مصر لكي توقف بثها الإذاعي.

وفي أوائل سنة 1955 أرسل عبد القادر حاتم وهو الرجل المسؤول على إذاعة صوت العرب ومن قطاع مصلحة الاستعلامات المصرية، إلى باريس لإجراء محادثات مع وزير الخارجية الفرنسي، كريستيان بينو Ch. Pineau وأثناء المحادثات ألمح بينو إلى أن فرنسا يمكن أن تمد عدو مصر إسرائيل بطائرات عسكرية متقدمة إذا لم تتوقف القاهرة عن مساعدة جبهة التحرير الوطني، بما في ذلك وقف إذاعة (صوت العرب). فرد عليه حاتم بأن التهديد لن يكون له أي أثر على دعم مصر «للمطالب الشرعية الجزائرية».[4] وهكذا استمرت مصر في

(1) النيويورك تايمس، 13 نوفمبر 1954، 4

(2) النيويورك تايمس، 20 نوفمبر 1954، 2، انظر أيضاً هامش 14.

(3) النيويورك تايمس، 27 نوفمبر 1954، 3: 2.

(4) عبد القادر حاتم: الاستعلامات والقضية العربية (لندن، 1947، ص 167 ـ 8). لقد عمل حاتم في مصلحة الاستعلامات المصرية أكثر من عشرين سنة، ثم أصبح وزيراً للاستعلامات، وكان نائباً لرئيس الوزراء سنة 1974. والوزن الذي أعطاه ناصر لنشرات الإذاعة يمكن ملاحظته في سبتمبر 1958 حين تبادل مع داج همرشولد الحديث، فبعد =

إذاعتها بينما استمرت فرنسا بطريقة سرية في مد إسرائيل بالعتاد الحربي، وهي العملية التي شرعت فيها باريس منذ 1954 .[1] إن هاتين القوتين المتعارضتين ـ وهما الدعم المصري لجبهة التحرير الوطني وبث إذاعتها من جهة والتحالف الفرنسي/ الإسرائيلي من جهة أخرى ـ سيبلغان الذروة في حرب السويس سنة 1956 . فمنذ الأيام الأولى للثورة الجزائرية كانت الحكومات الفرنسية المتعاقبة مقتنعة بوجهة نظر واحدة وهي «أنه إذا رحل عبد الناصر فإن انهيار الثورة الجزائرية سيتلوه».[2] وبناء على ذلك فإن فرنسا بدأت تحضر لضربة عسكرية تنهي تدخل عبد الناصر وتضع حداً للثورة في الجزائر.

وفي نفس الوقت حاولت فرنسا من جهتها أن ترد على بث إذاعة القاهرة ببعض البث من عندها هي، ففي أبريل 1955 عرضت إذاعة عربية من باريس موجهة إلى شمال إفريقيا شهادة لمحمد بن حمدي العزيز، الذي ادعت السلطات الفرنسية أنه كان متورطاً مع الثوار الجزائريين قبل إلقاء القبض عليه. وبعد أن أعلن ابن حمدي عن «أخطائه» قال:

= أن سأله الأمين العام للأمم المتحدة: هل يمكن نزع سلاح الإذاعة؟ «أجابه ناصر: كيف يمكنني الوصول إلى قاعدة سلطتي؟ إن سلطتي موجودة في الجماهير العربية و. . . والطريقة الوحيدة التي أصل بها إلى شعبي هي الإذاعة، فإذا سألتني عن نزع سلاح الإذاعة فإنك تسألني أن أتخلى عن كل أسلحتي»، نقلاً عن محمد هيكل: وثائق القاهرة (نيويورك تايمس، 1973 ص 173).

(1) لاحظ دونيد نيف Donaid Neff في محاربون في السويس، براتلبورو، vt، 1988) أن اتفاق الأسلحة السري بين باريس والقدس (إسرائيل) أصبح هاماً سنة 1954 . . . وفي أوائل 1955، أي شهور قبل أن تتفاوض مصر على الأسلحة مع بلاد التشيك بدأت تصل إلى الموانىء الإسرائيلية مدافع فرنسية من عيار 155 م م، وتلاها بعد ذلك سريعاً وصول 13 ـ AMX من الدبابات الخفيفة والطائرات النفاثة (3 ـ 162). إن هذا الإمداد كان انتهاكاً للإعلان الثلاثي لسنة 1950 بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والذي يحرم بيع الأسلحة من طرف واحد إلى بلدان الشرق الأوسط.

(2) هورن، ص 162.

«لقد شاركت في عملية لن تقود إلى نتائج حسنة. فبينما كنت أعاني بين العشائر كان العرب الآخرون يقضون أوقاتاً ممتعة في القاهرة. إن أولئك الناس اغتنموا فرصة شبابي وعقيدتي وأدخلوني إلى جماعتهم. غير أني على يقين أن عملهم لن يقود إلى أية نتيجة. وأخيراً أهملوني وقد جرحت وأسرت. وبهذه المناسبة فإني أريد أن أخاطب إخوتي في الجزائر الذين يحملون السلاح ليحاربوا به الحكومة (الفرنسية).... إن هذا العمل المسلح يؤدي إلى ارتكاب الجريمة. إن ما تفعلونه لن يحقق الأشياء الطيبة التي ترجونها والتي تحاربون من أجلها. إنكم بأعمالكم هذه تجعلون الوضع السياسي أكثر بعداً عن الحل. وستكون النتيجة هي البؤس والوضع الصعب. وإنني أعتقد أنه من الأفضل لكم أن تهدأوا وأن تتوقفوا عن الحرب، ألقوا بأسلحتكم وعودوا إلى منازلكم، والسلام عليكم». (1)

إن فرنسا اليوم أرادت أن تبث الفرقة داخل صفوف الوطنيين وذلك بتصوير قيادة جبهة التحرير الوطني في القاهرة بأنها تقضي «أوقاتاً ممتعة» بينما الجزائريون يعانون الحرب التي لن تؤدي إلى أي نتيجة. والواقع أن الذي فشل في تحقيق نتيجة واضحة هو لجوء الإذاعة الفرنسية إلى مثل هذه (الدعاية). فالإذاعات الفرنسية لم تغير قيادة الجبهة، سيما عندما تصادفت تلك الإذاعة مع اليوم الذي أعلن فيه الوطنيون الجزائريون على أمواج (صوت العرب) كيف استقبلت المقاومة في مؤتمر باندونج الذي ختم أعماله للتو، وهو المؤتمر الذي عقدته الدول حديثة الاستقلال. فقد تكلم فيه محمد خيضر أحد القادة الثلاثة المتمركزين في القاهرة عن الدعم الذي حصلت عليه القضية الجزائرية بين الـ 25 مشاركاً دولياً. وختم خيضر كلامه بما يلي:

«أيها الجزائريون الأحرار! برهنوا من خلال كفاحكم المستمر أنكم تستحقون الحرية. إن مؤتمر باندونج سيكون أول مؤتمر دولي عظيم حيث

---

(1) FBIS، 21 أبريل 1955، BI.

سيتردد صدى كفاحكم وكفاح أمثالكم في آسيا وإفريقيا. كما سيكون أيضاً المكان الذي سيتقرر فيه المصير النهائي للإمبرياليين.»[1]

إن هذه الكلمات كانت أكثر تأثيراً (على الرأي العام الجزائري) من كلمات سجين في القبضة الفرنسية.

وخلال بقية سنة 1955 وأوائل 1956 كانت الإذاعة المصرية تتحدث عن «الإرهاب الفرنسي العسكري» في الجزائر وتشجب استعمال أسلحة الحلف الأطلسي (الناتو) للقضاء على الثورة، وتندد بدور الولايات المتحدة الأمريكية لعدم لجم حلفائها الفرنسيين، وتنعته بالدور المخجل.»[2] وتختلط مع هذه الحملة الإذاعية الاحتجاجات الفرنسية على اللهجة المعادية لفرنسا، ثم وعد فرنسا برفع الحظر على السلاح لمصر إذا أوقفت هذه حملتها الإذاعية.[3]

ولكن العلاقات الفرنسية المصرية ازدادت توتراً. ففي يوليو 1956 انحازت لهجة الإذاعة المصرية أكثر فأكثر إلى الجزائر وأصبحت أكثر عداء لفرنسا. وكانت إذاعة (صوت العرب) يوم 7 يوليو نموذجاً لهذا الاتجاه. فقد أعلن صوت العرب عندئذ:

---

(1) FBIS، 20 أبريل 1955، A4.

(2) FBIS، 30 أغسطس 1955، 9 ـ A 8، 3 أبريل 1956، 5 ـ A 4، 2 يوليو 1956، Az، وكتب فانون أن صوت العرب كان مؤثراً حتى في منطقة القبائل التي لم تكن فيها اللغة العربية هي اللغة المحلية... «كان الفلاحون ينصتون في خشوع ديني إلى صوت العرب» وقليل منهم كان يفهم اللغة العربية الفصحى المستعملة في النشرة الإذاعية ولكن الوجوه تصبح أكثر اهتماماً وجدية والملامح تظهر أكثر حزماً عندما تنطق كلمة الاستقلال ويتردد صداها في الكوخ (القوربي)، ويكفي أن يكنون هناك صوت عربي أن يكرر كلمة الاستقلال (أربع مرات للمحافظة على مستوى اليقظة العالية والإيمان القوي بالنصر) ص 87.

(3) انظر نيويورك تايمس 6 سبتمبر 1955، 1: 2 حول ادعاءات الفرنسيين من أن هناك حملة مخططة لإثارة الشعب في الجزائر. أما عن اتفاق السلاح مقابل منع الإذاعات، فانظر نيويورك تايمس، 26 نوفمبر 1955، 3:2.

«أننا نريد أن يكون العرب في كل أقطارهم قادرين على التطوع للكفاح الجزائري لكي يكافحوا جنباً إلى جنب مع إخوانهم الجزائريين من أجل قضية حرية العرب في الجزائر وفي البلاد العربية الأخرى. . . . إن ذلك هو ما يحتاجه الكفاح الجزائري من العرب، وذلك هو ما يريده صوت العرب من العرب. وذلك هو ما تطلبه حرية الجزائر. بل ذلك هو ما تتطلبه حرية العرب في كل مكان.»[1]

ومن ناحية أخرى قام ناصر بأطروحة مشابهة في خطبته التي أعلن فيها تأميم قناة السويس في 26 يوليو، وهي الخطبة التي أذيعت إلى شمال إفريقيا. فقد أكد الرئيس المصري أن الولايات المتحدة وبريطانيا تدعمان «الإمبريالية الفرنسية لاغتيال الجزائريين.»[2] وبعد ذلك جاء تعليق في صوت العرب يقول إن عرب مصر يحاربون في مصر ضد أعداء الجزائر وإن عرب الجزائر يحاربون ضد الفرنسيين، أعداء مصر. ذلك هو ما عبر عنه زعيمنا.[3]

إن لهجة إذاعة يوليو هذه قد تواصلت إلى شهر أكتوبر عندما هاجمت وسائل الاتصال «العمل القمعي» و«الخطف الخائن» لمحمد خيضر وأحمد بن بلة، وغيرهما من زعماء جبهة التحرير، عندما قبض الفرنسيون عليهم بتحويل طائرتهم.[4] ونظراً لهذه الإذاعات فإنه ليس من المستغرب أنه عندما تحالفت

---

(1) FBIS، 9 يوليو 1956، أ 1ـ2.

(2) FBIS، 27 يوليو 1956، أ 12.

(3) صوت العرب 29 يوليو، 1956 نقلاً عن الرايس أحمد خان «إذاعة القاهرة والسياسة الخارجية المصرية» 1956 ـ 1959 (وهي أطروحة دكتوراه من جامعة ميشيجان، 1967 ص 84)، وقد قدم وزير الدفاع الفرنسي ملاحظة مشابهة في شهر مايو، لكن بطريقة مختلفة، فقد قال «إن الفرنسيين كانوا يحاربون في الجزائر لوقف خطط ناصر التوسعية. . . إن طموحات الدكتاتور المصري لا حدود لها. . . فهو لا يعمل فقط على جعل الشرق الأوسط تحت جناحه ولكن شمال إفريقيا أيضاً، بل وجزءاً كبيراً من إفريقيا جنوب الصحراء كذلك»، انظر النيويورك تايمس، 28 مايو 1956، 3: 2.

(4) FBIS، 26 أكتوبر 1956، أ 1 ـ 3، حدث نزاع طويل بين بريطانيا وفرنسا حول النشر=

فرنسا وبريطانيا وإسرائيل لمهاجمة مصر، كانت باريس قد جعلت وسائل إذاعة القاهرة هدفها الرئيسي. لقد كان هذا واضحاً منذ تأميم قناة السويس والدعم المصري للمقاومة الجزائرية حيث كانت هذه الأمور مترابطة في أذهان الفرنسيين.

إن فرنسا، ومنذ جاك سوستيل وخلفائه قد وطنت نفسها، بطريقة خاطئة، أن ناصر وابن بلة كانا يمثلان المحرك الأساسي (الدينمو) للثورة الجزائرية.[1] فقد كانت باريس تعتقد أنه مع وجود ابن بلة في السجن والهجوم على ناصر يوشك أن ينطلق فإنها ستكون متفائلة بأن مشاكلها الجزائرية في طريق الحل.

كانت الموجة الأولى للهجوم الإنجليزي ـ الفرنسي قد ضربت محطة الإذاعة في أبو زعبل. وسرعان ما نظمت مصر وحدات إذاعية متنقلة واستأنفت البث.[2] فأمر قائد القوات الإنجليزية ـ الفرنسية بالتشبويش على هذه الوحدات.[3] ولكن الانسحاب المفروض والإهانة للجنود البريطانيين والفرنسيين، تحت ضغط من موسكو وواشنطن، قد رفعت من قوة ناصر

= الإذاعي، وهو النزاع الذي حل بالاتفاق أثناء غزوة السويس، وهو يبرهن على أنه جزء من اتفاق التحالف، فقد كانت فرنسا تحتج على لندن حول النشرة العربية من محطة الشرق الأدنى في قبرص، لكن المحطة كانت تقول أنها إذاعة عربية مستقلة، رغم أنها في الواقع كانت محطة شبه بريطانية رسمية، ولكن لندن لم تعلن ذلك رسمياً. كانت المحطة تجري مقابلات مع زعماء جيش التحرير الوطني، وفي 24 فبراير 1956 هاجمت القرار الفرنسي بإرسال جنود إضافيين إلى الجزائر قائلة إن باريس لا تزيد أن تحارب المسلمين رفقاء السلاح في الحرب العالمية الثانية، وهو الأمر الذي أثار الاحتجاجات الفرنسية، (انظر التايمز (لندن)، 13 يوليو 1956، ف10). وفي 30 أكتوبر أعلنت لندن أنها استولت على المحطة وغيرت اسمها إلى (صوت بريطانيا)، وأن عملية الاستيلاء كانت ضرورية لقيام الحرب بين إسرائيل ومصر (انظر التايمز، لندن، 31 أكتوبر 1956، ب7).

(1) هورن، ص 162.
(2) حاتم، ص 199.
(3) التايمز (لندن)، 17 نوفمبر 1956، 6ب.

وسمعته في العالم العربي وما أبعد منه. ونتيجة لذلك فإن البث بعد استئنافه حسب جداول منتظمة قد شهد أن عدد المستمعين زاد أكثر من ذي قبل.

تونس تشترك في البث الحربي

بين خطبة التأميم التي أعلنها ناصر وفصل الربيع سنة 1957 دخلت حرب البث الإذاعي مرحلة جديدة. فقد وقعت تطورات خارجية وداخلية مما ساعد فرصة الوطنيين الجزائريين على البث إلى الجزائر. ومع استقلال المغرب وتونس سنة 1956 أصبح لجبهة التحرير حكومتان مجاورتان صديقتين. وقد سارعت تونس فوراً بمساندة الثورة الجزائرية شفوياً عبر أمواج الأثير. في يوليو 1956 أعلنت إذاعة تونس أن هدفها هو الوقوف ضد الدعاية الفرنسية. فكان بثها يشجع الثورة بهذه الكلمات: «أيها الإخوة الجزائريون الأعزاء، إن قضيتكم عادلة، إن العالم كله يساندكم. . . . إن فرنسا لا تخضع إلا للحرب والدم، كما حدث في سوريا ولبنان والهند الصينية، وفي تونس والمغرب. . . . فالجزائر لم تكن ولن تكون يوماً فرنسية».(1) وأسرع الفرنسيون إلى عقد مقارنة بين هذا البث من تونس ومحتوى البث الآخر الصادر من القاهرة. فبعد أن احتجت باريس على الرئيس الحبيب بورقيبة الذي صادف أن كان في فرنسا عند إذاعة ذلك الخبر، رضيت تونس أن تخفف من لهجة إذاعتها للجزائر. ولكن هذا الوعد لم يحفظ سوى بضعة أشهر، ربما لأن المفاوضات كانت ما تزال جارية مع الفرنسيين حول وضع التسهيلات الإذاعية في تونس، ذلك أن المحطة الإذاعية وأجهزة الالتقاط كانت ما تزال في ملكية نظام البث الوطني الفرنسي.

وفي أول سبتمبر 1956 حصلت الحكومة التونسية على الرقابة على المحطة الإذاعية التونسية بمقتضى اتفاق وقعته مع باريس، وفي اليوم التالي بدأت الإذاعة تذيع برنامجاً عنوانه، صوت الأمة الجزائرية العربية الشقيقة على

---

(1) نشرة 2 يوليو، كما نقلتها التايمز، 3 يوليو 1956، 9د.

أمواجها، وأول إذاعة له اتهمت الجنود الفرنسيين بارتكاب فظائع في الجزائر. ولجأت احتجاجات باريس إلى التذكير بفقرة من الاتفاق الموقع حديثاً بين البلدين والتي تتحدث عن كون الإذاعات الصادرة من البلدين «ستحترم روح الصداقة والتعاون التي تلهم العلاقات الفرنسية - التونسية.»(1) أما حكومة بورقيبة فقد اعتبرت هذه الشكاوى بأنها تدخل في شؤون «السيادة» التونسية.

وهناك تطورات أخرى حدثت في هذه الفترة، ذلك أن مصر أعطت لجبهة التحرير الوطني حق إذاعة برنامج على الهواء مباشرة عنوانه (صوت الجزائر المكافحة)، وهو البرنامج الذي أعيدت تسميته (صوت الجمهورية الجزائرية) في سبتمبر 1958 تاريخ إعلان الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. ومع استمرار (صوت العرب) في بثه المتعاطف مع الجزائريين فإن هؤلاء أصبحت لديهم الآن وسيلتهم الخاصة لتوصيل رسالتهم إلى الجزائر. وفي ربيع 1957 أنشأت جبهة التحرير محطة إذاعية سرية، وهي (إذاعة الجزائر الحرة) داخل الجزائر. لقد استعملت جبهة التحرير هذه الإذاعة لتكمل بها الإذاعات الموجهة من تونس والقاهرة.(2)

وإن نموذجاً من إذاعة القاهرة خلال 1957 يقدم مفتاحاً للموضوعات التي استعملها الوطنيون الجزائريون.(3) فمن المواضيع الرئيسية الهجوم الكلامي على الزعماء الفرنسيين:

«إن حكومة موليه تصر على استمرار الحرب في الجزائر إلى أن تقضي هذه الحرب على فرنسا نفسها، ففرنسا لا تريد أن تفهم حقوق الشعوب ولا

---

(1) نيويورك تايمس، 30 أغسطس، 1956، 3، 10 سبتمبر 1956، 3.

(2) جوان غلسباي Joan Gillespie: الجزائر تمرد وثورة، ويستبورت، 1960، ص 152، لم نعثر في FBIS، على أية نقول من نماذج النشرات الإذاعية بغرض استعمالها لهذه الدراسة من «إذاعة الجزائر الحرة».

(3) النصوص التالية مأخوذة من FBIS، وفي كل الأحوال فقد ظهرت في التقرير اليومي، أي اليوم التالي مباشرة لتاريخ النشرة حيث تذكر مع النص.

تعترف باستقلال الجزائر. إن موليه لا يريد أن يتعلم الدرس من زميله رئيس الوزراء البريطاني إيدن، الذي استقال حديثاً، وهو مجرم الحرب الآخر. إن موليه يقود فرنسا إلى الهاوية، وهو يصم أذنيه عن سماع صراخ الصحافة الفرنسية والرأي العام. إنه يغلق عينيه عن الوضع المؤلم لفرنسا ويواصل الحرب في الجزائر ويقمع فيها الحرية.... إن مقاومة العرب في الجزائر قد أدت بفرنسا إلى الإفلاس وإلى ضياع هيبتها.... إنها ستفقد كل شيء، بينما الجزائر ستبقى لعرب الجزائر (9 يناير 1957).

«أيها الإخوة في مصر، أيها الإخوة في الجزائر، هل رأيتم نتائج نضالكم؟ هل جنيتم ثمرة نضالكم وصبركم؟ أيها الإخوة العرب، تابعوا مجرى الأحداث، إن حكومة موليه سقطت أمس بسبب قانون يفرض ضريبة جديدة لتمويل عناد الإمبرياليين الفرنسيين ومواصلة الحرب في الجوائر (22 مايو 1957)».

ومن الموضوعات التركيز على فعاليات القوات الثورية داخل الجزائر، ومعارك النصر ضد الفرنسيين، والتعاليق على حالة القضية الجزائرية في الأمم المتحدة، والإمبريالية الفرنسية، وأهداف الثورة. وقد تعرضت الإذاعات إلى الموضوعين الأخيرين كما يلي:

«وهكذا، فإن نضال الجزائر العادل من أجل الاستقلال والحرية ليس إرهاباً جماعياً كما ادعى رئيس الوزراء المعين: أنطوان بيناي. إنه نضال عادل وشرعي تدعمه كل قوانين العالم والشعوب الحرة في كل مكان. إن الحرب بيننا وبين فرنسا ليست ضد الديمقراطية كما يقول بيناي، إنها حرب تحريرية ضد الإمبرالية الفرنسية المعتدية... إن على فرنسا أن تعترف أن الزمن يسير معها في اتجاه معاكس، فإن الشعب الجزائري مصمم على مواصلة النضال إلى الموت أو النصر (16 أكتوبر 1957)».

«إنها ثورة تنمية وبناء، إنها ثورة تريد أن تحطم حالة الطغيان وأن تقيم حكومة الشعب». (أول نوفمبر 1957).

وبحلول سبتمبر 1957 كان كل من (صوت الجزائر الحرة) و (صوت العرب) يذيع برامج باللغة الفرنسية من القاهرة إلى أوروبا. وهكذا فإن مرحلة جديدة من حرب الكلمات قد بدأت، وإن هذه الإستراتيجية الجديدة كانت محاولة لتجنيد الرأي العام الأوروبي حول القضية الجزائرية. وفي المراحل الأولى ركزت الإذاعات على سرد الخسائر العسكرية الفرنسية والإجراءات القمعية التي لجأت إليها السلطات الفرنسية ضد الأهالي.[1] وقد استمرت الإذاعة باللغة الفرنسية بصفة متقطعة أثناء سنتي 1958، 1959، وهو التاريخ الذي ردَّ فيه الفرنسيون على ذلك بإنشاء محطة إذاعية سرية بالعربية في الجزائر.[2] وهي المحطة التي كانوا يذيعون منها برنامجاً أطلقوا عليه اسم (محطة إذاعة حركة النهضة الجزائرية) والذي حاول أن يخلق الشقاق في صفوف الوطنيين بإبراز وجهات نظر المتمردين الجزائريين (على جبهة التحرير) ولا سيما وجهة نظر الحركة الوطنية الجزائرية (MNA) وزعيمها مصالي الحاج، وأن لهجة الإذاعة في موالاة فرنسا ومعاداة جبهة التحرير يمكن إدراكها من برنامج سبتمبر 1959 حين وقعت محاولة اغتيال مصالي الحاج». فقد قالت:

«إن كمشة من المجرمين قاموا أخيراً بإطلاق النار على الزعيم الوطني مصالي الحاج الذي قضى حياته في السجن من أجل حق تقرير المصير للشعب الجزائري. لقد قاموا في نفس اليوم الذي أعلن فيه الجنرال ديغول تصريحه التاريخي عن الجزائر والذي كان فيه واضحاً من أن الشعب الجزائري سيختار بنفسه بين جبهة التحرير وغيرها.... إن ذلك التصريح كان نصراً شخصياً للزعيم مصالي الحاج ولكل الجزائريين المؤمنين بالأفكار الديمقراطية التقدمية.. والحقيقة هي أنه إذا كانت جبهة التحرير لها أي ثقة في نفسها أو فيما تقوله من

---

(1) انظر FBIS، 12 سبتمبر 1957، ب8، عن إذاعة «صوت الجزائر» و15 نوفمبر 1957، 12، عن إذاعة جيش التحرير الوطني و «صوت العرب».

(2) لورانس صولي L.C. Soley وجون نيكولس J.S. Nichols: البث الإذاعي السري: دراسة في الاتصالات الإلكترونية الثورية والمضادة للثورة (نيويورك، 1987، ص 71).

أن الشعب الجزائري يفكر فيها، فقد كان عليها أن تدعم فوراً تصريح الجنرال ديجول لأنه يمثل فرصة فريدة... إننا نقدم آخر نداء لجبهة التخريب، جبهة التحرير الوطني، توقفوا عن التعسف واغتيال الرجال الأحرار وعن طموحكم الذي لا حدَّ له، وإلا فإن الجواب سيكون العمل وليس الكلمات». [1]

ورغم أن الحركة الوطنية (MNA) فقدت، بحلول 1957 أي ولاء حقيقي من معظم الجزائريين، فإن فرنسا استمرت في مغازلة فكرة المفاوضات مع هذه المنظمة. فإلى مارس 1961 حين كانت محادثات إيفيان مع جبهة التحرير ستبدأ، أعلن لويس جوكس، وزير شؤون الجزائر، أنه سيجتمع بالتوازي مع الحركة الوطنية وجبهة التحرير. [2] لقد استمر البث أيضاً من هذه المحطة الموالية لفرنسا إلى سنة 1961.

المغرب أصبح محطة إذاعية مناضلة

المرحلة اللاحقة في البث الحربي بدأت في 1959 حين انضمت المغرب إلى مصر وتونس في حملة البث الموجهة إلى الجزائر. فقد أعلنت الحكومة المغربية في مايو 1959 أنه بنهاية السنة ستصبح جميع أجهزة الإرسال الإذاعية تحت رقابة الدولة وأن إشراف الدولة على هذا البث سيبدأ خلال شهر. إن هذا

---

(1) FBIS، 25سبتمبر 1959، A1. انظر أيضاً 22 سبتمبر 1959 قضى مصالي الحاج وقتاً طويلاً في السجنون الفرنسية، وقد أطلق ديجول سراحه من الإقامة الجبرية عشية توليه رئاسة الجمهورية الخامسة (هورن، ص 236 ـ 237).

(2) هورن، ص 267. لقد أثار ذلك مخاوف من أن فرنسا تستعمل MNA، كما استعملت باوداي في الفيتنام، لكي تضغط بها على الوطنيين الجزائريين، وقد كتب ويليام كانت W.Quandt بأن أكثر من نصف مليون جزائري كانوا يعيشون ويعملون في فرنسا خلال هذه المدة «في السنوات الأولى للثورة، كان معظم هؤلاء العمال تحت تأثير الـ MNA التابعة لمصالي الحاج، وهي أقوى منافسة لجبهة التحرير من أجل الشرعية، ولكن بالتدريج استطاعت جبهة التحرير، من خلال عمل مزدوج من الترغيب والترهيب، أن تنظم أغلبية الجزائريين في فرنسا في إطارها (أي إطار جبهة التحرير)» ص ب121.

الظهير (المرسوم) كان يستهدف المحطات الإذاعية التجارية التي يملكها أجانب في طنجة بما في ذلك أجهزة الإرسال العسكرية الأمريكية والفرنسية، وكذلك التسهيلات الممنوحة «لصوت أمريكا» (VOA) في المغرب الذي كان يذيع بأربع وعشرين لغة إلى أوروبا الشرقية والشرق الأوسط.[1] كما أن الحكومة المغربية شرعت في عملية «المغربة». ومن ثمة فإن العمال الفرنسيين سيحل محلهم عمال مغاربة بينما برامج اللغة الفرنسية ستخفض لصالح البث باللغة العربية.[2]

وفي ضوء ذلك توصلت واشنطن إلى اتفاق في يناير 1960 استثنيت بمقتضاه من القانون الجديد التسهيلات الممنوحة لصوت أمريكا إلى سنة 1964 بينما سمح للرباط بثمانين ساعة من البث أسبوعياً، كما اقتضى الاتفاق ألا يضر برنامج صوت أمريكا بالمصالح المغربية ولا يكون هناك طرف ثالث يستعمل تلك التسهيلات. وفي هذا إشارة واضحة إلى فرنسا التي كانت في السابق تبث حتى إلى ثلاث ساعات في اليوم على أجهزة الإرسال (الأمريكية).[3] لذلك اعترضت باريس فوراً على الاتفاق مدعية أنه سيضر بالمصالح الفرنسية، سيما إذا سمح لبرامج الوطنيين الجزائريين بالبث من هذه التسهيلات، كما هو الحال في تونس. وقد لاحظت واشنطن والرباط في ردهما أنه منذ منتصف 1959، عندما كان الاتفاق موضوع مفاوضات، كانت المغرب قد حصلت على برمجة ساعتين يومياً وأنها لم تستعمل هذا الوقت لغرض مساندة الجزائريين.[4]

---

(1) النيويورك تايمس، 28 مايو 1959، 1.

(2) النيويورك تايمس، 7 يونيو 1959، 24.

(3) النيويورك تايمس، 5 يناير 1960، 6.

(4) النيويورك تايمس، 7 يناير 1960، 9: 1، لقد خشيت فرنسا أيضاً أن تستعمل المغرب أجهزة الإرسال القوية لصوت أمريكا لتدفع بمطالبتها بموريتانيا، وهناك من كان يرى أن المغرب قد بث فعلاً «صوت الجزائر» على أمواج صوت أمريكا أثناء فترة المفاوضات، ولكن على جهاز من 50 ك واط، ولم يحتج الفرنسيون على المغرب إلا عندما كان البث الإذاعي ينقل على قوة 100 ك واط، فكان بذلك يتسرب إلى الجزائر. (انظر نيويورك تايمس، 8 مايو 1960، 8).

ولكن تخوفات الفرنسيين قد وقعت في أبريل 1960، عندما افتتح الملك محمد الخامس محطتين جديدتين للإرسال تعملان على الموجة القصيرة. وهكذا بدأ برنامج (صوت الجزائر) الذي يستغرق خمسة عشر دقيقة البث مرتين في الأسبوع على أجهزة إرسال (صوت أمريكا) وجهاز إرسال الحكومة المغربية قرب مكناس. وكانت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية هي التي تعد مواد هذا البرنامج بينما يتولى المغاربة تحريرها. وبافتتاح هذا البرنامج، إلى جانب برنامج آخر يسمى (صوت الصحراء) يكون الملك المغربي قد قدم للآخرين التسهيلات لكي «يدافعوا عن حقوقهم». فقد قال إن هدف هذه البرامج هو «دعم قضية الحرية في إفريقيا.»[1]

كانت فاتحة برنامج الرباط على الموجة القصيرة قد أثارت الاحتجاجات الفرنسية المعتادة. فقد أشارت فرنسا إلى «العدوانية» وإلى «العنف» في هذه الإذاعة واعتبرتهما «إهانة كبيرة».[2] وكرر مهدي المنجرة، مدير الإذاعة المغربية، أن الغرض من إذاعة صوت أمريكا، ومن البرنامج الجديد هو «رفع صوت الحرية.»[3] ومهما كان الأمر فإن الرباط تشبثت بأن البرنامجين هما شأن مغربي داخلي وأنه إذا حاولت الولايات المتحدة أن تضع قيوداً على أجهزة الإرسال فإن قيوداً مماثلة ستوضع على صوت أمريكا الموجهة إلى أوروبا الشرقية.[4]

---

(1) نيويورك تايمس، 30 أبريل 1960، 4: 4، وأول مايو 1960، 40. وفي نوفمبر أعلنت صيغة مختلفة «الصوت الجزائر»، إنه الآن يذيع كل سبت ليلاً بعد نشرة الأخبار العادية (نيويورك تايمس، 12 نوفمبر 1960، 28).

(2) نيويورك تايمس، 5 مايو 1960، 9: 1، و 8 مايو 1960، 8. لقد حاولت المغرب قبل ذلك أن تبث «صوت المغرب Maghreb» من جهاز إرسال قرب وجدة، ولكن قبل الشروع في الإرسال خرب الفرنسيون الجهاز بواسطة متفجرات بلاستيكية (نيويورك تايمس، 25 نوفمبر 1958، 2: 2).

(3) نيويورك تايمس، 8 مايو 1960 ص 8.

(4) نفس المرجع، ص 8.

=

إن لهجة (صوت الجزائر) من الرباط يمكن معرفتها من المقتطفات التالية التي تعود إلى البرنامج وهو في أولوياته. فقد أشار صوت الجزائر إلى الرئيس شارل ديجول على أنه «رمز وبطل الاستمرار في الحرب القذرة» في الجزائر، وأكد أنه هو وحده المسؤول على إراقة الدماء في الجزائر وعلى الضحايا الجزائريين الذين يعيشون يومياً في السجون ومعسكرات الاعتقال.[1] كما هاجم صوت الجزائر الغرب الذي «ضحى بشمال إفريقيا على مذبح الاستعمار الفرنسي.»[2] بل لم تسلم حتى الولايات المتحدة التي تبث البرنامج على إذاعتها (صوت أمريكا) من الهجوم. فقد جاء على لسان صوت الجزائر أن الأمريكيين يفضلون تركنا نُقْتل بالأسلحة الغربية على أن يرونا ندافع عن أنفسنا بأسلحة من الشرق».[3] وبالإضافة إلى برنامج (صوت الجزائر) فإن إذاعة المغرب طالما أذاعت أيضاً، وفي مناسبات عديدة، وباللغتين الفرنسية والعربية، بيانات الحكومة المؤقتة وخطب فرحات عباس على أمواج الإذاعة المحلية.[4]

وفي مجال آخر من مجالات البث الإذاعي الحربي استمر (صوت العرب) و (صوت الجمهورية الجزائرية) من القاهرة، في الهجوم على السياسة الفرنسية، مركزين في أغلب الأحيان على خطط ديجول أو آخر الأخبار من الجزائر.[5] وبمنتصف 1960 كان استعمال الفرنسيين (للنابالم) في الجزائر موضوعاً يتردد كثيراً في المناقشات.[6] وكثيراً ما ظهر فرحات عباس على (صوت الجمهورية

---

(1) نفس المرجع، ص 8.

(2) نفس المرجع، ص 8.

(3) نفس المرجع، ص 8.

(4) انظر FBIS، 4 مايو 1960، 11، 5 مايو 1960، 11، 5 يوليو 1960، 11، 20 أكتوبر 1960، 11، 19 ديسمبر1960، 11.

(5) صوت الجمهورية الجزائرية، FBIS، 26 يناير 1960، 11، عن رد جبهة التحرير على التجربة النووية الفرنسية في الجزائر أنظر FBIS، 20 ديسمبر 1960، 11.

(6) انظر FBIS، 20 يوليو، 1960، 11.

الجزائرية) ـ من تونس ـ وعلى الإذاعة التونسية المحلية. وكان عباس قد خطب في تجمع بتونس وأذيع خطابه على الهواء مباشرة فكانت كلماته نموذجاً في التعبير عن العلاقات الجيدة بين الحكومة المؤقتة وتونس. فقد لاحظ عباس أن الحرب الجزائرية كانت:

«حرباً أيضاً من أجل استقلال تونس... وأن الاتحاد (الذي دعا إليه بورقيبة) سيكون في النهاية أفضل صيغة لتحقيق الاستقلال للجميع. إن الشعب الجزائري يخوض حرباً قد تستغرق وقتاً طويلاً... وإن الشعب الجزائري في الطرف الآخر من الحدود يعاني أسوأ أنواع التعذيب والحرب التي لا هوادة فيها... أيها التونسيون! إنني أخاطبكم جميعاً بأن قيامكم باحتجاجات مثل هذه ستجعلون الشعب الفرنسي يدرك أنه يسير في طريق خاطئة.»[1]

ولعل أكثر البرامج لفتاً للأنظار في هذا العهد هو برنامج (صوت الجمهورية الجزائرية) باللغة الفرنسية الموجه إلى أوروبا وإلى أولئك الذين يعملون في (إذاعة حركة النهضة الجزائرية) الموالية لفرنسا والتي تبث بالعربية من الجزائر. فهناك مقتطفات من البرنامج الأول يقول: «إن السكان المدنيين في المدن الجزائرية يخاطرون بأنفسهم لأنهم معرضون للمجازر في أي وقت... فالقاتل الفاسق والممارس للتعذيب هو بيير لاغايارد المنتمي للغلاة (ultra)، ثم العاهر الآخر جوزيف أورتيز المنتمي أيضاً إلى الغلاة وعصاباتهم من القتلة.... إنهم يطالبون بإعدام مساجين الحرب الجزائرية، بل المحتجزين الجزائريين».[2]

أما (إذاعة النهضة) فقد سوّت بين أهداف الحكومة المؤقتة والشيوعية قائلة

(1) FBIS، 2 نوفمبر 1960، 11.

(2) FBIS، فاتح فبراير 1960، 11. كما أن تأييد آيزنهاور لفرنسا كان محل هجوم قوي في هذه النشرة التي ختمت بقولها: أنت (آيزنهاور) أيضاً مسؤول، أنت أيضاً مسؤول عن الدم الجزائري الذي يراق باستمرار في الجزائر بأيدي أعداء الحرية والديمقراطية والسلام».

إن الشيوعية تعمل جاهدة لكي تمنع عودة السلام إلى الجزائر.[1] وفي تعليقها على رحلة قام بها عباس إلى الصين والاتحاد السوفياتي قالت تلك الإذاعة:

«نحن الجزائريين نعتقد أن عباس قد أساء الاختيار.. إن الجزائريين لن يتسامحوا أبداً أن يباعوا إلى الشيوعيين الحمر أو إلى أي جهة أخرى. إن شعبنا يعلم أن الشيوعية هي عدوة الإسلام والبلاد والوطنيين.... إن الجزائريين لن يتسامحوا أن يسقطوا فريسة في أيدي الأخطبوط الشيوعي مهما كان الثمن. فعلى فرحات عباس وزملائه أن يعلموا أن الجزائريين يرغبون قبل كل شيء أن يبقوا شعباً حراً ومسلماً وعربياً.»[2]

وفي إذاعة 4 أكتوبر 1960 أوضحت الإذاعة هذا الموضوع بطريقة أكثر جلاء بصفعها وجه (صوت العرب) قائلة «إن مجموعة من جبهة التحرير بقيادة ابن بلة قد حلت بالشرق الأوسط ونشرت نشاطها من القاهرة إلى بغداد. وأضافت أن (صوت العرب) ظل يومياً يخبر الثوار الجزائريين بأن عرباً آخرين متطوعين سينضمون بأسلحتهم وطائراتهم الحربية إلى جانب إخوانهم الجزائريين من أجل معركة التحرير. وقد بقينا في انتظارهم على أحر من الجمر منذ 1955. ولكن بدون جدوى. وفي نفس الوقت شهدت البلاد (الجزائر) الخراب وإراقة الدماء على نطاق واسع على يد جزائريين مضللين سقطوا ضحايا الدعاية الصادرة من القاهرة ودمشق وتونس وغيرها... وإن العطف الذي أبداه خروتشوف والـ PRC نحو الجزائريين يشبه العطف الذي يبديه الذئب نحو الحمل. وليس هناك شك في أن التدخل الخارجي سيخضع الجزائريين إلى المصير الذي خضع له الفلسطينيون والمجريون والكوريون. إننا نأمل أن يستيقظ الجزائريون من سباتهم ونحذرهم من عواقب سياسات جبهة التحرير قبل أن يجدوا أنفسهم تحت مطر القنابل الشيوعية والغربية معاً.»[3]

---

(1) FBIS، 5 يوليو، 1960، 12: 3.

(2) FBIS، 17 أكتوبر، 1960، 12.

(3) FBIS، 5 أكتوبر، 1960، 11.

منظمة الجيش السري تسطو على أمواج الأثير

لقد دخلت حرب الإذاعات مرحلتها النهائية والأكثر تنوعاً وعنفاً مع ظهور منظمة الجيش السري (OAS) على المسرح سنة 1961. فالإذاعة إضافة إلى الإرهاب، ستعطي لهذه العصابة من الكولون اليمينيين المتطرفين وسيلة الترغيب والترهيب لكلا المجموعتين: الأوروبية والجزائرية. وفي مناسبتين سابقتين عن ظهور هذه المنظمة لعبت التسهيلات الإذاعية أدواراً رئيسية في انقلابات عسكرية قصيرة الأجل: فأثناء التمرد المعروف باسم «أسبوع المتاريس» (الباراكات) في يناير 1960 وقعت إذاعة الجزائر في أيدي المتمردين.[1] ثم في أفريل سنة 1961 أيضاً أعلن أصحاب «انقلاب الجنرالات» أولاً على أمواج «إذاعة الجزائر» التي غيرت اسمها إلى «إذاعة فرنسا». فقد أعلنت هذه الإذاعة أن الجيش قد تولى السيطرة على الجزائر.... وأن الجزائر الفرنسية لم تمت. وسوف لا تكون هناك ـ ولن تكون أبداً ـ جزائر مستقلة. فلتعش الجزائر الفرنسية من أجل أن تعيش فرنسا.»[2]

ومن السخرية أن ديجول انتصر أيضاً على هاتين الانتفاضتين قصيرتي الأجل باستعمال الوسيلة الإذاعية نفسها. وقد نسب المعلقون هذه الخطب المتلفزة إلى العاصمة الفرنسية، التي كانت قد أذيعت أيضاً من الإذاعة والتلفزيون في الجزائر، وهي خطب تطلب من الجيش البقاء على ولائه ومن ثمة القضاء على التمرد. ففي كتابه (حرب وحشية من أجل السلام) الذي تحدث فيه عن النضال الجزائري، وصف أليستر هورن A. Horne مثلاً، بلاغة ديجول الإذاعية خلال انقلاب الجنرالات بالعبارات التالية:

«لقد كان هناك أكثر من عامل واحد... ذلك هو التأثير العظيم الذي

---

(1) التايمز (لندن) 29 يناير 1960، 12ب.

(2) بول هينيسار P. Henissart: ذئاب في المدينة: موت الجزائر الفرنسية (نيويورك، 1970، ص 85.

تركته خطبة ديجول في الليلة السابقة على المجندين والاحتياطيين في الجزائر. فقد كانوا بعشرات الآلاف ملتفين حول أجهزة اللاسلكي ـ الترنزيستور ـ (ذلك أن الجنرالات المتمردين فشلوا، كما فشلوا في أشياء أخرى، في التشويش على الإذاعة الموجهة من فرنسا)، مصغين إلى نداء الرئيس الذي لا مساومة فيه والذي يطالبهم بالطاعة والولاء للدولة... فليس من الغرابة أبداً أن تسمى هذه الدورة الحاسمة من الانقلاب باسم «انتصار الترنزيستور». [1]

وأخذا بعين الاعتبار القوة المجربة لهذه الوسيلة الإعلامية بدأت منظمة الجيش السري تعمل بإذاعة سرية خاطفة منذ أغسطس 1961. إن هناك نموذجاً نمطياً قد وضع. فخبراء المنظمة يقومون بقنبلة أو بتعطيل محطة إذاعة الجزائر التي تشرف عليها الدولة، ثم يقومون بإذاعة أفكارهم على نفس الأطوال الموجودة في إذاعة الجزائر. وكانت الساعة المفضلة لنشر الأخبار هي الساعة الواحدة بعد الظهر لأنها كانت تمثل وقت الذروة في الاستماع، وكانت النشرة تبدأ بمثل هذه الكلمات «هنا راديو فرنسا، صوت الجزائر الفرنسية». وأول نشرة من الجزائر، وقد دامت 23 دقيقة، دعت الكولون أن يختاروا «بين خدمة رجل واحد (وهو ديجول) أو خدمة الوطن». واتهموا ديجول بالتخلي عن الجزائر. [2] ثم حدثت قرصنة على أجهزة إرسال التلفزيون في سبتمبر وأوائل أكتوبر، بما في ذلك التوقيف المباغت لخطبة ديجول في الثاني من أكتوبر، وذلك خلال هذه الفترات المتقطعة. فقد قطعت منظمة الجيش السري حبال (كابلات) الكهرباء في وهران وكانت قادرة على قطع النور على شاشات تلفزيون المدينة، وتلا ذلك نشرة بصوت منظمة الجيش السري. ومن جهة أخرى كانت أجهزة الإرسال قد خضعت للتشويش الجزئي من قبل السلطات، وكانت خطبة ديجول التي

(1) هورن، ص 457 ـ 854، وأيضاً ص 368 ـ 369 عن تأثير خطبة ديجول خلال أسبوع المتاريس أو البرّاكات، وقد كتب هورن بهذا الصدد «لم أعد أفكر في أي شيء... إن خطبة تشرشل أثناء الحرب كان لها تأثير أعظم» ص ص 369.

(2) نيويورك تايمس، 6 أغسطس، 1961، 16: 6.

أعلن فيها أن فرنسا مستعدة لاستئناف المحادثات مع الوطنيين الجزائريين، هذه الخطبة قد أعيدت إذاعتها في آخر المساء.[1]

وقد توقفت «إذاعة فرنسا» عند نشرة الساعة الثانية مرة أخرى يوم التاسع من أكتوبر. فقد أعلن أحدهم أن قوات من الجيش تبلغ مائة ألف جندي، وبعدها أعلن الجنرال راؤول صالان أن ضعف ديجول تدل عليه النشرة الخاطفة نفسها. وقال صالان أن منظمة الجيش السري ستذيع يومياً نشرة على الساعة الواحدة.[2] وقد حافظت المنظمة على كلمتها فخلال أربعة أيام كانت «إذاعة فرنسا» تسمع على موجات مختلفة أثناء الفترة المحددة لكي تهرب من تشويش الحكومة الفرنسية. وفي نشرتها ليوم 12 أكتوبر، وبعد تعيير السلطات الفرنسية على فشلها في تحديد مكان جهاز إرسالها طالبت (إذاعة فرنسا):

«لكي تفهم الشعوب الجزائرية والأروبية والأمريكية التهديد الشيوعي في الجزائر... إن الجزائر إقليم فرنسي كما أن ألاسكا ولاية في الإتحاد، دع الأحرار في أمريكا ينظروا إلى الخريطة. إن اللون الأحمر ينتشر مباشرة على سواحلهم... لن يكون هناك انفصال بين شمال وجنوب فرنسا... إنني أعلن اليوم أن المقاومة الفرنسية ستكون مسموعة، حتى على منصة الأمم المتحدة[3]».

---

(1) التايمز (لندن)، 13 أكتوبر 1961، 12ج، أنظر أيضاً 22 سبتمبر، 12 ج، 23 سبتمبر، 8 ج. أول محطة تلفزيونية في الجزائر بدأت تعمل سنة 1956 استجابة لطلب الكولون. وقد ركبت أجهزة ارتباط سنة 1958، وكانت معظم البرامج تأتي لها مباشرة من فرنسا، وفي سنة 1961 ـ 1962، لم يكن هناك سوى خمسة عشر دقيقة من البرنامج اليومي ينتج في الجزائر، وفي هذا العهد كان للجزائر أيضاً 67.000 جهاز تلفزيوني مسجلاً، أو ستة لكل ألف شخص. انظر إذاعة وتلفزيون العالم، باريس اليونسكو، 1965، ص 29.

(2) التايمز، 10 أكتوبر، 1961، 9ج.

(3) نفسه، 13 أكتوبر، 1961، 12ي.

لكن دقة «راديو فرنسا» برهنت على أنها ستكون هي سقوطه. فالمروحيات المزودة بالأجهزة المكتشفة والموجهة سرعان ما ضيقت الخناق على إشارات الإذاعة والتقط جهاز الإرسال فور إذاعة الساعة الواحدة المذكورة[1].

وقد استأنفت منظمة الجيش السري البث في 28 أكتوبر من جهاز إرسال آخر[2]. وأثناء شهر نوفمبر أصدرت المنظمة تعليمات متقطعة في نشرات عبر الإذاعة والتلفزيون، وفي نهاية الشهر جاءت أول نشرة خاطفة إلى العاصمة الفرنسية.[3] وقد كتبت جريدة (التايمز) وهي تحلل الوضع، أن «معظم الأوروبين يبدون محافظين على مواعيدهم اليومية، سواء كانت هناك نشرة أو لا»[4].

إن السلطات الفرنسية قد ردت على ذلك باللجوء إلى شبكة من الالتقاط والتشويش من السفينة الحربية المسماة (ليطا Laita) التي كانت راسية على الساحل الجزائري. كما أن نفس السفينة قامت أيضاً بدور محطة إرسال للإذاعة الفرنسية. وبعد أن برهنت (ليطا) بفعاليتها إلى حد ما على التشويش على برامج منظمة الجيش السري، قام رجال الضفادع من المنظمة وزرعوا القنابل في السفينة، وبذلك جعلوها غير قادرة على أداء مهمتها.[5] كما أن جهازي الإرسال العاملين قرب باريس واللذين تذاع منهما برامج على محطة الإذاعة الرسمية في فرنسا، قد خُربا أيضاً في اليوم التالي، ولكن نشرة خاطفة

---

(1) نفسه، ص 12 ي e.

(2) نفسه، 13 أكتوبر، 1961، 9ف.

(3) عن معلومات حول إذاعة الريفييرا Riviera، أنظر التايمز، 28 نوفمبر، 1961، 12 س، وأيضاً أنظر التايمز، 31 أكتوبر، 10 ي e، و 19 نوفمبر، 21.

(4) التايمز، فاتح نوفمبر، 1961، 9 أ.

(5) نيويورك تايمس، 15 ديسمبر، 1961، 8.

عبر أمواجها قد أُحبطت.[1] وبعد أسبوعين وقع هجوم بالقنابل على أجهزة الإذاعة ومحطات الكهرباء على الأقل في ستة أماكن من فرنسا مما تسبب في تأخير خطبة ديجول في 29 ديسمبر، بينما إذاعة خاطفة كللت بنفس النتيجة في الجزائر.[2]

وبأوائل 1962، كانت النشرات «أمراً عادياً» وكثير منها كان يحتوي على رسائل مبتورة ومجزأة من كوادر المنظمة،[3] فنشرة الثاني عشر من يناير مثلاً أعلنت أن «أشجار البرتقال ستزهر قريباً من جديد».[4] وقد طلب من المستمعين أن يرفعوا العلم الفرنسي وأن يشاركوا في الإضطرابات وإحداث الزحام في سير الطرقات. وفي خليط هذه النشرات جاءت نشرة أخرى تقتبس من نصوص الإنجيل لتبرير قتل أولئك الذين قتلوا مواطنيهم، وكذلك تصريحات من أبرز عناصر المسؤولين العسكريين لدعم منظمة الجيش السري، بمن فيهم العقيد بيير شاطو ـ جوبار، وهو بطل المقاومة خلال الحرب العالمية الثانية ومنشىء نظام المظليين الفرنسيين ـ لدعم منظمة الجيش السري.[5]

إن عنف حرب الكلمات قد ازداد وبالأخص عندما اقتربت أراء الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في التوصل إلى حل. فقد شنت المنظمة هجومات على الموظفين الإذاعيين الفرنسيين وضاعفت من جهودها في قنبلة تسهيلات الإذاعة والتلفزيون.[6] ومن جهة أخرى تواصلت من

---

(1) التايمز، 16 ديسمبر، 1961، 6ب.

(2) نفسه، فاتح يناير، 1962، 9 أ، لقد حطم تفجير قوي شبكة الاتصال في مدينة الجزائر وذلك في شهر فبراير، أنظر نيويورك تايمس، 2 فبراير، 1962، 1: 8، وفي مارس، سرقت منظمة الجيش السري أجهزة إرسال تلفزيون وهران عندما كانت الأجهزة تنقل إلى مكان أكثر أمناً. (أنظر كريشان ساينس مونيتور، 12 مارس، 1962، 2: 5).

(3) التايمز، 4 يناير، 1962، 6أ.

(4) نفسه، 13 يناير، 1962، 7ب، وهينيسار، ص 278.

(5) نفسه، 17 يناير، 1962، 10ج، ونيويورك تايمس، 30 يناير، 1962، 1.

(6) عن المعلومات حول محاولة اغتيال مدير محطة تلفزيون وإذاعة الجزائر، أنظر التايمز، =

خارج الجزائر النشرات الإذاعية من القاهرة وتونس والرباط. ففي يوم 19 مارس 1962 أذاعت الحكومة المؤقتة أمراً بوقف القتال جزئياً على إذاعة تونس:

«أيها الشعب الجزائري! بعد عدة شهور من المفاوضات الصعبة توصل الوفدان الجزائري والفرنسي إلى اتفاق عام في مؤتمر إيفيان. إن هذا يمثل انتصاراً كبيراً للشعب الجزائري الذي أصبح حقه في الاستقلال مضموناً... وباسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية فإنني آمر كل الوحدات المقاتلة لجيش التحرير الوطني أن توقف عملياتها العسكرية والعمليات المسلحة في كامل التراب الجزائري. المجد لكل ضحايا الحرب، وإلى الشهداء الذين استشهدوا لكي تعيش الأمة الجزائرية، وإلى كل الذين لا يحصون ممن خاطروا بحياتهم وتحدوا القوى الإمبريالية المسعورة.[1]

أما إعلان ديجول عن وقف القتال من فرنسا فقد قطع مؤقتاً عندما كان يعلن رسمياً عن وقف القتال في الجزائر.[2] وحين اقتربت الجزائر من استفتاء فاتح يوليو حول موضوع الاستقلال، بدأت منظمة الجيش السري تتبنى سياسة «الأرض المحروقة». فقد أنذرت النشرات الإذاعية أن «الجزائريين سيحصلون على جزائر كما وجدناها منذ 130 سنة خلت».[3] وفي وهران طلبت النشرة من كل الأوروبيين في الجزائر أن يتجمعوا في منطقة وهران التي ستصبح عندئذ «منطقة البرنامج» الذي سيدافعون عنه عسكرياً.[4] إن هذا النداء عبر الأثير كان قد أعلن بينما كان فرع المنظمة في مدينة الجزائر يتفاوض مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. وبعد التوصل إلى اتفاق عن عفو عام يشمل بعض الحقوق للأروبيين، قامت المنظمة في مدينة الجزائر بإذاعة الأمر بوقف

= 8 يناير، 1962، 11 ي e.

(1) FBIS، 19 مارس، 1962، 11 ـ 5.

(2) التايمز، 19 مارس، 1962، 12أ.

(3) نيويورك تايمس، 27 مايو، 1962، 3.

(4) التايمز، 15 يونيو، 1962، 12س.

القتال.[1] وهناك عدد من الرسائل المشفرة قد أذيعت مثل: إلى ثعلب الصحراء، إن مشعل السيجارة يجب أن لا يشعل هذه الليلة.» وهناك مثال آخر وهو: إن حوض السباحة يجب أن يبقى مليئاً[2]» وقد فسرت (رويتر) هذا النوع من الرسائل بأنه يعني إصدار الأوامر بنسف آبار الغاز الطبيعي والنفط في الصحراء (مشعلات السجائر)، وكذلك وجوب ترك السدود المائية ـ الكهربائية في الجزائر (حوض السباحة)[3].

فقد تعمق الانقسام بين فرعي وهران والجزائر لمنظمة الجيش السري عندما أذاع فرع وهران في نشرة له بأن منظمة الجيش السري «ستنتصر» بطريقة أو بأخرى وأن الاتفاق لا يعني إلا فرع الجزائر[4]. وفي نشرة منفصلة وجه فرع الجزائر كلامه إلى المجموعة الأوروبية (الكولون) للبقاء في الجزائر بينما أذاع فرع وهران تعليمات متعارضة.[5] وعشية تصويت الفاتح من يوليو أعلن فرع وهران ما وصفته جريدة (التايمز) بالنشرة الإذاعية الخاطفة الحمقاء، قائلاً إن قضيتهم أصبحت بلا أمل ولكن الوطنيين الحقيقيين يجب عليهم تدمير الجزائر قبل أن تسقط في يد العدو.»[6] وفي آخر إذاعة لفرع منظمة الجيش السري في وهران قصفت الوحدات العسكرية الفرنسية لفشلها في دعم «آخر قلعة للغرب» وختم المذيع قائلاً «إن كفاحنا أصبح بدون أمل وليس له حل، إن كل شيء قد انتهى، وداعاً أيتها الجزائر، ولتكن مشيئة الله!»[7]

---

(1) عن النص انظر نيويورك تايمس، 18 يونيو، 1962، 1: 8.
(2) هينيسار، 447، التايمز، 18 يونيو، 1962، 12.
(3) التايمز، 18 يونيو، 1962، 12. وقد زعم أن هينيسار أنها لا تشير إلى تخريب الآبار، ولكنها تشير إلى إلغاء إذاعة سرية (447).
(4) التايمز، 22 يونيو، 1962، 12س.
(5) نفسه، 23 يونيو، 1962، 8ج.
(6) نفسه، 29 يونيو، 1962، 12ج.
(7) زعم هينيسار أن النشرة أذيعت يوم 27 يونيو، 1962، ص 456.

مع هذه النشرة أفل نجم منظمة الجيش السري على أمواج الأثير إلى الأبد، وبها اختتمت حرب الكلمات. [1] وقد خاطب ابن يوسف ابن خدة رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية الأمة يوم الخامس من يوليو بعد الاستفتاء بقوله:

«أيها الشعب الجزائري، إن العلم الفرنسي قد رفرف فوق العاصمة منذ 1830، واليوم يحتفل (الشعب الجزائري) بالاستقلال في داخل البلاد، وفي الصحراء، وفي كل مكان من الوطن. . . أيها الجزائريون أيتها الجزائريات، لقد كسبتم إعجاب العالم لصمودكم ومعركتكم الكبرى التي دامت سبع سنوات بقيادة جبهة التحرير الوطني وجيشها المجيد. . .»[2]

إن عبارة ابن خدة عن «الصمود والمعركة الكبرى» يمكن تطبيقها أيضاً على الصراع الذي شن على أمواج الأثير. فقد تغيرت الأفكار داخل الجزائر حول الإذاعة. وكلما سار الأهالي الجزائريون من النظر إلى المذياع على أنه شر إلى اعتباره أداة مفيدة، فإن كمية أكثر عدداً من الأجهزة الإذاعية قد بيعت إليهم. وكما ذكر لنا فانون فإن الاستماع إلى الإذاعة أصبح وسيلة لدفع المرء واجبه إلى الثورة، ومن القاهرة ومن تونس ومن الرباط ومن داخل الجزائر نفسها وصلت الرسائل إلى الشعب. ففي إحصاء أجرته وكالة الاستخبارت الأمريكية المركزية عن الإذاعات في مصر سنة 1956، جاء أن الإذاعات كانت مسموعة على نطاق واسع حتى وسط الصحاري وأن تأثيرها البعيد هو تشكيل وجهة النظر العربية. [3] وهناك آخرون حاولوا ـ سيما الحكومة الفرنسية ومنظمة

---

(1) نفس المرجع، ص 456.

(2) FBIS، 6 يوليو، 1962، 11.

(3) انظر مايلز كوبلاند Miles Copeland: لعبة الأمم، لا أخلاقية السلطة السياسية، (نيويورك 1969) ص 247. وقد كتب كوبلاند عن تأثير الإذاعة ما يلي: «حتى المستمعون المتعلمون جداً كانوا، لكي يقبلوا محتوى النشرات فكرياً، قد بدأوا يتبنون بعض وجهات النظر دون أن يتأكدوا عقلياً لماذا.» ص 247.

الجيش السري ـ أن يؤثروا في السكان أيضاً.

وهكذا كانت المعركة قائمة بمشاركة جميع الأطراف. وفي الختام فإن الجزائريين مدينون إلى حد ما باستقلالهم إلى وسيلة لا أحد يشك في تأثيرها(1) وهي وسيلة المذياع (الراديو) التي شكلت الآراء، وأعادت توجيه الأذهان، ووحدت الجزائريين في نضال مشترك. إن الاستقلال قد تحقق بدعم حرب الكلمات الجزائرية.

انتهت الترجمة في مدينة سان دياغو (أمريكا) يوم 22 أغسطس 2005
ـ منتصف الليل ـ

---

(1) نفس المرجع، ص 247.

الثقافة التاريخية عند الشيخ الإبراهيمي

أصبح من المعروف عند الباحثين والطلبة أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أعيان المثقفين العرب والمسلمين في القرن العشرين. وقد تناوله الباحثون في مقالاتهم ورسائلهم الجامعية على أنه أديب ولغوي، أو أنه فقيه ومصلح. كما درس آخرون مواقفه من القضايا العربية والإسلامية كقضية فلسطين وباكستان وليبيا ومصر واليمن... ولكننا لا نعرف أن هناك من درسه كعالم بالتاريخ وأحوال الأمم الغابرة والمعاصرة، وأن له رأياً في كتابة التاريخ لم يأت ربما على قلم أو لسان جيله من الأدباء والمصلحين. ولذلك رأينا أن نسلط الضوء في هذه المداخلة على ثقافة الشيخ الإبراهيمي التاريخية. فإلى أي حد يصل قولنا إن الإبراهيمي كان يتمتع بثقافة تاريخية عميقة بل كان له حس تاريخي نادر المثال؟

ونريد أن نبدأ بمصادره. من أين استقى الشيخ الإبراهيمي مادته عندما كتب عن القضايا التاريخية؟ لقد ذكر الكتب التي قرأها أثناء حياته المبكرة، فاكتفى بكتب الأدب ودواوين الشعراء وكتب الفقه والسيرة ومتون اللغة إلى جانب القرآن الكريم والحديث الشريف، بينما لم يذكر أنه قرأ المسعودي والطبري وابن الأثير وابن عبد الحكم. لذلك نعتقد أن مصدره الأساسي في الثقافة التاريخية هو التجربة الشخصية والمطالعة الحرة. فقد عاش منذ سنوات المراهقة متنقلاً بين عواصم العلم متأملاً في أهلها، مخالطاً لعلمائها، مطالعاً من مكتباتها. وفي هذه الأثناء قرأ الكثير في كتب التاريخ والرحلات والتراجم دون أن يذكر ذلك بالاسم والعنوان إلا نادراً كذكره لابن خلدون وابن الخطيب ورسائل الضابط الفرنسي سان طارنو.

فتح الشيخ الإبراهيمي عينيه على الجزائر وهي تئن تحت وطأة الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي، في وقت قال عنه الإبراهيمي نفسه إن المقاومة المسلحة قد انتهت خلاله بفعل التعب والإرهاق وبتخاذل أصحاب الضمائر الضعيفة، وتقديم المصالح الذاتية على الوطنية، وخيانة بعض أصحاب الدار. وفي طريقه إلى المشرق مر الإبراهيمي بتونس ونزل بالقاهرة فترة وأقام بمكة والمدينة ودمشق، ثم زار باكستان وأطرافها، وباريس ونواديها ثم سكن مصر وهي في أوج الخصب والعطاء. وهذه العواصم تركت كلها بصماتها على ثقافته سواء في عهد شبابه أو عهد كهولته.

وفي الجزائر حيث قضى أطول مدة من حياته في عهد النضج والعطاء الفكري لم يدرس الإبراهيمي تاريخ بلاده لا في المدارس ولا في الزوايا. فكان المهتمون بتاريخ الجزائر يتلقونه من الذاكرة الشعبية في صورة قصص وحكايات شفوية والشعر الملحون، أو ما يسمى اليوم بالأدب الشعبي، فكان التاريخ عندئذ خليطاً من الأدب والأخبار والخرافات. وإذا تجاوز المتطلع إلى معرفة الحقيقة عن تاريخ الجزائر فإن عليه أن يرجع إلى تاريخ بلاد المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي. ذلك أن تاريخ الجزائر الذي لا يدرسه أهله في المدارس لم يشهد حركة تأليف إلا في القرن العشرين، وبالتحديد منذ الحرب العالمية الأولى على يد عثمان الكعاك ومبارك الميلي وأحمد توفيق المدني، باستثناء كتابين هما (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر) لمحمد بن الأمير عبد القادر الذي طبع سنة 1903 و(تعريف الخلف برجال السلف) لأبي القاسم الحفناوي الذي طبع سنة 1907 وهو كتاب في التراجم.

ويبدو أن الشيخ الإبراهيمي كان يحس بهذا النقص في ثقافته إن هو لم يجمع إليها ثقافة تاريخية واسعة. وكيف يكون المرء عالماً مصلحاً وهو يجهل تاريخ قومه وحضارتهم؟ لذلك لا نستغرب إن وجدنا الشيخ الإبراهيمي قد اطلع وبتوسع على تاريخ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتابع نهوض

وسقوط الدول والحضارات، وخص الجزائر باطلاع واسع في مصادر مختلفة. فنحن نجد في كتباته إشارات عديدية إلى تاريخ الاستعمار الروماني لشمال إفريقيا وتاريخ الاستعمار الفرنسي للجزائر وغيرها، وتاريخ الكنيسة المسيحية في بلاد المغرب والحروب الصليبية في المشرق والأندلس. وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط بما فيه تاريخ الكنعانيين واليهود والفينيقيين والإغريق. وتاريخ البربر والهجرات العربية، وتاريخ الحواضر الإسلامية.

الإبراهيمي وتاريخ الإسلام:

ترجع صلة الشيخ الإبراهيمي بالتاريخ الإسلامي إلى كتب السيرة النبوية والغزوات وحياة الصحابة والتابعين. وهذه الصلة ترجع بدورها إلى ثقافته الدينية والشرعية، فمصادره هي القرآن والسنة وأمهات كتب التفسير والحديث، بالإضافة إلى تاريخ الأدب والسياسة والمذاهب والفرق. ومن خلال هذه الثروة اطلع الشيخ على تراجم الرجال وأصول الأحكام وقواعد الاجتهاد وحركة التأليف والصراع السياسي والفكري بعد وفاة الرسول (ﷺ) وعهد الخلفاء الراشدين، ثم قيام الدولة العربية الإسلامية بعصورها المختلفة، بما في ذلك أدوار الدولة المملوكية والدولة العثمانية ودول ملوك الطوائف ودول المغرب العربي خاصة. ونحن نلاحظ هذه الثقافة التاريخية الإسلامية عند الشيخ الإبراهيمي من وصفه المسهب لبعض الغزوات مثل غزوة بدر الكبرى ومعاني الهجرة النبوية والأعياد الإسلامية، فهو يتناول هذه الأحداث والمناسبات من الناحيتين الدينية والتاريخية ثم يربط بينها وبين الواقع كأحداث الثورة الجزائرية والدعوة إلى النهضة والوحدة لمواجهة الاستعمار.

وليس كالإبراهيمي من يحسن سوق العبرة من الحدث التاريخي. ولا أدل على ذلك من إيراده قصة العز بن عبد السلام (سلطان العلماء) مع مماليك مصر حين أفتى بأن على هؤلاء المماليك الأمراء بيع رقابهم لأنها مملوكة لبيت مال المسلمين.. فقد علق الإبراهيمي على ذلك بقوله: إن العز بن عبد السلام قد

قوم بكلمته وضعاً مقلوباً كان سبباً في انقراض كثير من الدول الإسلامية وهو احتكار المماليك لمراتب الإمارة.

ثم أضاف الإبراهيمي إلى ذلك تعميماً عظيماً واستنتاجاً حكيماً فقال: لو رزق الله بغداد عالماً كابن عبد السلام في شجاعته لأنقذ الخلافة العباسية من المماليك الأتراك ببيعهم في سوق الرقيق... ولو رزق الله الأندلس عالماً مثله لأنقذ الدولة الأموية فيها من موالي المنصور بن أبي عامر (ج 3، ص 500). وطالما أحال الإبراهيمي قارئه على أحداث تاريخية في العالم الإسلامي كالحروب الصليبية وظهور الفرق والمذاهب والأحزاب وغارات الدول الأجنبية، مستنتجاً منها استنتاجات شجاعة مما يجعله في مقدمة المثقفين ثقافة تاريخية إسلامية عميقة قل من يشاركه من أبناء جيله، لأن المعرفة التاريخية إذا لم توظف لمصلحة الحاضر والمستقبل فإن المتحف، أو حتى القبر، أولى بها.

وفي هذا النطاق نشير إلى أن الإبراهيمي أعطى أهمية كبيرة لدور الأزهر، ومن خلاله لدور مصر الريادي في التاريخ العربي الإسلامي. فقد نوه بدور الأزهر وعلمائه في مقاومة الغارات الخارجية، ومنها حملة لويس التاسع وحملة نابليون. والإبراهيمي هو القائل في هذا الصدد: كان الأزهر حاضراً في مقاومة فساد الحكم في مصر أو في فترات إغارة الفاتحين (المستعمرين) الأجانب عليها. ومن رأيه أن الأزهر هو رائد النهضة العربية الإسلامية وهو القائل إن وراء كل نهضة ثورة، ومن الواجب في رأيه، أن يعلم الأزهر الناس الثورات على الأباطيل في الدين والدنيا، كما يعلمهم الثورة على الاستعمار. لقد كان الإبراهيمي يكتب هذه العبارات في يناير 1952 حين كان الأزهر - كما قال - يقود ثورة ضد الاستعمار (نفسه، ج 3، ص 499). ونحن نذكر هنا كذلك بأن الشيخ قد حل بمصر في غضون هذا التاريخ ولم يخرج منها نهائياً إلا بعد استقلال الجزائر.

الاستعمار الروماني:

الاستعمار عند الشيخ الإبراهيمي ليس فرنسياً فقط بل هو ممتد ومتمثل في

صراع الشرق والغرب، وفي تثاقف الحضارات ذاتها، سواء في العهد الروماني المظلم الذي غطى بظلامه المغرب والمشرق على السواء أو في العهد الفرنسي الذي لا يقل في نظره ظلاماً وظلماً.

ففي كلمة له بعنوان (الجزائر المجاهدة) حلل الشيخ أوضاع الجزائر القديمة والحديثة انطلاقاً من موقعها الجغرافي قائلاً إن هذا الموقع هو الذي رشحها لتحوز السبق في الجهاد، وهو يعني به موقعها على الضفة اليسرى للبحر المتوسط، وبالضبط في مواجهة مرسيليا حيث تتشكل أوسع نقطة بين ضفتي هذا البحر بالنسبة لجيران الجزائر (تونس والمغرب). وقد حلل الإبراهيمي طموح الأمم اللاتينية في استعمار جيرانها في الضفة الإفريقية تحليل الخبير بأوضاع الأمم الغابرة فقال عن الأمم اللاتينية إنها ذات أطماع وفتوحات وكبرياء ودماء منذ كانت، ولم يزدها ظهور الدين المسيحي السامي الروح إلا ضرواة وطموحاً في الغلبة، لأن الطبيعة المادية المتكالبة لتلك الأمم غلبت طبيعة الدين المسيحي الروحية المتسامحة، وبذلك أصبح الدين المسيحي ديناً رومانياً لا شرقياً (ج 5، ص 76)

ومن تحليلات الشيخ الإبراهيمي القائمة على الاستقراء والاستنباط ما جاء على قلمه حول روح المقاومة والجهاد التي تميز بها سكان شمال إفريقية منذ القدم. فهو يرى أن الإسلام قد مزج بين البربر والعرب مزجاً قوى فيهم معنى الحمى والعرض والحفاظ... وهو الذي ترك الأمة الجزائرية أمة جهاد بجميع معانيه، و«على هذا يجب أن يبني المؤرخ تاريخ الجهاد النفسي في هذه الأمة» (نفسه، ج 5، ص 76). وقد حدث الجهاد بالنفس في الجزائر عبر العصور الإسلامية لأن الجارين المتقابلين، روما وقرطاج، أصبح كل منهما بالمرصاد للآخر. وللإبراهيمي في العلاقة بين هذين الجارين المتصارعين رأي طريف وواقعي، فهو يقول أن العلاقة بينهما كانت صراعاً على العيش المادي، أو القمح والزيت، وهما المادتان اللتان جلبتا الاحتلال الروماني لإفريقيا الشمالية، ثم صار صراعاً على الدين. وقد زاد من حدة هذا الصراع في نظره أن العرب

بدينهم قد خلفوا الرومان على حضارتهم في إفريقية. ثم أن دخول العرب أسبانيا قد جعل الرومان يتطيرون.. ويظنون أنها القاضية على روما وديانتها وحضارتها وشرائعها.

وهنا تبهرك ثقافة الشيخ التاريخية إذ يظهر وكأنه صاحب اختصاص في تطور الحضارات وفلسفة التاريخ. فقد تحدث أيضاً عن انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية، وعن تدهور حالة الرومان وصعود نجم العرب. كما عرض لضعف الأندلس بعد ذلك وظهور ملوك الطوائف وتداعي اللاتين إلى إحياء روح الثأر والانتقام وشن الغارات على سواحل شمال إفريقيا. وعندئذ تصدرت الجزائر الجهاد المنظم على أيدي الدول وغير المنظم، وهو الجهاد الفردي الدائم على طريق «الرباط» الذي وصفه بأنه يشبه حرب العصابات، وبذلك كانت الثغور الجزائرية دائماً عامرة بالمرابطين الذين نذروا أنفسهم لله وحماية دينه، من مالهم الخاص لا من مال الحكومات. ولم ينقطع دور الرباط في نظره إلا عند الاحتلال الفرنسي(ص 77)، وهو الاحتلال الذي وصفه بالمدبر لاعادة شمال إفريقيا إلى الحظيرة اللاتينية كما كان قبل الإسلام، وقد نحى الشيخ باللائمة على سكوت العرب والمسلمين على هذه الفاجعة عندئذ.

أحوال المغرب العربي:

تناول الشيخ من الناحية التاريخية موضوعات عديدة حول أقطار المغرب العربي عبر الجزائر، مثل تونس ومراكش وليبيا. فقد تحدث مثلاً عن (العرش المحمدي العلوي) وأرجعه إلى القبائل التي خرج منها أو ساندته، من إدريس الأكبر وأبناء علي (رضي الله عنه) إلى ارتباط العرش بالبربر من لمتونة وهنتاته، وبني مرين، وقال إن هذا العرش قد مد بظلاله حتى وصلت إلى عتبات برقة. فالإبراهيمي هنا لا يتحدث عن الأمجاد فقط ولكنه يتحدث عن تاريخ المنطقة التي لعب فيها أشراف المغرب دوراً بارزاً. وقد مدح الإبراهيمي هذا العرش من أجل ما بناه وحافظ عليه من حضارة عربية إسلامية عريقة فهو عرش حرس في

نظره اللغة العربية وحمى الدين الإسلامي، ودافع عن الإسلام والعروبة، وهي الإيديولوجية العزيزة على الشيخ الإبراهيمي. إن أشراف المغرب، خلافاً لحكام الجزائر العثمانيين، قد رعوا العلم والبيان وأنجبت دولهم أعلاماً في الأدب ونوابغ في الفقه والتشريع وأساطين في الفلسفة وأثباتاً في التاريخ والأخبار (ج 3، ص 396، 397).

أما حديثه عن ليبيا فقد جاء في شكل سلسلة من المقالات لم تخل من إشارات تاريخية. فقد مشى على أرضها الصحابة والتابعون الذين فتحوا المغرب والأندلس، واجتازها القادة الكبار الذين أسسوا الممالك في بلاد المغرب والأندلس أمثال إدريس بن عبد الله وعبد الرحمن الداخل. ولم ينس الإبراهيمي الرحالة والحجاج الذين أقاموا في ليبيا أو عبروها وهم في طريقهم إلى العلم والحج. وقد ذكر منهم ابن بطوطة والعياشي والعبدري والفهري والتجاني والورثلاني. كما ذكر منهم رواداً في الشعر الملحون استطاعوا وصف ركب الحج وصفاً دقيقاً، ثم جاء على أسماء المدن والبلدات الليبية التي شاهدها هؤلاء أو عاشوا فيها زمناً. بالإضافة إلى ذلك أطال في وصف الكفاح الليبي في مقاومة الاحتلال الإيطالي وصف خبير بالاستعمار ومقاومته.

وتحت عنوان (عروبة الشمال الإفريقي) أشاد الإبراهيمي بدور الدول البربرية التي قامت في المنطقة وأعطتها صفتها العربية. فقد نوه بفضل دول لمتونة والرستمية والموحدية والصنهاجية والمرينية والزيانية قائلاً إنها دول ليس لها من البربرية إلا النسبة العرفية، وهي فيما عدا ذلك دول عربية صميمة. فهي التي أنبتت ورعت الإدارة والقضاء والحضارة كالموسيقى والشعر... وأكد الإبراهيمي أننا لم نقرأ أن الشعراء تقربوا لملوك هذه الدول بالشعر البربري (إلا أن يكون في النادر المصطبغ بالبداوة) (ج 3، ص 429).

إن هذه العروبة عنده هي التي صيرت شمال إفريقيا وطناً واحداً. ولم تفرقه إلا سياسة الخلاف في عصوره الوسطى والاستعمار الفرنسي الحديث.

وأكد الإبراهيمي أن الاستعمار يعمل على توهين العربية بالبربرية، وهو يسمى ذلك «قتل الموجود بالمعدوم». ومن أباطيل الاستعمار في نظره، أنه يسمي السوداني المتجنس لتوه فرنسياً بينما ينكر على البربري المتعرب منذ ثلاثة عشر قرناً أن يكون عربياً. (ج 3، ص 428).

تاريخ فلسطين:

تحدث الإبراهيمي كثيراً عن قضية فلسطين في السياسة الدولية وفي الصراع العربي الصهيوني وفي مواقف الأمة العربية إزاءها، ولكن ذلك ليس هو موضوعنا هنا. إن موضوعنا هو عمق النظرة التاريخية عند الإبراهيمي حول هذه القضية. لقد تداولت الأمم على فلسطين واستعملت كل أمة وسيلتها لاحتلالها. يقول الإبراهيمي عن فلسطين: أخذها البابليون غلاباً، وأخذها الفرس اغتصاباً، وأخذها الرومان اقتساراً، وأخذها العرب اقتداراً. ولا يعد أخذ اليهود لها من كنعان في واحدة من هذه وإنما هي كتابة الله بشرطها، ومعجزة موسى (عليه السلام) في حدودها... ولكن فلسطين في العصر الحديث تؤخذ في سوق الأغراض والمنافع الخسيسة بيعاً ومساومة، حسب تعبيره. وهو يعني احتلال الإنجليز لفلسطين، وصدور وعد بلفور بشأن مستقبلها، واتفاق سايكس بيكو الذي جعل فلسطين تحت الانتداب البريطاني تمهيداً لتهويدها وصهينتها. وهي مواقف دولية معروفة، ولكن الإبراهيمي قد أعطاها بعدها التاريخي والسياسي والاستراتيجي الذي كانت بعض الدول والحركة الصهيونية تعمل على فرضه بالقوة. (ج 3، ص 444 ـ 445).

وفي نطاق الحديث عن تقسيم فلسطين لاحظ الإبراهيمي أن الدول التي صوتت عليه لم تخلق هي نفسها خلقاً طبيعياً وإنما هي دول خلقتها المنافسات، ولم يبلغ الكثير منها مبلغ فلسطين في المجد والسبق الحضاري. (نفسه، ص 445). ووصف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وصفاً لا نجده إلا عند أصحاب الاختصاص فقال إنها ليست كلها يهودية بل هي هجرة أوروبية، دخل فيها

السلافي واللاتيني والجرماني والسكسوني. لقد جاءوا جميعاً على صوت الصهيونية إلى فلسطين حاملين معهم خصائصهم العرقية المشار إليها (الجنسية المتفرقة) ومعها الخصائص الأوروبية من علم وفن وجشع وإلحاد واستعمار وعتو.. (نفسه، ص 445).

وحين أرادت فرنسا أن تتدخل في فلسطين بدأت بالحديث عن مشردي فلسطين وتدويل مدينة القدس. ولذلك لم تسلم من مهاجمة الإبراهيمي على أساس تاريخي أيضاً. كان صاحب الدعوة الفرنسية إلى تدويل القدس هو المستشرق لويس ماسينيون الذي اتهمه الإبراهيمي ـ دون التصريح باسمه ـ بأنه خديم الاستعمار. فقد أنشأ ماسينيون لجنة في باريس سماها (لجنة فرانس ـ إسلام) واتخذ من وقف سيدي أبي مدين الجزائري مطية لتدخل فرنسا في الموضوع. وفي نظر الإبراهيمي أن فرنسا اتخذت الحديث عن المشردين الفلسطينيين ومن وقف سيدي أبي مدين ذريعة للتدخل في الشؤون الفلسطينية، واعتبر ما أقدم عليه ماسينيون باسم بلاده «خلطة أديان»، وتساءل الإبراهيمي: لماذا ذكرت فرنسا بالاسم ولم تذكر المسيحية في هذا السياق. إن الأمر في نظره لا يعدو أن يكون تدخلاً فرنسياً لحماية المسيحية في القدس. واتهم المستشرقين عموماً بأنهم لم يقولوا كلمة منصفة عن فلسطين. وكان الأولى بماسينيون وأمثاله أن يشغل نفسه بأوقاف الجزائر التي استولت عليها فرنسا وليس بوقف أبي مدين الذي مضت عليه قرون في فلسطين، وتساءل الإبراهيمي: أين كان ماسينيون يوم ساهمت دولته في الجريمة التي أخرجت الإسلام من فلسطين ويوم وافقت على التقسيم وساعدت اليهود على الهجرة والتهريب. (ج 3، ص 356).

تاريخ الجزائر:

تبرز ثقافة الشيخ الإبراهيمي التاريخية فيما كتب عن تاريخ الإسلام في الجزائر ومؤسساته. فالإسلام في رأيه انغرس في الجزائر منذ القرن الأول

للهجرة بعد أن اجتث بقية الصحابة الوثنية عن البربر وعتو الرومان ونشروا عقائد الإسلام حتى استقرت في النفوس وسادت المحبة بين السكان، لأن الفتح الإسلامي كان بعيداً عن معنى الفتح المتعارف عليه عند المؤرخين والحربيين، فهو ليس فتحاً مبنياً على القسوة والقهر.

ويرى الإبراهيمي أن الإسلام انحدر في شمال إفريقيا مع تاريخه، فهو مرة يضعف ومرات يقوى، ولكنه احتفظ دائماً بسلطانه على النفوس. ومن آثار الإسلام في الجزائر (وشمال إفريقيا عموماً) ازدهار العلوم والآداب وكثرة التأليف وظهور النوابغ، وعمران المساجد والمدارس والحصون والقصور، وانتشار الأوقاف التي قضت ـ كما قال ـ على الآفات الثلاثة المبيدة للشعوب وهي الجهل والفقر والمرض.

والملفت للنظر أن الشيخ كتب عن هذه الإنجازات والآثار وكأنه أحد المؤرخين المعاصرين فيقول: «من اطلع على رواية المؤرخين وترجماتهم ورأى بقايا الوثائق المسجونة في مكاتب الاستعمار بالجزائر، عجب لما فعل الإسلام في نفوس أسلافنا» (ج 5، ص 72 ـ 73) ثم يضيف: «ومن قرأ تاريخ المدن الجزائرية العلمية التي كانت لها في الحضارة أوفر نصيب مثل تلمسان وبجاية وتيهرت وقلعة بني حماد والمسيلة وطبنة وبسكرة.. علم أية سمات خالدة وسم بها الإسلام هذا القطر». (نفسه).

ويقف الإبراهيمي وقفة مؤرخ حديث أيضاً ليعرف قراءه بتكوين خريطة الجزائر ودولتها فيلاحظ أنها اليوم جديدة من حيث الحدود الجغرافية والإدارية. لقد تشكلت خريطة الجزائر في العهد العثماني وتمت في عهد الاحتلال الفرنسي. أما قديماً فقد كانت قطعة من المملكة العربية الإسلامية التي أقامها الفاتحون منذ القرن الأول الهجري وجعلوا عاصمتها القيروان. لقد كانت القيروان هي التي تتحكم في تونس والجزائر ومراكش ثم الأندلس بعد فتحها. وكان والي القيروان هو الذي يعين ولاة هذه الأقطار ولا دخل لمركز الخلافة في

المشرق في تعيينهم. ولما ظهرت الدعوة الأموية في الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية انفصلت الأندلس عن القيروان. ولما ظهرت الدعوة العلوية في مراكش على يد إدريس بن عبد الله انفصلت مراكش عن القيروان، وليس بين مراكش والجزائر ولا بين تونس والجزائر حدود فاصلة، بل إن الأطلس زاد هذه الأقطار متانة، كما زادها الإسلام متانة أخرى لأنه هو الذي جمع الأقطار الثلاثة في ملاءة واحدة. (ج 5، ص 71).

تناول الشيخ الإبراهيمي تاريخ الجزائر في مناسبتين على الأقل، الأولى في أربع محاضرات بعنوان (الاستعمار الفرنسي في الجزائر) ألقاها على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة سنة 1955، والثانية في مقالة بعنوان «فرنسا وثورة الجزائر» كتبها في القاهرة سنة 1959. أما محاضرات المعهد فقد ارتجلها ثم كتبها وقدمها لإدارة المعهد لطبعها وتوزيعها على طلبته (وهو تقليد كان المعهد يتعامل به مع الأساتذة الزائرين). ابتعد الشيخ في المحاضرات عن أسلوب الأدب والسياسة والصحافة وعالج الموضوع بأسلوب تاريخي. وقد اعترف بأنه كان في الكتابة أكثر هدوءاً منه في الإلقاء، أي أنه كان أكثر علمية ومنهجية.

في هذه المحاضرات قسم تاريخ الجزائر إلى مراحل، وجعل المرحلة الأخيرة هي الاحتلال الفرنسي. وتحدث أثناء المرحلة الأخيرة عن دور الأحزاب والجمعيات والقادة. ووصف منهجه بقوله: «ألممت فيما كتبت بشيء من تاريخ الجزائر من يوم أسلمت، ومن يوم تعربت، ثم بشيء من أخبار الدول التي قامت بها من أهلها، ثم مررت بتاريخ العهد التركي (كذا) وهو أطول العهود فيها، مروراً أهدأ مما سمعه الطلاب مني وأبطأ».

أما مقالته «فرنسا وثورة الجزائر» فقد ظهر فيها عارفاً بواجبات المؤرخ وأدواته بل ظهر فيها كأحد المنظرين وليس فقط أحد رواة الأخبار. فمن رأيه أن التاريخ لا يكتب «ساخناً» وإنما يكتب بعد برودة الحدث وسكون غباره، والأهم

من ذلك عنده هو ألا يكتب عن الحدث التاريخي إلا بعد توفر الوثائق والأدوات. ولا بد، مع ذلك، من تمتع المؤرخ بميزات تتمثل في الثقافة العميقة والذكاء الحاد والنزاهة الخالصة. ويرى الإبراهيمي أن التاريخ الوطني لا يكتبه إلا مؤرخ وطني. وهذه قضية حيوية في كل العصور وعند مختلف الأمم، فالمؤرخ هو صوت أمته وهو المعبر عن هويتها الحقيقية مهما تفنن الآخرون وأخلصوا في الكتابة عنها.

لقد تمنى الإبراهيمي في هذا الصدد أن يقيض الله للجزائر مؤرخاً من أبنائها تتوفر فيه الميزات التالية، وهي أن يكون مستنير البصيرة مسدد الفكر والتعلم، صحيح الاستنتاج، سديد الملاحظة، فقيهاً في ربط الأسباب بالمسببات... لكي يكتب «تاريخاً لا يقف عند الظواهر والسطحيات... بل يتغلغل إلى ما وراء ذلك من الأسباب النفسية التي تحرك فرنسا إلى (ارتكاب) هذه المجازر البشرية وإلى العوامل التي تدفع المقاتلين (الجزائريين) إلى هذه الاستماتة في حرب حارت فيها عقول ذوي العقول...» وقد تواضع الإبراهيمي فقال إنه لا يضع بذلك خطة لكتابة تاريخ الثورة، مثلاً، ولا يرسم الطريق لهذا المؤرخ الوطني أو الفارس المنتظر، ولكنه يريد أن يقول إن هذا المؤرخ الذي أعده الله لهذه المنقبة لعله لم يولد بعد، وإنما الشرط فيه أن يكون جزائرياً. (ج 5، ص 14)

هذه الجملة من المواصفات التي ساقها الشيخ الإبراهيمي للمؤرخ عموماً ولمؤرخ الثورة خصوصاً يجب أن تكون ضمن مواصفات الكتابة التاريخية عندنا. فالمؤرخ في نظره يجب أن يكون متين الثقافة، قوي الاستنباط، قادراً على ربط الأسباب بالمسببات، عارفاً بطرق الغوص فيما وراء مظاهر الأشياء واستكناه الدوافع الباطنية. لكأن الشيخ الإبراهيمي، وهو يضع هذه المواصفات للمؤرخ، ينظر في مقدمة ابن خلدون التي نعرف من مقالته (تلمسان وابن خلدون) أنه قرأها وأعجب بها وبصاحبها.

وبعد.. فهذه جولة قصيرة في ثقافة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي التاريخية وكتاباته عن بعض القضايا ذات الطابع التاريخي. ونلاحظ على ذلك باختصار أن الإبراهيمي:

كان ظاهرة فريدة بين جيله في تفسيره العقلاني للحوادث التاريخية سواء منها القديمة أو الحديثة أو المعاصرة، في وقت لم يدرس فيه التاريخ في مدرسة ولا جامعة. ولا شك أن ذلك يغير من نظرتنا المسبقة القائمة على أن علماء الفقه والأدب والدين لا يعرفون التطورات التاريخية ونتائجها إلا سطحياً، أو أنهم لا يعرفون إذا عرفوا، أكثر من وقائع التاريخ الإسلامي وأنهم على كل حال لا يتقنون قواعد البحث العلمي. فقد أظهرت هذه الورقات القليلة أن الشيخ الإبراهيمي كان له تصوره لمسيرة الحضارة الإنسانية في مختلف عصورها وروافدها، وهو وإن لم يكن فيلسوفاً بالمعنى التقليدي للكلمة فإنه استطاع أن يزاوج بين الدين والتاريخ والفلسفة.

ابن عكنون/ الجزائر/ في 17 مايو 2005)

البشير الإبراهيمي واللقاء الإسلامي مع الأديان

بقلم ألان كريستلو

ترجمة المقدمة والخاتمة: أبو القاسم سعد الله

المقدمة

في معادلة التاريخ الوطني الجزائري يذكر محمد البشير الإبراهيمي (1889 ـ 1965) عادة على أنه شخصية هامة ولكنها ثانوية[1]. فقد كان نائباً لرئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيث يقف في ظل رئيس الجمعية عبد الحميد بن باديس. وبعد وفاة ابن بادبس (1940) أصبح الإبراهيمي رئيساً للجمعية، وخلال الأربعينات آلت الأدوار الرئيسة إلى القادة السياسيين: فرحات عباس ومصالي الحاج.

أما خلال المرحلة الثورية فقد كان من الطبيعي أن يحل قادة جبهة التحرير الوطني محل نجوم المرحلة السابقة. بالإضافة إلى ذلك فإنه كان من الصعب، بناء على ملاحظات المعاصرين، تحديد مكان الإبراهيمي. فقد كان عنيفاً مع خصومه. فهو بالنسبة لمنافسيه زعماء الطرق الصوفية في الجزائر كان معروفاً

---

(1) للمقال كثير من الهوامش ونكتفي هنا بترجمة الهوامش المشار إليها في المدخل فقط وهي سبعة.

توجد أعمال هامة عن هذا العهد من 1919 إلى الاستقلال بما في ذلك شارل روبير آجرون تاريخ الجزائر المعاصر، باريس 1979. ومحفوظ قداش تاريخ الوطنية الجزائرية: المسألة الوطنية والسياسية الجزائرية، 1910 ـ 1951. الجزائر، سنيد، 1980. وعلي مراد: الإصلاح الإسلامي في الجزائر، 1925 ـ 1940، موتون، 1967.

عنه أنه «ماسوني ورجل علماني.» وقد أضاف بعضهم إلى ذلك بأنه كان منخرطاً سراً في المذهب الخارجي للإسلام[1].

وقد قال أحد أنصار حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي كان يرأسها مصالي الحاج سنة 1951 «كان الإبراهيمي بالأمس القريب جاسوساً للاستعمار الفرنسي في سوريا حيث خصصوا له أجراً رفيعاً من مكتب المخابرات السوري.» وذهب صاحب هذا الاتهام إلى التأكيد على أن الإبراهيمي رجل داهية وله القدرة على التلون كالحرباء[2]. أما عمار أوزقان الذي كان في وقت ما مناضلاً في الحزب الشيوعي والذي تولى مدة قصيرة الوزارة في حكومة ابن بللة والذي كان عندئذ مديراً لمجلة (الثورة الإفريقية) التي تعبر عن الصوت الإيديولوجي للنظام ـ فقد مدح الإبراهيمي على أنه كان برجوازياً باستحقاق

---

(1) أبو عمران القسنطيني (رسالة مفتوحة إلى البشير الإبراهيمي) في مجلة إفريقيا الشمالية، 21 مارس 1951. وقد لاحظ أبو القاسم سعد الله أن كثيراً من الشخصيات البارزة في الفكر الإسلامي الحديث كانوا ماسونيين، بمن فيهم الأمير عبد القادر وطاهر الجزائري ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني. أنظر أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر 2 ص 150. ولعل طبيعة الماسونية السرية هي التي جعلت علاقة شخصيات بارزة في القرن التاسع عشر والعشرين بالماسونية لم تدرس دراسة وافية. والجدير بالملاحظة أن الماسونيين غالباً ما يشار بهم إلى الإسلام والعربية. مثلاً فإن شهادة الانخراط في المحفل العربي القديم للمعبد الروحاني تحتوي على نص من القرآن، سورة 9 على أنه قد يكون هناك بعض الغموض كما يشير إليه هذا المختصر الغريب التالي، وهو A.A Scottish Rite.

(2) «جمعية العلماء المسلمين في تاريخ الجزائر» في مجلة إفريقيا الشمالية، 25 سبتمبر 1951. هذه الصحيفة أسسها إسماعيل العربي الذي قضى ثماني سنوات يدرس في الأزهر وفي الجامعة الأمريكية في القاهرة. ومن المساهمين في هذه الصحيفة أحمد توفيق المدني وهو أحد البارزين في جمعية العلماء، ومالك بن نبي. إن الاتهام بالماسونية قام به المصاليون وحلفاؤهم من الطرق الصوفية. ومن المنافسين للإبراهيمي في جمعية العلماء الطيب العقبي وهو حليف لنشطاء كثوليك في مدينة الجزائر في صحيفة (عصا موسى). إن الاتهام قد يرجع إلى سنة 1933 على الأقل إذ يرجع إلى ما قال به خصوم الإبراهيمي من رجال التصوف في تلمسان. أنظر أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي بيروت دار الغرب الإسلامي، 1998 ج 4، ص 333.

وكان وطنياً مفيداً في تمزيق البنيات المهلهلة للنظام الفاسد القديم[1]. أما المصالح الأمنية لجمال عبد الناصر في مصر فقد صنفته تابعاً متحمساً للإخوان المسلمين مما أدى إلى تجريده من الإقامة سنة 1956[2].

وعندما نأتي إلى تعدد الوجوه الوطنية الغاربة ـ إلى جانب انتشار العولمة في بدايات الألفية الثالثة ـ فإننا نجد الوقت قد حان لإعادة تقييم التاريخ الجزائري. فنحن في حاجة إلى تحويل التركيز فيه من الصراع الملحمي من أجل السيادة السياسية على التراب الوطني للجزائر إلى الموضوع الثابت والمهم وهو دور الجزائريين كشعب يمتد على الحدود الواقعة بين الإسلام وأوروبا، شعب تشكل بطرق كثيرة أكسبته تجربة خارج ذلك التراب الوطني: في المشرق العربي وفي فرنسا وفيما هو أبعد من ذلك[3].

في هذه الرؤية الجديدة يظهر البشير الإبراهيمي شخصية قطبية جذابة. فقد كان جزءاً من الجماعة الجزائرية المهاجرة في المشرق العربي خلال سنوات 1911 ـ 1920 حيث قضى معظم هذه الفترة في وسط هذه الجماعة بدمشق وبنى خلالها علاقات وطيدة مع أعضاء عائلة عبد القادر الزعيم الشهير في مقاومة الاحتلال الاستعماري الفرنسي في القرن التاسع عشر. ثم أصبح مهاجراً مرة أخرى خلال سنوات 1952 ـ 1962 متكلماً كدعاية ديني جزائري عن أوضاع تمتد من مصر إلى العربية السعودية وإلى الباكستان.

أما علاقته بتجربة الهجرة الجزائرية فهي علاقة غير مباشرة ومع ذلك فهي تجربة حيوية. لقد كان الأمر يعود إلى مبادرته التي قادت إلى إنشاء شبكة من

---

(1) عمار أوزقان (وطني معاند) في الثورة الإفريقية عدد 122، 29 مايو 1965.

(2) النشرة الشهرية للمسائل الإسلامية 6 أبريل 1956. وثائق (أرشيف) ما وراء البحار - إيكس أون بروفانس BMQI H16/ . 80.

(3) إن هذا الموضوع تشترك فيه بلاد المغرب وإسبانيا الإسلامية. وفي العصر الحديث ونظراً للاحتلال المبكر والتجربة الاستعمارية المكثفة فإن الجزائريين يلعبون دوراً خاصاً وهاماً باعتبارهم شعباً حدودياً.

المراكز الدينية والتربوية والإسلامية بين تلك الجماعة المهاجرة لكي ينافس بها الشبكة العلمانية التي وضعها نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب بقيادة مصالي الحاج في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين. ورغم أن هذا الجهد قد انهار فإن الإبراهيمي قد سلك طريقاً مشابهة في نهاية الأربعينات عندما عمل بدون هوادة على إنشاء مؤسسة دينية إسلامية مستقلة في الجزائر. وفي أوائل الخمسينات عمل على إحياء مشروعه عن طريق مد شبكة المراكز والنوادي الإسلامية لجمعية العلماء إلى فرنسا نفسها. إنه يمكن اعتبار الإبراهيمي رائداً في جهود إنشاء شبكة مؤسساتية للإسلام داخل المجتمع الأوروبي الحديث، وهو المشروع الذي برهن على أنه دائماً يمثل إشكالية في فرنسا.

إن سنوات النشاط الأكثر حركية للإبراهيمي أي من آخر الثلاثينات إلى أوائل الخمسينات تتصادف مع عهد من الزخم غير العادي في الجزائر فكرياً وسياسياً. فقد كان هناك عدد من المشاريع لفتح حوار فكري وثقافي بين عناصر الثقافة الفرنسية والجزائرية وهي المشاريع التي يمكن النظر إليها على أنها واهية أو أنها محرجة من الوجهة الوطنية ولكنها مشاريع تعبر بكل تأكيد عن صلتها بالنسبة لأولئك الذين يبحثون الآن عن طرق تؤدي إلى حوار مثمر بدل التصادم الهدام للمحاضرات في العالم المعاصر. فالإبراهيمي قد اضطلع بدور مركزي في تلك الجهود الساعية للحوار. والفضل يرجع إليه وليس لابن باديس ولا لأي زعيم إسلامي جزائري آخر في ترك الانطباع القوي على الزعماء الفرنسيين في جهود الحوار.

إن التركيز في هذه الدراسة سيكون على دور الإبراهيمي في الجهود الرامية إلى الحوار بين المسلمين والكاثوليك وبين المسلمين والماركسيين، وبالأخص علاقة الإبراهيمي بزعيمين لهذا الحوار وهما لويس ماسينيون الكاثوليكي النشط وروجي غارودي الشيوعي المناضل. إن الرجل الأخير قد أثنى ثناء جميلاً على الإبراهيمي، أما الرجل الأول فقد وجده شخصاً مثيراً للغضب. على أنه يمكن القول إن كليهما (ماسينيون وغارودي) بالغ في رد الفعل. ولكن المدهش حقاً أن كليهما ظهر وكأنه وجد في الإبراهيمي عنصراً

ضرورياً في الجهود الرامية لفتح حوار مع الإسلام أثناء هذا العهد الحاسم. ورغم أن الجهدين قد فشلا فإن دراستهما يمكن أن تنتج رؤى هامة بعيدة المدى بالنسبة لعملية الحوار.

الخاتمة

إن كلا من ماسينيون وغارودي قدم أجوبة على هذا السؤال الذي يبدو أن الإبراهيمي قد وجده مفقوداً. والسؤال هو: كيف يمكن لنشيط إسلامي في العصر الحديث أن ينغمس في السياسات إلى الحد الذي يتحدّى فيه نظاماً استعمارياً كاملاً، نظاماً تقليدياً فاسداً أو دولة حديثة، وفي نفس الوقت يؤكد على استقلالية المؤسسات الإسلامية؟ (هذا السؤال موجود داخل المتن الذي لم نترجمه وقد جئنا به هنا لكي يفهم سياق الكلام في الخاتمة ـ المترجم).

فماسينيون حث على نوع من التسامي الروحاني على السياسات المقرفة حيث يدعم أهل الدين بعضهم بعضاً ويقدمون أنفسهم على أنهم بدائل لأولئك الذين يعانون من الظلم. ويبدو أن الطيب العقبي قد وجد في هذه الرؤية ما أقنعه بما فيه الكفاية لأخذه إلى بيت المقدس ليواصل خطة المعركة الرمزية التي وضعها ماسينيون. أما بالنسبة للإبراهيمي فإن هذه الرؤية قد بدت عمياء عن الواقع الأساسي وهي الحاجة إلى شخص متدين يعمل من أجل توفير الخدمات الأساسية الاجتماعية والتربوية، بالإضافة إلى مثل هشاشة مثل هذه الرؤى الروحانية أمام المناورات السياسية.

لقد كان الإبراهيمي متحفظاً من رؤية كل من العقبي وسيليس Scelles في كيفية بناء جزائر يشترك فيها أصحاب الأديان الثلاثة لأن الاستعمار قد هدم قوة المساواة المأمولة للتفاهم المشترك. وهو في الحقيقة لم يلغ تنوع هذه الرؤية لفرنسا حيث عمل آخر الثلاثينات وأيضاً أوائل الخمسينات على بناء مؤسسات تعليمية من أجل التعددية.

أما غارودي فقد اقترح أن يكون التحالف هو البديل. إن الماركسية تقدم خطة المعركة الاستراتيجية بينما الإسلام سيوفر الدفع الروحي للمعركة التي لا نهاية لها ضد «معاداة الثقافات» المادية الحديثة. وبالنسبة للإبراهيمي فإن الإسلام كما يمارسه أهله اليوم بحاجة مؤكدة للتغيير، ولكن ليس بالطريقة المبسطة التي تجعل منه مجرد إضافة روحانية لنظام دولة استبدادية تعطيه مظهر الداعم للثقافة بدل المظهر المعادي للثقافة. فقد رأى الإبراهيمي خلال الحرب العالمية الأولى عدم جدوى تجنيد دولة كبرى (المقصود بها بريطانيا ـ المترجم) من أجل تحقيق أهداف إسلامية، كما كان شاهداً على الأثر المدمر للاستعمار الحديث على ثقافة شعبه هو.

وإذن فإن العلاج لا يكمن في إيديولوجية عظيمة ولا في إلهام روحاني ولكن يكمن في أشياء أساسية أكبر وهي شعور بالكرامة الفردية والعزة وإحساس بالجماعة وتحكم تام في وسيلة الكائن البشري الأكثر خطورة وهي اللغة. وبينما كان غارودي مهتماً بالدولة وماسينيون مهتماً بالروح فإن الإبراهيمي كان يعمل في مجال آخر مختلف وهو بناء مجتمع مدني.

واتباعاً لهذه الأهداف السهلة لم يربط البشير الإبراهيمي نفسه أبداً بمنظمة سياسية معينة ومع ذلك فإنه كان يعرف أنه لا يمكنه الوقوف فوق السياسات أو أبعد منها. فجنازته في شهر مايو 1965 مثلتْ انطلاق سيل جارف من المشاعر المتأثرة في الجزائر. فمنذ ذلك الحين بدأ الجزائريون في تحفظاتهم من الشعارات المبسطة ومن برامج ابن بللة الذي أطيح به في الشهر الموالي لوفاة الإبراهيمي. فكثير من الحزانى الذين خرجوا في جنازته وجدوا البشير الإبراهيمي صعباً على فهمهم وأحياناً وجدوه قصة مثيرة للغضب. ولكنهم استطاعوا أيضاً أن يروا في التاريخ الجزائري المضطرب في منتصف القرن العشرين أن الإبراهيمي قام بإنجاز أمرين عظيمين هما الحفاظ على استقلاليته وكرامته ثم الحفاظ على مكانته عند الناس.

أبو العيد دودو: آخر العهد

كنت على بعد أمتار من سرير المرحوم الدكتور أبي العيد دودو عندما حان أجله المحتوم. لقد سمعت قبل يوم من وفاته أنه كان يعاني من أزمة قلبية وأنه أخذ إلى قسم الاستعجال في أحد المشافي، فذهبت صباح جمعة في سيارة أجرة لأعوده. وعندما وصلت فاوضت السيد المستقبل على الزيارة، فأجابني بأنها غير ممكنة لأن المريض في غرفة الإنعاش. فألححت عليه فطلب مني الانتظار، وبعد هنيهة خرج المسؤول وسألني باهتمام عن وجه القرابة مع المريض فأجبته بالواقع، ظناً مني بأنه يريد التأكد من هويتي، ولكنه فاجأني بقوله: أعزيك فيه، فقد فارق الحياة لتوه...

كانت صدمة لم أكد أفيق منها إلا وأنا أقول بصوت مرتجف: إنا لله وإنا إليه راجعون. كان ذلك آخر العهد بالصديق دودو الذي عرفته وعاشرته وتراسلت معه منذ سنة 1952 حين كان في طريقه من تونس إلى العراق للدراسة ضمن بعثة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكنت ساعتها طالباً في جامع الزيتونة بتونس.

وقبل أزمته القلبية الأخيرة بحوالي أسبوع زرته في بيته فحدثني عن آخر أخباره الصحية وعن نحافة جسمه التي وصلت بوزنه إلى 54 كلغ فقط، وعن انتفاخ بطنه وأطرافه من مضاعفات الأدوية، كما حدثني عن مشاريعه الأدبية وسألني معلومات إضافية عن (يوهان بيرنت) الألماني الذي كان قد ترجم له كتاباً عن الأمير عبد القادر. وتذاكرنا كالعادة في شؤون الجامعة والنشاط الفكري لبعض الأصدقاء، وما تنشره المطابع والصحف من الإنتاج الثقافي.

وأهداني بعض إصداراته التي صدرت أثناء غيابي عن الوطن.

نشأته

دعنا نذكر بعض التواريخ المؤثرة في حياة الدكتور دودو. فقد ولد سنة 1934 في بلدية العنصر، ولاية جيجل، في بيئة طبيعية جميلة. وبعد ثلاث سنوات توفي أبوه (سنة 1937) فبقي يتيماً ينتظر من يعوله ويرعاه. ولم يتحدث دودو عن والدته ولا عن مصيرها، فهل تزوجت وتركته ربيباً؟ أو حدث لها ما حال بينه وبينها وحرمه من حنانها في تلك السن المبكرة؟

ذكر أن والده أدخله جامع القرية لحفظ القرآن الكريم، وهذا غريب لأن عمره كان لا يزيد عن ثلاث سنوات. وبقي في الجامع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية حين أخذه أحد أقاربه وهو السيد أحمد دودو ليدرس في قسنطينة وأدخله مدرسة قرآنية ثم مدرسة ابتدائية خاصة كان يديرها الشيخ محمد الزاهي. وأثناء الحديث معه بعد الاستقلال كان يشير إلى أخ له يسكن حي بلوزداد بالعاصمة، وربما كانت له أخت أيضاً.

ومن الملاحظ أن دودو لم يتحدث ـ حسب علمنا ـ عن والديه ولم يذكرهما في مؤلفاته. أما والده الذي أشار إليه في سيرته الذاتية فقد تركه طفلاً صغيراً فهو لا يكاد يعرفه إلا بالغريزة. وأما والدته فلم يذكرها في سيرته الذاتية. فهل توفيت هي أيضاً أو تزوجت وابتعدت عنه وهو صغير وبذلك عاش حياة اليتم والحرمان من حنان الأبوين؟ وأنت تلاحظ من حديثك معه هذا الحنان المفقود عنده كما تلاحظ في أمثلته ومشاعره وتصرفاته شيئاً من آثار الطفولة الممزقة. ولولا العناية الإلهية واحتضان الخيرين له لكان مستقبله لا يختلف عن مستقبل جيله الذي لم يدرس ولم يتعلم أيام الاستعمار.

عاش دودو أيضاً حياة مضطربة سياسياً. فالجزائر كانت بين 1947 و 1952 تعيش محنة الثامن مايو 1945، وكانت الأحزاب تسعى إلى وضع برامج

تتلاءم والوضع الجديد الذي عبر عنه ما يعرف بدستور الجزائر وما تلاه من تزوير الانتخابات والتلاعب بالقيادات السياسية. وكانت أبرز الأحزاب الفاعلة عندئذ هي حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وحزب البيان الديمقراطي، بالإضافة إلى الحزب الشيوعي الجزائري، ثم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي درس دودو في معهدها وأرسلته في بعثتها إلى تونس ثم العراق.

دراسته

وفي سنة 1947 افتتحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس فكان دودو من طلابه، وفي هذا المعهد درس أربع سنوات على شيوخ تخرجوا من جامعة الزيتونة أمثال: أحمد حماني وعبد الرحمن شيبان وعبد القادر الياجوري وعبد المجيد جيرش... وتشبع منهم بمبادىء الحركة الإصلاحية. وهؤلاء الشيوخ وأمثالهم هم الذين بقي دودو يدين لهم بالولاء وبالفضل في تكونه الأول، ولكنه بقي أيضاً يحتفظ لهم بذكريات خاصة تجعله يمثل كل شخصية منهم. فهذا يقلده في صوته، وهذا يقلده في عصبيته، وثالث يقلده في جده، ورابع يقلده في هزله، وكان دودو يمثل - كما يظهر من كلامه - الطفل المشاغب أثناء ذلك...

وبعد استكمال البرنامج الدراسي لمعهد ابن باديس توجه دودو إلى تونس للمشاركة في امتحان شهادة الأهلية التي حصل عليها سنة 1951. وفي السنة الموالية أدرجته جمعية العلماء في بعثتها الدراسية المتوجهة إلى العراق. ولا ندري من ساعده على الذهاب إلى تونس فالعراق، فهل هو قريبه أو بعض شيوخه أو أهل الخير والإحسان؟

وبعد أربع سنوات غادرت أنا أيضاً تونس في اتجاه مصر للدراسة، وكان دودو عندئذ يوشك على استكمال دراسته في بغداد، ولم نتراسل أو نلتق منذ لقاء تونس. فقد تخرج سنة 1956 من دار المعلمين العالية في بغداد بينما لم

أكمل أنا سنتي الأولى في مصر. وبعد تخرجه لم يأت إلى القاهرة التي كانت ملتقى المغتربين الجزائريين - بعد تونس - حيث كانت (القاهرة) تعج بالطلبة والمناضلين وينشط فيها الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني. فلماذا اختار دودو دون زملائه، أوروبا، والنمسا تحديداً، في ذلك الوقت؟ الواقع أنه لم يتح لي في مراسلاتي ولا في حديثي معه، أن أسأله عن أسباب توجهه إلى النمسا خاصة. لذلك بقي هذا الأمر مجهولاً عندي إلى الآن رغم أهميته في تحديد معالم حياته. ولعل الإجابة عنه توجد في مذكراته المخطوطة. وقد يكون الجواب لدى بعض رفاقه الذين درسوا معه وعرفوه عن كثب أيام بغداد، مثل الأساتذة زروق موساوي ومولود شرحبيل ومشري الجموعي.

الحالة في العراق

وحين حل دودو بالعراق وجده يعيش في ظل ملكية دستورية نصبها الإنكليز، وكان على رأس العراق عندئذ شاب يافع هو فيصل الثاني ومن ورائه اثنان من ثقاة الإنكليز هما عبد الإله الذي كان وصياً على العرش، ونوري السعيد الذي كان في أغلب الأحيان هو رئيس الوزراء والحاكم الفعلي باسم الإنكليز. وفي صيف سنة 1958 أطيح بالنظام الملكي وجيء بنظام جمهوري في انقلاب دموي كان من نتيجته إبادة الأسرة المالكة، ولكن دودو كان قد غادر العراق إلى النمسا قبل الانقلاب، أي سنة 1956، كما أشرنا.

في النمسا وزواجه

وعندما حل بالنمسا كان وسط أوروبا يعاني من حرارة الحرب الباردة التي أفرزت مشاعر قومية جديدة رغم هيمنة الاتحاد السوفياتي على المنطقة وحياد النمسا المفروض عليها. كما أفرزت الحرب العالمية الثانية ألمانيتين شرقية وغربية وليس ألمانيا واحدة. وكان دودو يتعامل، بعد النمسا، مع مستشرقي ألمانيا الغربية، ومن ثمة كان يعيش تحت تأثير الغرب «الحر» الذي يتزعم محاربة الشيوعية. وكانت إيديولوجية الشرق والغرب تتصارعان في التأثير على

النمسا وألمانيا معاً، وكانت محاولة انقلاب المجر وتشيكوسلوفاكيا سنة 1956، ونحو ذلك من التوترات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي جعلت دودو يعيش حياة مضطربة أيضاً سواء في النمسا أو في ألمانيا. فقد كان أواسط أوروبا كالرمال دائم الاضطراب والحركة، إلى أن حان موعد رجوعه إلى وطنه في ظروف ما يزال قرار الرجوع فيها غير واضح. وكان دودو يذكر تلك الفترة المضطربة أحياناً بشيء من المرارة لأنه أثناء الثورة الجزائرية عرف بعض القائمين في خدمتها من أبناء جلدته، وحين طلب من بعضهم بعد رجوعه إلى الجزائر، شهادة تشهد عن نشاطه من أجل الثورة رفضوا.

حين تحدث دود في سيرته الذاتية عن ظروف انتقاله من العراق إلى النمسا اكتفى بالقول أنه التحق بجامعة النمسا سنة 1956 فدرس فيها الأدبين العربي والفارسي، واللغات، والفلسفة، إلى سنة 1961 حين حصل على الدكتوراه عن تحقيق كتاب من التراث العربي الإسلامي وهو (المنصوري) لابن نظيف الحموي. وهذا الانجاز الذي طبعه بعد سنوات يدل على أن دودو كان ما يزال تحت تأثير عاملين: الأدب العربي القديم والاستشراق، وهو التأثير الذي لازمه طول حياته، رغم أن معظم إنتاجه في الأدب الحديث.

بدأ دودو ينشر ـ وهو في النمسا ـ بعض القصص عن الثورة الجزائرية منذ سنة 1960. كما نشر بعض المراجعات للكتب في المجلات التونسية وغيرها. فقد نشر في مجلة الفكر مراجعة لكتابي (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث) الذي صدر في القاهرة سنة 1961.

وفي نفس الوقت تزوج دودو سيدة نمساوية وتعاطى التدريس في جامعات النمسا وألمانيا وارتبط باللغة والأدب الألماني يدرسه ويتذوقه. وكانت فيينا ـ رغم أفول نجمها السياسي ـ مركز إشعاع ثقافي متميز وسط أوروبا، ولا سيما في فنون الموسيقى والعمارة والرسم والنحت. وكانت طبيعة النمسا الخلابة على نهر الدانوب الخالد وسط جبال وأودية وحضارة أهلها قد أثرت في دودو

القادم من جبال جيجل وطبيعتها الساحرة وشواطئها الجميلة فعوضته النمسا عما فقده في مراتع صباه وطفولته.

التدريس والمستشرقون

ويبدو أن بعض المستشرقين الذين كان عليه التعامل معهم قد استغلوه استغلالاً كبيراً جعله لا يحمد سيرة أكثرهم ولا طريقتهم معه. فقد شكا لي أكثر من مرة من معاملتهم له لأنهم لا يعترفون بجهوده في البحث والترجمة وتوفير المادة العلمية لهم عن الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، وعن الأدب الجزائري بصفة خاصة. وكانوا يكتمون اسمه فيما ينشرونه من أعمال، بل كانوا ينسبون جهوده إلى أنفسهم حين ينشرون بحوثهم.

عاش دودو هذه التجربة ثماني سنوات، وهي فترة الشاب المغترب الذي كان عليه أن يعيل أسرة وأن يشق طريق البحث وأن يصل إلى الأستاذية في جامعة من أعرق الجامعات الأوروبية. وخلال ذلك أسهم في التعريف بالأدب العربي في دوائر المستشرقين والباحثين في وقت اشتد فيه حرص الألمان (سواء كانوا نمساويين أو غيرهم) على التعرف على الوطن العربي سياسياً واقتصادياً وما ينتجه من آداب وثقافة تجعلهم يبحثون عن موقع قدم لهم وسط المتنافسين الأمريكيين والأوروبيين. وفي هذه الأثناء أيضاً كتب دودو مسرحية (التراب) وأضاف قصصاً جديدة نشرها فيما بعد في مجموعتين (بحيرة الزيتون) و(دار الثلاثة).

عودته إلى الجزائر

ومع ذلك غامر وحل بوطنه مصطحباً معه كل أفراد أسرته. وبمساع من إخوانه نزل في المركز العائلي بابن عكنون مؤقتاً، دون أي تسهيلات مادية. ولولا نجدة أصدقائه لهلك هو وأسرته. ومما زاد الطين بلة أنه أصيب بنزيف في الأيام الأولى من حلوله بالجزائر، ومن ثمة تطور معه المرض وظل يعتريه من وقت لآخر إلى أن قضى عليه.

شق دودو طريقه بكفاءة في الجامعة وفرض نفسه على المحيط الأكاديمي والثقافي بقلمه العربي الراقي رغم أنه كان يعيش في قلب أوروبا، ومساهماته في المسرح والمحاضرات والصحافة الأدبية والترجمة. وصبر حتى عودلت شهادته وانتظم في سلك الأساتذة. وكان أعداء الثورة وأعداء الجزائر العربية المسلمة ينصبون الفخاخ لأمثاله ويتصيدون لهم الهفوات تخطيطاً لدفعه إلى العودة من حيث أتى ليبقى الجو خالياً لهم دون منازع ولتبقى الإيديولوجية الاستعمارية هي السائدة في الجزائر. وكانوا مختفين في ظاهر الأمر وراء رموز وطنية كالعلم والنشيد وكون فلان وفلانة ساندوا الثورة، بينما هم يخربون البلاد من الداخل بكل ما أتوا به من وسائل التخريب ومنها عرقلة الكوادر الوطنية حتى لا تتولى زمام الأمور أو تشارك في قيادة البلاد على نحو يضر بالامتياز الذي حصلوا عليه من السلطة الاستعمارية على حساب الثورة.

شارك دودو في لجنة إصلاح التعليم، وفي إدارة شؤون الجامعة، وفي المؤتمرات الثقافية والأدبية داخل الوطن وخارجه، وسافر ضمن الوفود التي أرسلتها وزارة التعليم العالي للتعاقد مع الأساتذة العرب. وكان في كل ذلك يشارك بفعالية، ويبدي آراء صائبة ونظرات ثاقبة تصب دائماً في مصلحة الجزائر. وكان صريحاً لا يعرف المواربة ومقنعاً بإخلاصه وحزمه. وقد ساعدته ثقافته الألمانية على أن يكون دقيقاً ملتزماً. سافرت معه في عدة مناسبات، وكنا نشترك في المسكن والمطعم، كما نشترك في جلسات العمل وتبادل الأفكار، وكان السفر معه متعة ومشكلة في وقت واحد.

حياته الاجتماعية

من لم يعرف حياة دودو الاجتماعية يعتقد أنه كان يسكن فيللاً ضخمة وأنيقة تتوفر على كل مرافق الراحة وعلى مكتبة كثيرة الرفوف والأدراج وعلى مكتب فخم يجلس إليه ليحرر وينشر أوراقه ووثائقه. ولكن الواقع غير ذلك. فقد كان يسكن شقة صغيرة في الطابق الثالث بحي حسن محيوز (الأسفوديل)

في ضاحية بن عكنون، وليس للعمارة التي يسكنها مصعد، ولذلك كان يعاني من صعود السلم أثناء مرضه من ضيق التنفس والضغط.

وأحياناً كان يضطر إلى عدم النزول أصلاً حتى لا يصعد السلم. وإذا دخلت مكتبه الذي يضم أيضاً مكتبته فإنك لن تجد أكثر من بضعة أمتار أو غرفة صغيرة يستقبل بها زواره، ويخلو فيها للكتابة حيث يوجد جهاز حاسوب، ومتكأ يجلس أو يتمدد عليه عند التعب، وبعض الرفوف الخشبية العتيقة المثقلة بالكتب ذات الأحجام المختلفة بما فيها القواميس. وتكاد هذه الرفوف تقع على رأس الجالس أو المتمدد تحتها. ولا يستطيع الزائر أن يتمطى في الغرفة أو يمد رجله أو يده لأنه لا مجال لذلك لضيقها ولأن المكان لا يحتمل أكثر من زائرين أو ثلاثة في نفس الوقت. تلك هي كل ثروة دودو من أدوات الكتابة وجو البحث والعطاء الأدبي والعلمي. ومن وحي ما كان يعانيه دودو وما عانيته أيضاً كتبت ذات مرة عبارتي المعروفة بأن «الكتابة في الجزائر معجزة».

تعارفنا ومراسلاتنا

أول لقاء بيننا كان في تونس كان في خريف سنة 1952 عندما كان هو ورفاقه مسافرين بالطائرة إلى العراق في بعثة جمعية العلماء. فقد ودعتهم في صباح يوم خريفي في مطار العوينة (وهو مطار تونس القديم) بكلمة وقطعة شعر. فعلت ذلك بصفتي رئيساً للبعثة الزيتونية لجمعية العلماء في تونس. وقد بقي الدكتور دودو يذكر هذا اللقاء ويذكرني به في أغلب لقاءاتنا، لماذا؟ لأنه لا يخلو عنده من النكتة التي لا تتخلى عنه أو يتخلى عنها. فقد كنت شاباً مثلهم، ومع ذلك وقفت بينهم عند مصعد الطائرة أوصيهم بوصايا لا تصدر إلا عن شيخ معمم، أو داعية أو معلم، فحثثتهم على طلب العلم، واغتنام الفرصة التي أتيحت لهم، بطريقة وعظية أبوية.

بدأت أتراسل مع دودو منذ الستينات، وكنت عندها في أمريكا أتابع دراستي في جامعة منيسوتا، ثم مدرساً في جامعة ويسكنسن. وبالإضافة إلى

الأمور الشخصية كانت مراسلاتنا تدور حول الوضع في الجزائر، ولا سيما بعد انقلاب 1965، وحالة كل منا في البلد الذي هو فيه، ومشروع العودة إلى الوطن. كما كان دودو يسألني عن رأيي في بعض إنتاجه الأدبي، اعتقاداً منه أنني ما زلت مهتماً بالأدب والنقد. وكان قد قرأ لي أبحاثي وأشعاري المنشورة في مجلة الآداب البيروتية، ومجلة الرسالة العراقية، وهي الأبحاث التي جمعتها في كتابي دراسات في الأدب الجزائري الحديث (1966)، وكان قد سبق له التعريف بكتابي عن محمد العيد آل خليفة بعد ظهوره في مصر (1961). وأتبع ذلك بدراسة عن شعر محمد العيد وحياته بالتعاون مع المستشرق (فيلهم هونرباخ). وكذلك أرسل إلي مخطوطة مسرحيته التراب لإبداء رأيي فيها (1966). وصدرت الطبعة الأولى من بحيرة الزيتون (1967) وهو ما يزال في النمسا فأرسلها إلي لتقديمها إلى القراء، وقد كتبت عنها كلمة نشرت في جريدة الشعب بتاريخ 13 يناير، 1968. وفي الفقرة الأخيرة من هذه الكلمة رسالة إلى دودو حول رجوعه إلى الجزائر، وفي الرسالة مرارة كنت أعانيها بعد رجوعي في أكتوبر 1967 لم أرض لدودو أن يعانيها مثلي.

طالما تراسلنا في شأن العودة إلى الجزائر والمساهمة في الحركة الفكرية فيها، وكنا نشترك في الشكوى من الوضع القائم عندئذ ولكنه كان أكثر مني خوفاً لأنه أصبح، خلافاً لي، رب عائلة. وقد سبقته إلى جامعة الجزائر بحوالي سنة، وسبقته كذلك إلى المعاناة التي عبرت عنها في كلمتي السابقة، لأنني بقيت سنة دراسية دون سكن ولا راتب ولا اعتراف بشهادة على يد زبانية تركتهم فرنسا وراءها. وكانت الجامعة هي أوضح مثال على تغلغل النفوذ الفرنسي في عقل الجزائري. وانعكست هذه الحالة على مراسلاتي مع دودو فأخذت أشكو إليه وأصف له العراقيل التي تعترض أمثالنا فيزداد حيرة وخوفاً. وفي إحدى المراسلات ضمنتها تعريفي بمجموعته (بحيرة الزيتون) والرسالة الواردة في آخرها كما نشرتها الشعب رغم أنها كانت رسالة مثبطة له عن الرجوع إلى الجزائر وأكدت له خوفه وحذره.

يعرف دودو عني أشياء كثيرة لا يعرفها غيره كما أزعم أنني أعرف عنه أشياء كثيرة لا يعرفها غيري بحكم التلاقي والثقة المتبادلة والتناجي حول ما كان يدور في الجزائر من أحداث وما يتندر به الأصدقاء والزملاء حول بعضهم في مجالسهم وفي كتاباتهم، والتعليق عن تصريحات المسؤولين وعن المسائل الإدارية والثقافية.

وقد تبادلنا الآراء والكتب سواء حضورياً أو بطريق المراسلة والمهاتفة والبريد الإلكتروني، كما تبادلنا النصائح أثناء الأزمات التي مرت بها البلاد، وكنا نتشاور في بعض المسائل الحساسة ويطلعني على أمور ربما لا يطلع عليها غير خاصته، وأذكر أنه قال لي ذات مرة أثناء أزمة الجزائر الأخيرة إن جهة معينة عرضت عليه الإقامة في عاصمة أوروببة وراتباً محترماً وعملاً حراً يختاره على أن يوافيها من هناك بأخبار بعض الحركات والأفراد. ولكنه رفض هذا العرض السخي وفضل البقاء حيث هو يبدع الأدب ويكافح المرض. إلى أن جاءه اليقين. رحمه الله.

السفر معه وسخريته

كان السفر معه متعة لأن الحديث معه لا يمل إذ لا ينفك يروي النكت والحكايات والطرائف والتجارب مما يخفف عن المهموم همومه ويذهب الشجن عن المحزون والغريب. ولكن السفر أيضاً معه كان مشكلة لأن صحته دائماً هشة معرضة للصدمات المفاجئة، فهذا نزيف يصيبه، وهذا ضيق في التنفس، وهذا نقص في الدواء، وهذا خفقان غير عادي للقلب. سافر وفد الكتاب دونه إلى ليبيا سنة 1969 وكان سيلتحق بنا في طرابلس ولكنه لم يستطع لمرض مفاجىء ألم به، فألقيت كلمته عن المسرح في غيابه. وفي القاهرة ودمشق سنة 1970 سكنت معه في غرفة واحدة، وكان يفضل مشاركتي في الغرفة لأنني أهتم بحالته الصحية ربما أكثر من غيري. وقد أصيب أثناء ذلك، سيما في دمشق، بوعكة حادة، وكان لا يسافر إلا والدواء معه. ومع ذلك كان

لا يتوقف عن المرح وتلطيف الجو بملاحظاته عن الناس وحتى عن نفسه أحياناً.

ذكر لي مرة أنه كان في سوق الحميدية في دمشق فالتقى بشخص بدين وطويل اسمه(الصناديقي) فسلم عليه دودو بحرارة وعانقه ثلاثة على عادة الشرقيين، ثم تأمل في وجهه وسأله وهو مرتاب: ألست أنت هو الصناديقي؟ فابتعد منه الرجل منكراً له وهو يقول: لا، غلط! وانصرف وترك دودو في دهشة. ومن ميزات دودو أنه يحسن تمثيل صوت الرجل الخشن ونبراته الشامية وكذلك كل الشخصيات التي يمثلها. وقد لفتت نظره عبارة يرددها المتكلم المصري عندما يتوقف عن الكلام ليبحث عن فكرة، فالمصري عادة يقول: بقول إيه؟ فكان دودو يرد على محدثه المصري ساخراً: ما تقولشي حاجة.

وكثيراً ما كان يحكي لنا قصصه عندما نزل القاهرة أول مرة وهو في طريقه إلى بغداد أو أثناء إقامته في عاصمة الرشيد. ولا شك أن زملاءه في البعثة يعرفون الكثير من الصور الاجتماعية التي كان يضعها أمامهم مما تلتقطها عدسته الذكية. وكان زملاؤه أنفسهم لا يسلمون من نكته فالعراقي الذي لا يحسن الأنكليزية كان يقرأ بالعربية اسم شركة (سنجر ليمتد بصرة) أي شركة سنجر المحدودة لمدينة البصرة الخاصة بآلات الخياطة هكذا: (سنجر ليَمْتدَ بَصَرهُ)، بينما كلمة (ليمتد) تعني بالإنكليزية: المحدودة، و(بصرة) هي مدينة البصرة.

وكان دودو يقلد صوت المرأة الإنكليزية الحادة النبرة كما شاهدها في الأفلام وهي تنطق بحروف (أوه) في حالة التعجب أو الاستغراب. كما يقلد الشيخ الإيراني في العراق وهو يفسر القرآن الكريم بصوته المستطيل وغنته الفارسية المتصلة والمرتفعة عند حروف اللهاة، فيقول في تفسير الآية الكريمة: (وما توفيقي إلا بالله): إن «ماتوا» تعني ذهبوا، و«فيقي» قيل إنه نهر في جهنم ... وربما كانت هذه في الواقع من نكت العراقيين عن بعضهم سمعها أو أخذها دودو عنهم. أما ما يرويه عن شيخه الأعمى الذي اسمه (البصير)، فهو تقطيعه أبيات الشعر أثناء درس العروض بعبارة موسيقية صوتية يكررها هكذا: أها،

أها، أها، بغنة عراقية تخرج من الأنف والحنجرة. وبذلك كان الشيخ البصير يفعل مع بيت المتنبي في وصف مشية الأسد المتأنية وهو في كبريائه العظيم:

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلاً

فيقطعها الشيخ لتلاميذه، وهو يتمايل إعجاباً بالصورة التي رسمها الشاعر للأسد - حسب دودو - بعبارة: أها، أها، أها... بدلاً من التفعيلات المعهودة.

وقد قلت له مرة: ماذا لو ألفت كتاباً على طريقة القدماء وجعلت عنوانه مسجعاً هكذا (الفال السعيد في الشيخ أبي العيد)، فقال على الفور: وأنا في هذه الحالة سأضع كتاباً بنفس الطريقة وأسميه (الرأي الحاسم في الشيخ أبي القاسم). فتضاحكنا ورجعنا إلى حديثنا المعتاد.

لم أر في حياتي إنساناً يعاني من مرض خطير ثم يسخر منه في ذات الوقت مثل الدكتور دودو. لقد طال به المرض بل الأمراض الخطيرة سنوات، وتطورت معه أطواراً، وأدخلته المستشفى عدة مرات، وأوصلته إلى الموت ثم أعادته منه إلى الحياة عدة مرات أيضاً، أمراض جعلته يعجز عن الحديث أحياناً وعن المشي أحياناً أخرى، وعن صعود بضع درجات من السلم الذي يوصله إلى شقته، وعن التنفس إلا بصعوبة. كما جعلته بديناً فوق ما يرغب أن يكون ثم نحيفاً أكثر من المطلوب صحياً.

وفي كل حال كان دودو يصارع المرض بإرادة الحياة وبقوة الإيمان والأمل في الانتصار عليه. وكانت وسيلته إلى ذلك هي التداوي والابتسام الدائم والسخرية الذكية. لقد كان يحصي لي الأدوية التي كان يتناولها في اليوم الواحد فتصل إلى أكثر من سبعة عشر 17 دواء، من بينها ما يؤخذ كاملاً وما يؤخذ أنصافاً أو أرباعاً وما يؤخذ في زمن متباعد وما يؤخذ في زمن متقارب. ومع ذلك كان دودو لا ينفك عن الابتسام والنكتة التي لا تفارقه كما لا يتوقف عن رواية الذكريات الخفيفة مع فلان وفلان منذ كان طالباً ومع آخرين عندما كان في سفر أو في اجتماع.

هو واللغة العربية

بدأ دودو دخوله إلى عالم المعرفة بحفظ جانب من القرآن الكريم فتحصن لسانه وذوقه وسلوكه وتقوت معارفه الدينية والتاريخية. وكانت دراسته في معهد ابن باديس قد حببت إليه اللغة العربية والثقافة الإسلامية والوطنية وانطبعت في لوحه صورة الجزائر العربية المسلمة المتميزة عما كان يراه ويلاحظه في الجزائر التي يسيطر عليها الاستعمار ويذل أهلها ويسرق تراثها وثرواتها. ولذلك كان لا يطيق أولئك الجزائريين الذين يدعون إلى التعاون مع المستعمر السابق أو الذين يعتزون بانتمائهم الثقافي إلى ثقافته.

وفي العراق درس دودو في دار المعلمين العالية التي هي مؤسسة تربوية معدة لتخريج المعلمين والتي كانت تحت كوكبة مختارة من علماء وأدباء العراق المتضلعين في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي والحضارة العباسية الراقية. وكان هدف جمعية العلماء من إرسال البعثة هو تخريج فوج من المعلمين يتولون التدريس فيما كانت تعد له العدة وهو إنشاء كلية ابن باديس في قسنطينة ولكن المشروع لم ير النور لظروف الثورة فتوجه الأساتذة والطلاب إلىأداء مهام وطنية أخرى. وعلى كل حال فقد تحصن دودو لغوياً وثقافياً، واكتشفت ميوله الأدبية وأصالته العربية في معهد ابن باديس بالجزائر وفي دار المعلمين بالعراق. فكانت غيرته على لغة الضاد لا تعادلها إلا غيرته على حضارة العرب والإسلام.

إنتاجه الإبداعي والمترجم

تمثل إنتاج الدكتور دودو في مجموعة إبداعية ومجموعة أخرى من المترجمات الهامة. بدأ إنتاجه الإبداعي وهو في النمسا، كما أشرنا، فكتب القصة القصيرة والمسرحية والمقالة. وأصدر من ذلك مجموعته: بحيرة الزيتون التي ظهرت قبل عودته إلى الجزائر، ثم دار الثلاثة التي ظهرت بعد ذلك. كما كتب مسرحية التراب في النمسا ولكنه لم يطبعها إلا في الجزائر. ومعظم قصصه عندئذ تعكس حياة الناس في الجزائر سواء في قريته الصغيرة أو وطنه الواسع.

فهي مستوحاة من ذكريات طفولته نواحي العنصر أو من تجاربه في قسنطينة أو من وحي الثورة ومناضليها.

ويمكن القول إن القسم الأول من إبداعاته كان نوعاً من السيرة الذاتية، أما القسم الثاني فقد كان متخيلاً مما عاشته الثورة من تلاحم القوى الوطنية للتخلص من الاستعمار واسترجاع الاستقلال. وقد كتب دودو وهو في الجزائر أيضاً قصصاً وصوراً سلوكية، كما كتب مسرحية جديدة سماها البشير، وأسهم بالمقالات والبحوث والمداخلات، وحتى بالأشعار في الفترة الأخيرة من حياته.

وإذا حكمنا بالكم فإن أغلب إنتاج دودو يتمثل في الترجمة من الألمانية إلى العربية. فقد وصلت أعماله المترجمة (بما فيها الكتب ذات الأجزاء) إلى أكثر من أربعة وعشرين (24) بين مطبوع ومخطوط. وهناك أعمال أخرى ترجمها وتركها مخطوطة. ولا يعني هذا أنه ترجم من الألمانية فقط ما هو ألماني، بل إنه ترجم من اللغة الألمانية أدباً روسياً وهندياً وصينياً وغيره. لقد كانت مترجماته من الآداب الأجنبية أما وسيلته في ذلك فهي اللغة الألمانية. إن دودو قد أتقن هذه اللغة حتى أنه كان يترجم منها مباشرة دون استعمال الورق والقواميس. فقد كان يمسك القصة أو الفصل من الكتاب ويجلس أمام الآلة الكاتبة قديماً ثم شاشة الحاسوب حديثاً ويأخذ في الترجمة وهو يتابع النص الذي أمامه.

ومن كثرة مترجمات دودو الأدبية تولدت عنده القدرة على المقارنة بين الآداب العالمية الحديثة والمعاصرة، واستطاع أن يفيد بل أن يغني مادة الأدب المقارن في الجامعة وأن يبرز فيها. ولا بد هنا من ملاحظة وهي أن إتقان دودو للغتين العربية والألمانية قد جعل القارىء لا يحس بأن الأثر الذي يقرؤه مترجم عن لغة أخرى. فهو يكْتُبُه بعربية جميلة سلسة وبأسلوب متسق لا اضطراب فيه ولا تمحل، فعمل دودو المترجم يظهر وكأنه نص في لغته الأصلية. ومن ميزات

طريقته أنه لا يكتفي بترجمة النص بل يضيف إليه تعاليق تناسبه، كما يكتب له مقدمة أو مدخلاً للتعريف بالمؤلف الأصلي وتوضيح النص المترجم وظروفه.

ولكن هذا النمط من السلوك في مواجهة المرض لا يعني أن الدكتور دودو قد وضع القلم جانباً واستسلم للفناء، أو أنه تخلى عن مطالعته واستحضار مصوراته وتسجيل مذكراته. لقد كانت ذاكرته نشطة كأنها غير معنية بالمرض الذي هد جسمه، فكان يدون أفكاره في يوميات ودفاتر حتى اجتمع له منها مجلدات. وإذا كتب دودو إلى صديق له ـ ومنهم صاحب هذه السطور ـ كان يطيل الكتابة ولا يكتفي بجواب عن سؤال أو رسالة مجاملة. بل إنه كان يحرر صفحات تصل أحياناً إلى السبعة والعشرة. وكان يمضي وقته في المطالعة والترجمة وقراءة رسائل الطلبة وتصفح الجرائد ومتابعة الأحداث.

ملاحظاته وأسلوبه

ومن هذه الملاحظات عن تصرف الإنسان في المجتمع وعن تعبيره عن حركاته وخلجات نفسه ورغباته النفسية والجنسية استوحى دودو صوره السلوكية التي كتبها وصورها بقلمه أحسن تصوير. ولو كان دودو غير كاتب لكان أفضل فنان يعبر بالريشة بدل القلم وبالألوان بدل الكلمات وباللوحة بدل الكتاب. فهو ماهر في سبر أغوار النفس البشرية واختصار ما يجيش فيها في كلمات وعبارات يجدها القارىء سائغة ناصعة.

وبقدر ما حذق دودو فن التصوير بالكلمات حذق عدداً من اللغات. كان ذكاؤه الأصيل واستعداده الفطري للمحاكاة والإبداع وذاكرته القوية ومخالطته للمستشرقين عوامل ساعدته على إتقان عدد من اللغات الشرقية والغربية ففي العراق درس إلى جانب العربية اللغة الفارسية وأدرك أسرارها، وتذوق أدب الخيام والفردوسي، وحافظ وسعدي. وكان كما أشرنا، يحسن تقليد أصوات الإيرانيين بنبراتها العالية وغنتها المتميزة عن العربية، وخالط أساتذة وطلاباً

عراقيين متأثرين باللغة والأدب الفارسي، وكان له أصدقاء من هؤلاء حتى وهو في الجزائر.

وعندما انتقل إلى النمسا درس الألمانية وأجادها ومكنه زواجه من سيدة نمساوية من التعمق في أسرار هذه اللغة ومعرفة لهجاتها وأطوارها، وهو جهد لا يقوم به إلا أهل اللغة وعلماؤها. وتطلبت منه الشروط الدراسية والحياة العلمية في الجامعة النمساوية تعلم اللاتينية والفرنسية والإنكليزية. وكان يملك مجموعة من القواميس ليرجع إلى هذه اللغات عند الحاجة.

كان دودو يكتب مباشرة على الآلة الراقنة قبل استعمال الحاسوب، فهو لا يكتب على الورق ثم يصحح ويطبع كما أفعل ويفعل غيري. وليس عنده تبييض وتسويد للمقالة أو الفصل الذي يكتبه. إنه يجلس أمام الآلة أو الحاسوب ويصب أفكاره مباشرة في الكلام الذي يريد في انسياب تام. ونفس الشيء يفعله مع رسائله لأصدقائه إذا كان سيرقنها رقناً، أما إذا كان سيكتبها بقلمه فالأمر مختلف. بل إن الكتابة باليد عنده فن متقن الصنعة. فقد لاحظت عنده الإطالة والتسلسل وعدم ارتكاب الأخطاء إلا نادراً وعدم التصحيح لما كتب، فكأنه كان يطبع أفكاره طبعاً على الورق ولا يمارس معاناة التفكير الذي يظهر عند غيره في التوقف، والحذف والإضافة، والمحو والتصحيح. بينما أنا أعتصر الكتابة اعتصاراً وأحياناً لا تواتيني الكلمات المعبرة عن أفكاري وأحياناً لا أجد الفكرة التي أريد إيصالها بكلمات مناسبة إلى القارىء.

وقد لاحظت أن دودو في العشر سنوات الأخيرة كان يكثر من الشكوى في مراسلاته وبالتالي كان يستطرد، وأعني بذلك الشكوى من حالة المرض المتطور عنده ومن الوحدة بعد تفرق أصدقائه على إثر ما عرفته الجزائر من محن وإحن، ومن تردي الحياة الأدبية والفكرية مقارنة بما عرفه وعاشه في المشرق وفي أوروبا. وكيف يكون دودو مرتاح البال قرير العين وقد تفرقت أسرته بين الجزائر والنمسا وأصبح مهدداً في شخصه وأهله؟ وبالإضافة إلى ذلك كان يحس

بدنو أجله فكان يكثر من الكتابة عن حياته ويدون مذكراته وينظم الشعر الذاتي. وبعد انتقالي إلى جامعة آل البيت في الأردن عرضت عليه السعي للعمل فيها فشكرني واعتذر بحال صحته وبكونه يفضل مواصلة تكوين الطلاب في جامعة الجزائر رغم كل المغريات.

مدينة القالة، 11 أغسطس، 2004

أحمد رضا حوحو في الحجاز

كنت أحسبني من أوائل من اهتم بأحمد رضا حوحو حياً وشهيداً، ولكن مسيرة الحياة أظهرت أن (المنهل العذب كثير الزحام) وأن وراد أدب حوحو يتناسلون ويتكاثرون. فقد كنت من الذين انتقدوا كتابه (مع حمار الحكيم) يوم ظهر للناس سنة 1953[1] وكنت عندئذ يافعاً غرا في النقد والأدب، ثم تناولت حوحو في الخمسينات في كتاباتي العديدة وحاضرت عنه وعن أدبه بعد استشهاده سنة 1956[2] وقد نضج قلمي بعض النضج. ثم انقطعت صلتي بالأدب العربي منذ 1961 ودخلت عالم الأدب الإنجليزي والأمريكي والتاريخ الأوروبي، فلم أعد إلى حوحو وأمثاله إلا ذات يوم كنت أتصفح أعداداً من مجلة (المنهل) بمكتبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة سنة 1970، فوجدت فيها عناوين له لا أعرفها من قبل فسجلتها ونويت أن أعود إليها، ولكني لم أفعل. ثم التقيت بزميله ومعاصره الشيخ عبد القدوس الأنصاري في مأدبة بالرياض سنة 1977 أثناء حضوري لإحدى الندوات العلمية. فجلست إلى جانبه حول جفنة الطعام فكان معظم حديثنا عن حوحو والجزائر[3].

وقد سمعنا من كان يتحسر على إنتاج حوحو غير المعروف ويتمنى لو

---

(1) البصائر 11 ديسمبر 1953، عدد 250.

(2) انظر كتابنا (دراسات في الأدب الجزائري الحديث). ط 3، الدار التونسية للنشر 1984.

(3) انظر ذلك في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة)، الجزائر، 1983، ص 247.

جمع هذا الإنتاج في مجلد يسمى (آثار أحمد رضا حوحو). فإذا بزميلنا الأستاذ صالح خرفي يتحفنا بتحفته ويقدم لنا الجانب المجهول من حوحو. فلم يبق إلا أن يضاف هذا المجهول إلى إنتاج حوحو المعلوم ويصدر الجميع في المجلد المذكور (آثار أحمد رضا حوحو)، مع دراسة شاملة تضع الرجل في موضعه بين أدباء عصره.

رغم اختفاء زميلنا الدكتور صالح خرفي عن مهنة التدريس ومتاعبها، فإنه ظل يثري المكتبة ببحوثه الجادة في موضوعات تبدو مستهلكة ولكنها في الواقع موضوعات ذات أبعاد لا تظهر قيمتها دفعة واحدة. فقد كتب عن شخصيات وطنية أسهمت في إثراء الحياة الأدبية والفكرية المبكرة في الجزائر، مثل عمر بن قدور، وعمر راسم، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد العيد، ورمضان حمود، وأحمد رضا حوحو. وأشهد أن خرفي كان أول من سلط الأضواء على مساهمة عمر بن قدور الذي لم ينصفه الجزائريون إلى اليوم، فعرف بأفكاره وحياته وآرائه في القضايا الوطنية والقضايا العربية والإسلامية برؤية سابقة لأوانها حتى في المشرق حيث شروط النهضة متوفرة ولكن حجاب الغفلة والتهاون كان كثيفاً، وقد عالج خرفي ذلك في عدة مناسبات ووعد في آخر كتاب له بأن له دراسة عن عمر بن قدور بعنوان «رائد الصحافة الوطنية».

خلال القرن الحالي وحده قدمت الجزائر للثقافة العربية بالحجاز منشطين بارزين في الفقه والأدب والصحافة والقصة، نذكر منهم حمدان الونيسي الذي هاجر سنة 1910 من قسنطينة إلى المدينة المنورة، بعد أن ترك في الجزائر بذرة صالحة في شخص تلميذه عبد الحميد بن باديس. وقد ظل الشيخ حمدان الونيسي على ولائه للتعليم فاستمر، كما تخبرنا الوثائق، ينشر العلم بالحرم النبوي إلى وفاته خلال العشرينات[1]. ومن الذين أسهموا في ميدان التعليم

(1) عن ذلك انظر كتاب عبد اللطيف عبد الله بن دهيش (تاريخ التعليم في الحجاز إلى 1925)، دار الفكر العربي، القاهرة 1978، ص 345 (بالإنكليزية).

والصحافة والفكر القومي والإصلاحي، الشيخان الطيب العقبي ومحمد البشير الإبراهيمي، وقد هاجر الأول (العقبي) طفلاً في نهاية القرن الماضي مع أسرته وترعرع وشب هناك، وقدم في جريدة (القبلة) وغيرها مساهمته في الحياة الثقافية في مكة والمدينة إلى أن رجع إلى الجزائر سنة 1920[1] وأما الشيخ الإبراهيمي فقد هاجر إلى الحجاز شاباً حوالي 1911، وبعد حصوله على معرفة واسعة في الأدب والفقه والتراث أخذ ينشر علمه في منتديات المدينة المنورة وفي الحرم النبوي الشريف. ثم اضطر إلى مغادرة المدينة سنة 1917 بأمر من السلطات العثمانية في اتجاه بلاد الشام[2].

وبعد انتصار الملك عبد العزيز آل سعود على خصومه في الجزيرة العربية وتوحيده لها تحت رايته، عرفت الجزائر موجة أخرى من الهجرة نحو الحجاز. وفي هذه الأثناء هاجرت أسرة أحمد رضا حوحو من بلدة سيدي عقبة (منطقة بسكرة) إلى موطن الآباء، كما يسميه حوحو نفسه. وتعتبر مساهمة حوحو في الحياة الثقافية في الحجاز هي موضوع الكتاب الذي نقدمه. ولكن هذا العهد قد شهد أيضاً هجرة آخرين إلى الحجاز، منهم الشيخ عمار بن الأزعر، خريج جامع الزيتونة، وأحد الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931). وكان الشيخ الأزعر قد أخذ ينشر آراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي منذ أواخر العشرينات في قمار بوادي سوف، والتفت حوله جماعة

(1) نفى العقبي إلى ما هو الآن بلغاريا وإزمير خلال الحرب العالمية الأولى، ثم عاد إلى الحجاز ربما عام 1916.

(2) نفي الإبراهيمي إلى سورية سنة 1917، ورغم أنه يصف ثورة الشريف حسين بأنها «مشؤومة» فإنه لم يرجع إلى الحجاز وقد توظف في سورية على يد فيصل بن الحسين، ملك سورية إلى احتلالها من قبل الفرنسيين، ويبدو أن عودته إلى الجزائر سنة 1920 لها علاقة أيضاً بذلك الاحتلال، وعندما كان في الحجاز تتلمذ الشيخ الإبراهيمي على يد حسين أحمد أبادي (أخ) مؤسس (مدرسة العلوم الشرعية) التي تخرج منها حوحو، كما تتلمذ على يد الشيخ عبد العزيز الوزير التونسي، المهاجر، وكان زيتونياً، وكلاهما من علماء المدينة المنورة.

آمنت بآرائه، ولكنه حورب من قبل الإدارة الاستعمارية وعاونتها على هذه الحرب الطرقية المتعصبة التي هاجمها أيضاً حوحو في بعض كتاباته المشرقية. وبعد أن قاوم الشيخ الأزعر قرر الهجرة أيضاً سنة 1937 إلى الحجاز واستقر به المقام في المدينة المنورة حيث استمر في نشر العلم والفكر الإصلاحي، كما كان في قمار[1].

ويمكننا أن نذكر آخرين في هذا الصدد. فمساهمة المثقفين الجزائريين في دفع الثقافة العربية بالحجاز تبدو هامة، وقد كان ذلك في الوقت الذي كان فيه مثقفون جزائريون آخرون يسهمون في هذه الثقافة في مناطق أخرى من الوطن العربي، مثل المكي بن عزوز في الحجاز وغيره والشيخ طاهر الجزائري في الشام، والشيخ الفضيل الورتلاني في مصر واليمن. وتبدو الأهمية الأخرى لكتاب خرفي الجديد في أنه يسلط الضوء على مساهمة أحمد رضا حوحو في الأدب الحجازي.

وما دام خرفي قد اهتم بالرواد في الأدب والفكر، فإنه ظل يتتبع خطى أحمد رضا حوحو، حتى وصل إلى مبتغاه منه. كان الجانب المعروف من الفقيد حوحو هو نشاطه الأدبي والمسرحي في الجزائر بعد رجوعه إليها من الحجاز سنة 1946. فالذين عرفوا حوحو شخصياً أو الذين عرفوا آثاره الأدبية كانوا يجهلون كل شيء تقريباً عن نشاطه في الحجاز أيام هجرته إليه مع أبيه وذويه. فهم يذكرونه فقط خلال العشر سنوات التي قضاها في قسنطينة (1946ـ1956) وهي التي بدأت بتوليه إدارة إحدى مدارس جمعية العلماء، ثم الكتابة (الأمانة العامة) في معهد ابن باديس التي انتهت باغتياله في ربيع 1956. وخلال هذه الفترة قدم حوحو لعالم الأدب في الجزائر عصارة قلمه وآرائه في الناس والحياة

(1) توفي بالمدينة المنورة سنة 1967، وما تزال عائلته وداره ومكتبته بالمدينة. وقد نلاحظ أن سيدي عقبة وقمار من منطقة واحدة في الجزائر، مما يوحي أن هناك (دعوة) منظمة للحث على الهجرة. والمعروف أن عائلات أخرى هاجرت من نفس الجهة، ومنها عائلة (ابن القيم) من قمار التي منها الشيخ إبراهيم بن القيم الإمام بالمسجد النبوي اليوم.

مستخدماً لذلك القصة القصيرة والمسرحية والموسيقى والمقالة النقدية، والصحافة، ومقدماً ذلك كله في أدب فصيح اللغة أحياناً، وعامي اللسان أحياناً.

هذا هو الجانب المعروف من أدب ونشاط حوحو قبل صدور كتاب خرفي الأخير. حقيقة أن بعض الباحثين كانوا يطلعون من وقت لآخر عن طريق نجل حوحو أو عن طريق أعداد من مجلة (المنهل) أو من أخبار هنا وهناك يتسقطونها من زملاء حوحو الجزائريين والحجازيين، وهي أخبار تفيد بعض الفائدة عن نشاطه منذ هاجر من الجزائر إلى الحجاز، ولكن ذلك كله كان معلومات متفرقة وغير موثقة بدقة، رغم فائدتها.

أما الذي جمع آثار حوحو في الفترة المجهولة من حياته (وهي من 1934 إلى 1945)، فهو الأستاذ خرفي في كتابه (أحمد رضا حوحو في الحجاز) الذي نقدمه اليوم. وقد كشف هذا الكتاب أن لحوحو إنتاجاً أدبياً غزيراً، أنتجه خلال إقامته في المدينة المنورة وساهم به في بعض المجلات التي من أهمها (المنهل) لصاحبها الشيخ عبد القدوس الأنصاري، التي كانت تصدر بالمدينة المنورة ابتداء من 1937. وكان (لحوحو) مساهمة واضحة في تحريرها، ولا نريد أن نتعرض لبيئة حوحو في الجزائر ولا لبيئته في الحجاز، فقد كفانا الأولى عدد من الباحثين الذين تتبعوا خطوات حوحو منذ ولد في سيدي عقبة ودراسته هناك وفي مدينة سكيكدة، ثم وظيفته في سيدي عقبة ثم هجرته مع والده وذويه إلى الحجاز سنة 1934 هروباً من بطش الإدارة الفرنسية وأذنابها. ثم تتبعوا نشاطه منذ رجع من الحجاز عبر مصر وفرنسا إلى وطنه سنة 1946، ثم حين استقر به الحال في قسنطينة إلى اغتياله سنة 1956. كما كفانا خرفي دراسة بيئته الحجازية المجهولة لدينا حتى الآن، منذ نزل بالمدينة المنورة مهاجراً مع أسرته إلى دراسته بمدرسة العلوم الشرعية[1] ثم التدريس بها سنة 1938، إلى توليه

(1) تأسست سنة 1920 على يد الشيخ أحمد الفيض أبادي.

وظيفة بالبريد السعودي، إلى رجوعه إلى وطنه ـ بعد وفاة أبيه وأمه، كما ذكرنا.

وإذا كانت هذه الجوانب من البيئة العامة، الجزائرية والحجازية، مدروسة على العموم في معظم الكتب التي تناولت حياة هذا البلد أو ذاك، في الفترة ما بين 1911 ـ 1956 (وهي عمر حوحو)، فإن غير المدروس حقاً هو الحياة الأدبية في الجزائر بين 1911 و 1934 (الفترة الأولى من وجوده بالجزائر) وبين 1945 ـ 1956 (الفترة الثانية من حياته بها)، ولا نعتقد أن الحياة الأدبية في الحجاز على عهد حوحو (1934 ـ 1945) مدروسة بما فيه الكفاية أيضاً[1]

لقد اهتم خرفي بدراسة الأدب الجزائري، والشعر على الخصوص، وشاركه في ذلك بعض الباحثين من أمثال الدكتور عبد الله ركيبي والدكتور محمد ناصر. ويبدو أن حياة الأدب الحجازي قد تخصص فيها بعض المتخصصين أيضاً من السعوديين، رغم أننا لا نزعم الاطلاع على أعمالهم، فرجال من أمثال الشيخ عبد القدوس الأنصاري وأحمد عبد الغفور عطار وأحمد السباعي، وحسين زيدان، وحمد الجاسر وعبد العزيز الرفاعي، إلخ.. لا يمكن إلا أن يتركوا سجلاً حافلاً بتجربة عصرهم الأدبية، وقد علمنا أن في المدينة المنورة وفي جدة اليوم نوادي ثقافية وأدبية نشيطة تتنافس وتنتج دراسات ونقداً وإبداعاً.

ويقص خرفي كيف حاول ونجح في تقصي آثار حوحو الأدبية في الحجاز، وهو ما لم يقم به غيره من قبل، فيقول: «وظل الهاجس يؤرقني لسنوات طوال، أعيشه إحساساً مضنياً، ويعجزني مصادر ومراجع، فمجلة (المنهل) المرجع الوحيد لإنتاج (حوحو) في الحجاز لا تتوفر منها نسخة كاملة في أشهر المكتبات العربية.. وكان اللقاء الصدفة مع الأستاذ نبيه عبد القدوس الأنصاري راعي مجلة (المنهل) بعد وفاة مؤسسها والده» ثم يقول خرفي:

---

(1) ذكر خرفي عدداً من الأعمال التي تؤرّخ للحياة الفكرية والأدبية في الحجاز منها كتاب عبد القدوس الأنصاري (بناة العلم في الحجاز الحديث)، القاهرة 1946، وكتاب محمد ناصر بن عباس (موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية) 1971.

«والذي وفر المادة، وهيأ مرفأ الطمأنينة إنما هو الأستاذ نبيه الأنصاري بما ورث من والده الراحل من حب للمعرفة. . فواصل هذه القربى بين الجزائر والحجاز». . ويضيف خرفي بأن مادة كتابه عن حوحو في الحجاز قد تدعمت بما نشر حوحو في أماكن أخرى غير (المنهل)، فيقول: «تكاملت ملامح الصورة، أو تكاد، بما عثرت عليه من إنتاج (حوحو) في جدة والقاهرة ودمشق وتونس والجزائر[1].

والواقع أن ما يلفت النظر في سيرة حوحو بالحجاز هو اهتمامه بالأدب الفرنسي في بيئة لا علاقة لها أصلاً بهذا الأدب، وإذا كانت البيئة الحجازية لها اية صلة بالآداب الأوروبية فمن خلال الأدب الإنكليزي فقط عندئذ، فالحجاز كان وما يزال منغلقاً على نفسه خلال الثلاثينيات، وما يزال بعيداً عن حركة النهضة حتى في البلاد العربية مثل مصر والشام[*]، فكيف دخل حوحو هذا الميدان بترجماته عن اللغة الفرنسية وتعريفاته ببعض كبار أدباء هذه اللغة، أمثال فيكتور هيجو ولامرتين وبودلير؟ ومن كان وراءه في ذلك؟ وقد نتصور أن حوحو أراد أن يكتب في موضوع غير مألوف في الحجاز، وهو الترجمة عن الأدب الفرنسي، والترجمة تعتبر عملاً محايداً إلى حد كبير عند بعض الناس. فهو لا يستطيع أن يضاهي بقلمه العربي بعض أقلام أدباء الحجاز المتمرسين في الأدب العربي الذي كان ما يزال تقليدياً في قوالبه وأساليبه، وهو لا يستطيع أن يتناول موضوعات اجتماعية وسياسية ودينية قد تميل إليها نفسه وقلمه، فوجد عزاءه وضالته في الترجمة عن الأدب الفرنسي الذي لعله يمرر من خلاله بعض

---

(1) أحمد رضا حوحو في الحجاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، ص ص 12 ـ 15.

(*) لا أحسبنا نسلم بهذا القول في مجمله إذ أن كثيراً من رواد الحركة الثقافية والفكرية في المملكة العربية السعودية تحدثوا كثيراً عن اتصالهم الوثيق برواد الحركة الثقافية الفكرية في العواصم العربية ذات الثقل الثقافي والفكري آنذاك. . . وكان ذلك بالاطلاع على نتاج أقلامهم، وبالاتصال بهم والجلوس إليهم. . ولا سبيل هنا لتعداد نماذج لذلك (المنهل).

أفكاره بطريقة غير مباشرة.

وقد يشطح بنا الخيال فنتصور أن بعض الجهات الفرنسية كانت تشجع حوحو على الترجمة عن الأدب الفرنسي، وقد نتصور أيضاً أن هذه الجهات هي التي كانت توفر له المصادر التي كان يترجم منها مثل مؤلفات ناصر الدين دينيه وبحوث المستشرقين ودواوين الشعراء.

إننا لا نقول بهذه الصلة جزماً ويقيناً ولكننا نثير ذلك فضولاً وزعما حتى يظهر ما ينفيه، ومن الممكن أن يقال إن حوحو كان قد درس الأدب الفرنسي ومنه حياة فيكتور هيجو وأمثاله في المدرسة الفرنسية بسكيكدة وأنه تأثر بذلك الأدب، وحين انتقل إلى الحجاز ظل على هواه في الأدب الفرنسي، فعبر عن ذلك بالترجمة منه إلى اللغة العربية في البيئة الحجازية، أي أنه فعل ما فعل دون إيعاز من أحد، ولكن وفرة المصادر الحديثة التي كان يترجم منها تظل موضع تساؤل.

وهناك تأثير آخر في حياة حوحو بالحجاز ما تزال الأيام لم تعطه حقه، وهو علاقته بمدير ومؤسس مجلة (المنهل) التي ظهر حوحو على صفحاتها، بل كان سكرتيرها. ونعتقد أن خرفي رغم اهتمامه بعلاقة حوحو بالمنهل فإنه لم يكشف عن الصلة الوثيقة بين حوحو وعبد القدوس الأنصاري، صاحب المنهل. ولو كان الأمر يتعلق بالجرائد والمجلات فقط لوجد حوحو مجالاً لقلمه في أي مجلة أو جريدة أخرى، ولكن الصلة بين الرجلين تبدو شخصية إلى جانب الميول الأدبية المتشابهة، فالحجاز كان يضم عدداً من المهاجرين من شتى أنحاء العالم الإسلامي، باعتباره مهبط الوحي المحمدي ومهوى أفئدة المسلمين كافة.

وقد حدثني الشيخ عبد القدوس الأنصاري نفسه سنة 1977 عن علاقته بحوحو، ويبدو لي أن العلاقة الأدبية والصداقة الأبدية كل ذلك جعل حوحو يرتبط بالمنهل أكثر من غيرها ويقدم إليها ترجماته الفرنسية في الأدب وغيره تبعاً لاهتمام الأنصاري أيضاً.

ونحن نقول (في الأدب وغيره) لأن حوحو لم يترجم عن الفرنسية النماذج الأدبية فقط، وإنما ترجم عنها أيضاً المقالات والأبحاث المتعلقة بالإسلام واللغة العربية وحياة بعض القادة، مثل الملك عبد العزيز آل سعود، وبعض أهل الفن والفكر مثل ناصر الدين دينيه. فكتاب خرفي يعرفنا بأن حوحو قد ترجم أيضاً هذه العناوين: «ملاحظات مستشرق مسلم،وأبحاثنا الأثرية في نظر الأوروبيين»، بالإضافة إلى القصص والمسرحيات والترجمات الشعرية والأدبية.

وقد وجد حوحو نفسه غريباً في بلاد العرب، رغم عروبته، واكتشف أنه كان «منفياً» في اللغة الفرنسية، على حد تعبير المرحوم مالك حداد. ولذلك كان حوحو يردد أنه خريج «مدرسة أجنبية» بالجزائر، وكان عليه أن يعب من منبع العربية حتى يعود إلى أصالته، وكان ذلك في (مدرسة العلوم الشرعية) التي اكتشف فيها نفسه وصقل فيها لسانه، ولذلك خاطبها بعد تخرجه منها بقوله: «ولقد تربيت، يا مدرستي العزيزة في مدارس أجنبية واكترعت من علوم أجنبية»، وعبر عن غربته بعد هجرته إلى الحجاز فقال إنه أصبح هناك يبحث عمن يعلمه لغته وعلوم قومه، وهو موقف قاس على النفس، فهو يقول إنه كان «غريباً بين قومي، شاذاً في معلوماتي، متطرفاً في أفكاري، وحيداً في عاداتي، فريداً في أطواري»[1] ولو هاجرت النخبة الجزائرية إلى الحجاز، كما هاجر حوحو، لاكتشفت بنفسها بشاعة الجريمة التي ارتكبت في حق ثقافتها الأصلية على يد المستعمرين، ولكن هذا «الإحساس» بالمأساة لا نجده إلا عند القلائل الذين هاجروا إلى الشام والحجاز وغيرهما خلال القرن الماضي (التاسع عشر) وبداية هذا القرن (العشرين)، أما الإحساس «بالغربة» داخل ثقافة ولغة المستعمر فنحن نجده عند العديد من أفراد النخبة أمثال محمد بن رحال ومحمد بن العربي ومالك بن نبي وأحمد رضا حوحو.

(1) خرفي (أحمد رضا حوحو)، ص ص 37 ـ 38.

ببيلوغرافيا أعمال الأستاذ أحمد رضا حوحو المنشورة في مجلة المنهل

في ما يلي ببيلوغرافيا أعمال الأستاذ أحمد رضا حوحو المنشورة له في مجلة المنهل، وهي من إعداد مجلة المنهل ومنشورة في آخر المقال السابق. وقد رأينا الإبقاء عليها هنا لأنها تضيف معلومات هامة عن إنتاج حوحو غير المعروف. وهي مقسمة حسب أنواعها:

أجهزة الدولة: الملوك والأمراء:

- جلالة الملك «عبدالعزيز آل سعود» كما يراه الكاتب الفرنسي المسلم الكبير «ناصر الدين دينيه» مج 3 ج 4 ربيع الأول 1358/ أبريل 1949 م ص ص 2ـ 4.

الأدب:

(أ) عام

- الأدب الحي بين أدب القصة وأدب المقالة مج 5 ج 1ـ ربيع الأول 1360/ مارس 1941 م ص ص 11 ـ 15
- هل يأفل نجم الأدب؟ مج ٢ ج 7 جمادى الثانية 1357هـ/ أغسطس 1938 م ص ص 15 ـ 17.

(ب) التمثيليات والمسرحيات

- أدباء المظهر «رواية مسرحية ذات فصلين» مج 3 ج 7 ـ جمادى الثانية

1358 هـ/ يونية 1939 م ص ص 17 ـ 24 و26.

ـ ضيعة البرامكة «رواية تاريخية تمثيلية في ثلاثة فصول» مج 3 ج 9 ـ شعبان 1358 هـ/ سبتمبر 1939 م ص ص 22 ـ 31 .

ـ الواهم «رواية مسرحية في فصلين» (1)

مج 4 ج 2 ـ المحرم 1359 هـ/ فبراير 1940 م ص ص 13 ـ 16 .

ـ الوهم «رواية مسرحية في فصلين» (2)

مج 1 ج 3 ـ صفر 1359 هـ/ مارس 1940 م ص ص 14 ـ 19.

(ج) الشعر:

ـ تحية المنهل في مستهل عامه الثاني

مج 2 ج 1 ذو الحجة 1356 هـ/ فبراير 1938 م ص 29 .

(د) الشعر المترجم:

ـ أهرام مصر (مترجمة لديديل)

مج 1 ج 10 ـ رمضان 1356 هـ/ نوفمبر 1938 م ص 23.

ـ غروب الشمس الخيالي (مترجمة لشارل بودلير)

مج 2 ج 3 ـ صفر 1357 هـ/ أبريل 1938 ص 27

(هـ) القصة

ـ ابن البحيرة (1 ـ 2)

مج 2 ج 2 ـ المحرم 1357 هـ/ مارس 1938 م ص ص 18 ـ 21

ـ ابن البحيرة (2 ـ 3)

مج 2 ج 3 ـ صفر 1357 هـ/ أبريل 1938 م ص ص 19 ـ 21

- ابن البحيرة (4)

مج 2 ج 4 ـ ربيع الأول 1357 هـ/ مايو 1938 م ص ص 20 ـ 22

- الأديب الأخير

مج 2 ج 11ـ 12 شوال وذو القعدة 1357 هـ/ نوفمبر وديسمبر 1938 م ص ص 50 ـ 56

- الانتقام (1 ـ 2)

مج 2 ج 9 ـ شعبان 1356هـ/ أكتوبر 1938 م ص ص 19 ـ23

- الانتقام (3 ـ 4)

مج 1 ج 10 ـ رمضان 1356هـ/ نوفمبر 1937 م ص ص 15 ـ20

- الانتقام (5 ـ 6)

مج 2 ج 1 ـ ذو الحجة 1356هـ/ فبراير 1938 م ص ص 22 ـ26

- الضحية

مج 3 ج 1 ـ ذو الحجة 1357هـ/ يناير (صح سبتمبر) 1939 م ص ص 27 ـ 34

- فاتح

مج 5 ج 7 ـ جمادى الثانية ـ 1360هـ/ يونيو 1941 م ص ص 14 ـ18

- الكفاح الأخير

مج 3 ج 1 ـ (صح 5)ربيع الثاني 1358هـ/ مايو 1939 م ص ص 24 ـ28

- نيل

مج 1 ج 11، 12 ـ شوال وذو القعدة 1356هـ/ ديسمبر 1937 م ويناير 1938 م ص ص 37 ـ 42

الاستشراق

- ملاحظات مستشرق مسلم على بعض آراء المستشرقين وكتبهم المتعلقة بالعرب والإسلام (1)

مج 1 ج 3 ـ صفر 1356هـ/ ابريل 1937 م ص ص 20 ـ 23

- ملاحظات مستشرق مسلم على بعض آراء المستشرقين وكتبهم المتعلقة بالعرب والإسلام (2)

مج 1 ج 5، ـ ربيع الثاني 1356هـ/ مايو 1937 م ص ص 31 ـ 33

- ملاحظات مستشرق مسلم على بعض آراء المستشرقين وكتبهم المتعلقة بالعرب والإسلام (3)

مج 1 ج 7 ـ جمادى الثانية 1356هـ/ يوليو 1937 م ص ص 27 ـ 31

- ملاحظات مستشرق مسلم على بعض آراء المستشرقين وكتبهم المتعلقة بالعرب والإسلام (4)

مج 1 ج 8 ـ رجب 1356هـ/ سبتمبر 1937 م ص ص 30 ـ 34

التاريخ والآثار

- أبحاثنا الأثرية في نظر الأوروبيين

مج 1 ج 9 ـ شعبان 1356هـ/ أكتوبر 1937 م ص ص 1 ـ 8

التراجم والشخصيات

- اعتراف بالجميل

مج 2 ج 11، 12 ـ شوال وذو القعدة 1357هـ/ نوفمبر وديسمبر 1938 م ص ص 81 ـ 82

- فولتير في الحياة 1694 ـ 1778 (1)

مج 2 ج 5 ـ ربيع الثاني 1357هـ/ يونييه 1938 م ص ص 26 ـ 28

ـ فولتير في الحياة 1694 ـ 1778 (2)

مج 2 ج 6 ـ جمادى الأولى 1357هـ/ يوليه 1938 م ص ص 20 ـ 23

ـ هيجو في الحياة 1802 ـ 1885

مج 2 ج 9 ـ شعبان 1357هـ/ سبتمبر 1938 م ص ص 26 ـ 29

التربية والتعليم:

ـ اعتراف بالجميل

مج 2 ج 11، 12 ـ شوال وذو القعدة 1357هـ/ نوفمبر وديسمبر 1938 م
ص ص 81 ـ 82

الثقافة

(أ) العامة:

ـ جولة في دنيا الخيال (1)

مج 1 ج 6 ـ جمادى الأولى 1356هـ/ يونيو 1937 م ص ص 19 ـ 23

ـ جولة في دنيا الخيال (2)

مج 1 ج 7 ـ جمادى الثانية 1356هـ/ يوليو 1937 م ص ص 8 ـ 13

ـ جولة في دنيا الخيال (3)

مج 1 ج 8 ـ رجب 1356هـ/ سبتمبر 1937 م ص ص 10 ـ 15

ـ جولة في دنيا الخيال (4)

مج 1 ج 10 ـ رمضان 1356هـ/ نوفمبر 1937 م ص ص 9 ـ 11

(ب) التعليقات والتصويبات:

- منهل المراسلات والمباحثات حول أفول نجم الأدب إلى الأستاذ الفاضل عمر ابن البسكري

مج 3 ج 3 - صفر 1358هـ/ مارس 1939م ص ص 36 - 37

السياسة:

- هل الحروب تطوي الخضارات أم تنشرها

مج 4 ج 6 - جمادى الأولى 1359هـ/ يونيو 1940م ص ص 10 - 12

علم النفس:

- هل يحقق الأدب في الحياة.. ولماذا؟

مج 1 ج 11، 12 - شوال وذو القعدة 1356هـ/ ديسمبر 37 ويناير 1938م ص ص 34 - 36

اللغة وبحوثها:

- بمناسبة الاذاعة العربية في محطات العالم - حيوية اللغة العربية

مج 3 ج 6 - جمادى الأولى 1358هـ/ يونيو 1939م ص ص 20 - 22[1]

(1) منشور في مجلة (المنهل) السعودية العدد 506 المجلد 55، محرم 1414 - يوليو، 1973.

مفدي زكرياء والتيارات الوطنية

هذه المداخلة تقدم وجهة نظر الشاعر مفدي زكرياء في التيارات الوطنية التي عاصرها. ولكي نفهم وجهة نظره علينا أن نلفت النظر إلى أمرين في حياته، الأمر الأول أنه عاش في المدينة ولم يعش في أطرافها شأن عدد من زملائه الشعراء، والأمر الثاني أنه نشط في فترة حرجة مرت بها منطقة المغرب العربي وهي فترة الثلا ثينات التي شهدت الاحتفال بالذكرى المائوية لاحتلال الجزائر، وإعلان الظهير البربري في المغرب، وانعقاد المؤتمر الافخارستي في تونس، وتداعيات إعدام عمر المختار في ليبيا. ولعل الباحثين الذين يربطون كل تطور بالاقتصاد سيلاحظون أن الشاعر نشط أيضاً أيام الأزمة الاقتصادية التي ضربت العالم سنة 1929. وربما يجب علينا ألا نغفل عاملاً آخر وهو إعلان حل نجم شمال إفريقيا سنة 1929 عقاباً له على المناداة بالاستقلال.

البيئة والمؤثرات:

كانت الساحة السياسية في كل قطر من أقطار المغرب العربي تشهد إذن تطورات داخلية. ففي الجزائر أخمدت حركة الأمير خالد وحلت محلها حركة النواب المدجنة، بينما كانت منظمة النجم ما تزال محصورة في ما وراء البحر (فرنسا) ولا يكاد يوجد لها تأثير في الجزائر نفسها، ونفس الشيء يقال عن حركة الأمة. وكان ظهور (جمعية العلماء) سنة 1931 قد أكمل الصورة السياسية في الجزائر قبل أن تتجسد في المؤتمر الإسلامي سنة 1936. وأما الحركة الوطنية في المغرب فقد كانت تعيش صدمة الظهير البربري ولم تلملم نفسها في

حركة شعبية مؤثرة إلا بتقدم الثلاثينيات. بينما اشتد كفاح الوطنيين الليبيين ضد الفاشيين الإيطاليين.

ولد مفدي زكرياء في الصحراء (بني يسقن) وسرعان ما انتقل به أهله إلى مدينة عنابة. ولا ندري هل كان يتردد على مسقط رأسه أو استقر نهائياً في هذه المدينة البحرية. ومهما كان الأمر فالظاهر أن حياة المدينة قد أثرت عليه، خصوصاً وأنه رحل منها إلى تونس للدراسة. ولا نستغرب أن يكون الشاعر قد جمع بين العلم والتجارة في كلتا المدينتين، فهو من قوم اعتادوا على الجمع بين الخرفتين. ولكن الذي يهمنا أن حياة المدينة بكل ما فيها من زخم سياسي واجتماعي وثقافي قد ترك بصماته المبكرة عليه.

في تونس درس الشاعر في المدرسة الخلدونية وفي جامع الزيتونة المعمور، وكانت البعثة الميزابية تعمل تحت نظام صارم يشرف عليه عندئذ المؤرخ الواعد محمد علي دبوز. وكانت تونس تعيش حياة نشطة في السياسة بقيادة الدستوريين ضد الحماية الفرنسية، وفي الأدب بقيادة الشاعرين العربي الكبادي وأبي القاسم الشابي والكاتبين زين العابدين السنوسي والفاضل بن عاشور. ويبدو أن الشاب مفدي قد تأثر في تونس بكل من الحركة الوطنية والحركة الأدبية. فكان له أصدقاء من الحركتين. ظهر ذلك في كتاباته وتردده على تونس وإعجابه بالشابي وبالقيادة الجديدة لحزب الدستور.

البداية جمعية الطلبة

مع هذه الخلفيات في أذهاننا دعونا نتابع النشاط الشعري لمفدي زكريا في الحركة الطلابية لشمال إفريقية أو المغاربية. فقد أسست طليعة طلابية من الأقطار الثلاثة (جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين). وكان مقرها في باريس. ولكي تقترب من قاعدتها كانت الجمعية تعقد مؤتمراً سنوياً في حاضرة من حواضر المغرب العربي ابتداءاً من المؤتمر الأول الذي انعقد في تونس، أبريل 1931، ثم المؤتمر الثاني الذي انعقد بالجزائر سنة 1932. ظهر مفدي في هذا

المؤتمر كشاعر ومنشط سياسي، ولم يكن عضواً في التنظيم نفسه. ويمكن القول إنه منذ هذه اللحظة (1932) دخل ميدان السياسة والشعر من بابه الواسع. فقد كان يبحث قبل ذلك عن قاعدة وغطاء فوجدهما في الحركة الطلابية التي سيتولى قادتها قيادة بلدانهم بعد عقد من الزمن. كما وجد نفسه في التنظيم السياسي في تونس والجزائر.

برعاية من جمعية الطلبة الجزائريين انعقد المؤتمر الثاني إذن في نادي الترقي بالجزائر العاصمة. ويمكن القول إن مبادىء جمعية العلماء (وهي حديثة النشأة) ظهرت في برنامج وتوصيات المؤتمرين الأول والثاني (التعليم والشهادات، وتدريس التاريخ العربي الإسلامي واللغة العربية)، إضافة إلى أن الحضور والخطب والقصائد كانت من خزانة جمعية العلماء. فقد خطب فيهم وأعطاهم «توجيهات» كل من الشيخين الطيب العقبي وأحمد توفيق المدني. وحين مروا بقسنطينة استقبلهم وودعهم إلى محطة القطار الشيخ عبد الحميد بن باديس. أما شعر هذه المناسبة فقد أسهم فيه مفدي زكرياء بالإضافة إلى شاعر الإصلاح محمد العيد. وربما كان هذا المؤتمر يمثل أول مناسبة لظهور مفدي على منصة مفتوحة للشعر في الجزائر، وهي المنصة التي ألقى فيها قصيدته:

على منبر النادي أحيي بني النادي ... لتستمع الدنيا روائع إنشادي

وحين انعقد المؤتمر الثالث في باريس (1933) حضره بعض قادة النجم المنحل دون أن نعرف من هم. ولكن مفدي زكرياء كان غائباً هذه المرة، ويبدو أن الشعر على العموم كان غائباً أيضاً عن مؤتمر باريس. أما المؤتمر الرابع فقد انعقد في مدينة تونس سنة 1934. وقد حضره كل من مفدي ومحمد السعيد الزاهري. وإذا كنا نتصوَّر أن الزاهري قد جاء المؤتمر لتمثيل جمعية العلماء (؟) وأنه ألقى فيه قصيدة، فإننا لا نعرف من جاء يمثله الشاعر مفدي. هل كان قد انضم إلى النجم المنحل وجاء يمثله في مؤتمر تونس، أو جاء فقط لزيارة تونس بهذه المناسبة بصفة شخصية. ومهما كان الأمر فقد ألقى أيضاً قصيدة في المؤتمر، وحضر ندوات أدبية والتقى مع أصدقائه في هذه المدينة التي ظلت لا

تفارق حياته حتى توفاه الله فيها.

أما المؤتمر الخامس فقد انعقد بتلمسان برعاية جمعية العلماء ممثلة في نائب رئيسها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي «استحوذ» على الطلبة الضيوف ونسق معهم حتى كادت توصيات المؤتمر تتوافق مع أهداف جمعية العلماء. وللعبرة نقول إنه حضر المؤتمر من المغرب عدد من الزعماء والمثقفين، نعرف منهم الآن الشيخ إبراهيم الكتاني الذي سيكون من أبرز أعضاء حزب الاستقلال. أما مفدي زكرياء فقد حضر المؤتمر وألقى قصيدته:

لح في الجزائر كالهلال ضياء   وانزل كريما كالنسيم صفاء

ونفهم مما كتب محمد قنانش صديق الشاعر مفدي زكرياء أن هناك ندوة انعقدت في تلمسان بهذه المناسبة، لإحياء الذكرى الأولى لوفاة الشاعر أبي القاسم الشابي وأن كلاً من مفدي ومحمد العيد ألقى قصيدة فيها.

وهكذا نخلص إلى أن ظهور مفدي زكرياء على المسرح كان من خلال الحركة الطلابية المغاربية، وهي الحركة التي كانت تتفاعل مع الأحداث وتطورات الأحزاب السياسية والجمعيات المدنية في منطقة المغرب العربي. وكان قادتها يحضرون أنفسهم لكي يقودوا شعوبهم بعد فترة قصيرة. ويمكن أن نقول إن الشاعر كان ما يزال محايداً إلى ذلك الحين.

مع العمل السياسي

أما الخطوة الثانية في حياة مفدي زكرياء فتبدأ حين أصبح عضواً في النجم ثم حزب الشعب، وتولى بعض المهام ومنها تحرير جريدة الشعب بالعربية، وهي جريدة تمثل فكرة أكثر ما تمثل واقعاً، لأنه لم يصدر منها عملياً إلا عددان أو ثلاثة، ذلك أن الإدارة الاستعمارية كانت لها بالمرصاد، كما ترصدت وسجنت رئيس تحريرها. ولكن القمع لم يمنع الشاعر من أن يرسخ عقيدته الوطنية والولاء للحزب وزعيمه غير المنازع عندئذ، وهو مصالي الحاج. ففي هذه الأثناء نظم الشاعر أناشيد ظهر عليها روح التحزّب الواضح. منها نشيد

(فداء الجزائر)، ونشيد (أعصفي يا رياح) الذي سماه (نشيد الشهداء) (1937). كما كتب مقالات وهو سجين ونشرها في صحف تونس والجزائر. وكانت مقالات نقدية تصف واقع الجزائر المريض وتشتت الجهود الوطنية.

نقد الطرقية والعلماء

ومن هذا النقد أنه وضع الطرقية والحركة الإصلاحية في كيس واحد، وحكم عليهما بأن خطهما يصب في خدمة الإدارة، وأن الخط الصحيح هو الخط السياسي الوطني المنادي بالاستقلال. وقد توصل إلى ذلك بمعادلة شائكة، فمن رأيه أن الطرقية تنفي المصلحين كما أن هؤلاء ينفون الطرقيين. وهذا موقف يريح الإدارة. ففي مقالة له بعنوان «ملاحظات نزيهة» من رسالة أرسلها إلى صديق، انتقد الشاعر الطرقية المتمثلة عندئذ في (جامعة اتحاد الزوايا) التي كانت تضم أبرز العناصر الطرقية ورجال الزوايا من المغرب والجزائر وتونس والتي قال عنها إنها وحدت القادري والرحماني والتجاني وغيرهم في بوتقة واحدة، وأطلق على من حضر اجتماعاتهم السنوية عبارة «المخذولون» من مشائخ تونس والمغرب[1].

وتساءل الشاعر: هل «كان الطرقيون يعرفون شيئاً من هذا (الاتحاد) لو أن (كذا) شدة المقاومة علمتهم الاتحاد والنظام؟ أليس من الحكمة أن يلجأ إلى تقويض معالمهم من أساسها بطريق أصلح من هذه الطريقة التي ظهر فسادها وفشلها بالعيان»[2].

وبالمقابل انتقد في نفس المقالة رجال جمعية العلماء الذين سيطرت

---

(1) ربما كان يقصد الشيخين الفاضل بن عاشور الذي جاء من تونس وعبد الحي الكتاني الذي جاء من المغرب.

(2) قنانش، حزب الشعب، ص233 وكان لجامعة اتحاد الزوايا جريدة هي الرشاد، والجامعة ألفنها فرنسا من زعماء الطرقية في البلدان المغاربية الثلاثة لتجنيد الرأي العام معها عشية الحرب العالمية الثانية 1938.

عليهم فكرة الابتعاد عن السياسة واكتفوا ـ كما قال عنهم في شيء من التهكم والسخرية اللاذعة ـ بكتب الأشموني والتاودي والتنقيح. . . ومعرفة المرفوع والمنصوب والمجرور. . كما سيطرت عليهم مهاجمة البدع والضلالة والزردات والقبور والقباب حتى أن الشاعر منهم لا يحسن قول الشعر إذا خرج عن هذه المفردات. وقد أشار إلى حوادث بعينها وقعت يوم اجتمعوا لرثاء شوقي وحافظ في مدينة الجزائر، ويوم استمع إلى قصيدة الزاهري في تونس عند حضورهما مؤتمر الطلبة السابق (1934). فخطباء وشعراء العلماء لا يستطيعون التخلص من فكر الإصلاح. ووصل به الحال إلى أن اتهم الأدب بالجزائر بأنه «مصاب بهذه العدوى»، وقال ـ وهو يسخر بالعلماء ـ: لقد مرت على الجزائر أحداث مزلزلة ومع ذلك لم يقولوا فيها شيئاً لأنه لا علاقة لها بالقبور والقباب، على حد تعبيره. واستشهد بكلام حمزة بوكوشة (وهو من العلماء) الذي كتب يقول ما معناه إنه بفضل العلماء توحد رجال الطرقية[1].

وهكذا أظهر مفدي نفسه هو البطل المتقلد لواء السياسة والخوض في مستقبل الجزائر بدل السكون والاكتفاء بعلم لا يؤهل في نظره للحياة ومهاجمة الاستعمار مباشرة. وأقر مفدي بهذه المناسبة (حوالي 1938) بأنه كان يتعاطى السياسة منذ خمس وعشرين سنة، عندما كان يغري الطلاب في تونس بأن يشاركوا في النشاط السياسي، كما كان يفعل هو[2].

المرحلة الغامضة

لكن ماذا حدث لمفدي زكرياء بعد هذا الانحياز الواضح للتيار السياسي والانتماء للنجم وحزب الشعب والإعجاب بمصالي الحاج واعتناق مبدأ الاستقلال؟ لقد دخل من أجل ذلك السجن، وقمعت أشعاره إلا بعض الأناشيد التي أصبح يرددها شباب الحزب في الجزائر وفرنسا. لماذا لم نجد له شعراً أثناء

---

(1) انظر البصائر عدد 146.

(2) قنانش، حزب الشعب، ص 237.

الحرب العالمية الثانية، وأحداث مايو، ومعاناة حزب الشعب منذ 1946، ودستور الجزائر، والانتخابات المزورة، وجبهة الدفاع عن الحرية، والاستفتاء حول الوحدة. ثم ما موقفه من الأحداث التي عرفها المغرب والمشرق العربيين خلال هذه الفترة؟

إن هناك سكوتاً عن تلك الأحداث من جانب الشاعر وسكوتاً أيضاً من جانب الدارسين لحياة الشاعر خلال هذه الفترة الطويلة. هل كان الشاعر طموحاً سياسياً أكثر من اللازم فاصطدم بالواقع؟ هل كانت له مآخذ على الحزب في التسيير أو في الولاء؟ هل جنت السياسة على معاشه فرأى أن تجارته ستبور إذا واصل النشاط الحزبي بنفس الوتيرة؟ إننا بدورنا نقف محتارين لأنه ليس لدينا جواب.

ومهما كان الأمر فإن كل تلك التطورات والأحداث لا نجد لها صدى في شعره بين 1939ـ 1953. فلعل الشاعر قد مر بأزمة جعلته يتوقف تماماً عن نظم الشعر، مردداً مع المتنبي:

أصخـرة أنـا مـا لا تحـركنـي هذى المدام ولا تلك الأغاريد

مع جمعية العلماء

أما الحادثتان اللتان شارك فيهما بشعره قبل الثورة فهما افتتاح دار الطلبة بقسنطينة 1953 وزلزال الأصنام سنة 1954. ولا ندري الآن ما الظروف التي أخرجت الشاعر عن صمته وجعلته يشارك في افتتاح دار الطلبة، وهو حدث غير سياسي. ولكن القصيدة التي ألقاها بهذه المناسبة تكشف عن توجهاته وحالته الجديدة. فمن حيث الولاء الفكري يبدو أنه نقل فؤاده ـ مؤقتاً على الأقل ـ من حزب الشعب إلى جمعية العلماء، وهذا صريح في القصيدة. ومن حيث الخلفيات التي فرضت عليه الصمت سابقاً نجده أيضاً يعبّر عن مرارة صريحة. وحين نشر القصيدة في ديوان (اللهب المقدس) سنة 1961 جعلها في باب (تنبؤات)، أي أنه تنبأ فيها بحدوث ما حدث على إثر الصدمات التي مر بها حزب الشعب والحركة الوطنية عموماً.

والقصيدة التي نعنيها هي (من يشتري الخلد) والمتأمل فيها لا يتعب نفسه في ملاحظة تحول الشاعر إلى معسكر آخر في انتظار حدوث النبوة التي تعيد للجزائر تماسكها وآمالها، خصوصاً وقد بدأت الثورة في تونس بينما ظلت الجزائر في حالة ترقب ورجاء.

افتتحت جمعية العلماء دار الطلبة في قسنطينة يوم 25 أكتوبر 1953، وهي إقامة تابعة لمعهد ابن باديس ومخصصة لسكنى طلبته. كانت الحفلة برئاسة الشيخ محمد خير الدين ووفد عن جامع الزيتونة، مع غياب الشيخين الرئيس الإبراهيمي الذي كان عندئذ في المشرق ونائبه العربي التبسي الذي كان غالباً في الحج. ومن المساهمين في هذه الحفلة الشاعر محمد العيد الذي ربما لم يلتق بمفدي على منصة الشعر منذ مؤتمر الطلبة سنة 1932.

ومما يلاحظ هنا أن مفدي زكرياء في هذه القصيدة كشف عن كل أوراقه ـ كما يقال ـ فاستعمل لغة قوية وعبارات هجومية في وصف حالة الجزائر وحالة الحزب وحالته النفسية:

يا شاعر الخلد، حق اليوم تخليد   وخالد الشعر، قم أين الأناشيد
صغها على المحفل الجبار قافية   يسمع لها من فم الأجيال ترديد

ونعتقد أنه في أبيات منها قصد قرار الحزب دخول الانتخابات عندئذ والتنافس فيها وتخلي الأعضاء في نظره عن الكفاح السياسي مما جعله يهاجم سياسة الحزب الجديدة بكل صرامة. وربما يفهم البعض من عباراته أنه كان يقصد المشاركين في الانتخابات عموماً. ولكننا نعتقد أن «الآخرين» لا يعنونه، وإنما يعنيه «جماعته» الذين علق عليهم الآمال فإذا هم دجالون ونصابون مثل غيرهم، من أجل الفوز بألقاب ومناصب، بينما قامت فتية تعمل من أجل الجزائر، فتية آمنوا بالله وبالشعب:

قاموا وفي الشعب كذابون ليس لهم   غير المناصب والألقاب مقصود

وفي الجزائر نصابون همهم ... على الدراهم مقصور ومحدود
وللزعامة دجالون ليس لهم ... من الزعامة إلا الخمر والغيد

ثم وضع قاموساً سياسياً هو أدرى بمصطلحاته من كل شعراء تلك الفترة، فقال: إن السياسة ليست ضرباً على الموائد (الطاولات)، وإن الزعامة ليست أقوالاً وشقشقة، وإن النضال ليس احتجاجات على الورق، وإن الجهاد ليس الكتابة على الجدران... ثم رجع فوضع مفردات وعبارات تناسب الذين يصفهم: فهم أصنام صماء في المجلس النيابي، وهم أبقار معجمة لا يحسنون الخطابة ولا الحديث، وهم خشب مسندة في الوظائف المسندة لهم. وقد أشار إلى ما كان يجري من صراع في الحزب من الكتابة على الجدران، وإصدار للمناشير، والتنابز بالألقاب.

ولكنه عندما خاطب العلماء كان صريحاً معهم في أنه يرى أعمالهم ماثلة في المدارس التي أصبحت شامخة كالجبال، ووصفهم بحراس العلم، وبأنهم قوم «مناجيد»، وأن هذه الدار التي يجتمعون لتدشينها ما هي إلا أحد إنجازاتهم. وقد هنأ رئيس جمعية العلماء بالاسم على نجاح البعثات المرسلة إلى المشرق. ولنستمع إليه يميز بين أعمال جمعية العلماء وأعمال غيرها، ولعله كان يبالغ في مدحها انتقاماً من الحزب الذي خيب آماله. فهو يقول:

جمعية العلماء المسلمين ومن ... للمسلمين سواك اليوم منشود
خاب الرجا في سواك اليوم فاضطلعي ... بالعبء مذ فر دجال ورعديد
أمانة الشعب قد شدت بعاتقكم ... فما لغيركم تلقى المقاليد

ومن رأيه أن المدارس هي السبيل الممهد لتحرير البلد: «فما غير المدارس للتحرير تمهيد». ودعا العلماء إلى بناء الاقتصاد أيضاً وحفظ عهد ابن باديس، وإلى اتقاء الله في التاريخ لأنه أمانة الأجيال في أعناقهم(1).

(1) اللهب المقدس، ص 362 ـ 272.

هل تمثل هذه القصيدة تحولاً في حياة الشاعر السياسية؟ يبدو ذلك. فهو لم يعد للشعر السياسي إلا في مناسبتين قبل نظمه لنشيد قسماً، وهما زلزال الأصنام وذكرى نفي الشيخ توفيق المدني.

فبمناسبة زلزال الأصنام (الشلف حالياً) عزى الجزائر في مصابها ثم استنكر موقف ساستها ووصفهم بالجهال والأراذل والضفادع، وأشار إلى انقسام الحزب. ولم يعد للبلاد أمل في هؤلاء الساسة سوى الثورة التي تنسف ما كانوا يصنعون، فهو يخاطب الزلزال بقوله:

ويا خطب رفقا بهذي البلاد	ألم تر يا خطب أحمالها
ألـم تـرهـا بيـن جهـل وفقـر	تجـرر للمـوت أذيـالهـا
ومـا فعـل الغشـم فـي أمـرهـا	وقـد فـوضـت فيـه جهـالهـا
فلـن تستحـق العـلا أمـة	تـولـي القيـادة أرذالهـا
فكيـف تـريـد البقـاء بـلاد	تعـد الضفـادع أبطـالهـا
ولا خيـر فيهـا.. إذا لـم تثـر	لتنسـف بـالنـار أغـلالهـا [1]

شارك مفدي زكرياء في الذكرى الثلاثين لنفي الشيخ أحمد توفيق المدني من تونس إلى الجزائر، سنة 1955، بقصيدة غير معروفة كثيراً، رغم أنها منشورة في الديوان، وفي الجزء الثالث من حياة كفاح. أما الحفلة نفسها فقد التأمت في أحد مطاعم العاصمة في العشرين من شهر يونيو (جوان) كما سبق.

وقد وصف الحفلة وصفاً وافياً الشيخ حمزة بوكوشة. والمهم هنا هو أن الشاعر مفدي قد اشترك فيها شخصياً. وكان الشيخ أحمد توفيق المدني عندئذ هو الكاتب العام لجمعية العلماء ورئيس تحرير جريدتها البصائر. ولم أكن شخصياً قد عرفت الشاعر إلى ذلك الحين، وإنما رأيته في نفس السنة رؤية سريعة في متجره بأحد شوارع القصبة عندما كنت أتجول مع صديق يعرفه. فسلمنا سلاماً

(1) نشرت في البصائر 292 عشية الثورة 1954.

عابراً وانطلقنا في حال سبيلنا. وكانت الحفلة فرصة لي لأعرفه عن كثب لو حضرتها ولكني لم أستطع حضورها، فتركت قصيدتي ليلقيها أحدهم نيابة عني وغادرت العاصمة قبل انعقاد الحفلة بأيام. وتفاصيل الحفلة مذكورة في كلمة الشيخ بوكوشة، وكذلك في كتاب حياة كفاح، كما ذكرنا.

ما يهمنا من قصيدة الشاعر مفدي أنها قيلت في أحد رجال جمعية العلماء من جهة وأنها لم تسلم من العودة إلى الواقع السياسي رغم مرور بضعة أشهر على انطلاق الثورة. حقيقة أن الوضع قد تغير، فقد ظهر اسم جبهة التحرير الوطني، وانصهرت السياسة في الثورة على الاستعمار، وحلت الوحدة محل الشقاق في الحزب، وبدأ الجميع يلتفون حول الثورة لا حول الأحزاب والمنظمات والزعامات الفردية. ولكن هناك جديد جعل الشاعر لا يتركه يمر دون الشكوى منه والتنبيه على خطورته. وهو المؤامرة الخبيثة لمقاطعة تجار بني ميزاب. فقد ضمنها الشاعر قصيدته هذه، وعبر عنها بمرارة، رغم تفاؤله بمصير الجزائر:

أيها الشعب والليالي حبالى	بعد حين سيطلع الله فجرا
اتقوا الله في الجزائر يا ناس	فقد ضاقت الجزائر صبرا
عاث فيها الطغاة عسفا وظلما	ورماها البغاة جهلا وفقرا
فغدا مسلم يقاطع فيها	مسلما والدخيل يختال فخرا
إن كفا غدت تفرق ما قد	جمع الله في الجزائر بترا
والخؤون الخؤون من لم يعالج	كبدا في الجزائر اليوم حرى

ولم يترك المنصة حتى تكلم عما يجمع أهل الجزائر من مقومات الوحدة، وقد لخصها في الدين الإسلامي واللغة العربية والعروبة والجدود والتاريخ المشترك.

قسماً هو النشيد الذي دخل به مفدي زكرياء ساحة الثورة سواء بتاريخه أو بروحه أو بألفاظه. فبعد بضعة أشهر على الثورة اتصل به ابن يوسف بن خدة وعبان رمضان عن طريق الأخضر رباح وطلبا منه كتابة نشيد يهز معنويات الجنود ويكون رمزاً للوحدة ورفداً للعلم الوطني. قد تكون فكرة النشيد لعبان أو لكلا الرجلين، ولكن لماذا مفدي بالذات؟ يبدو أن الرجلين يعرفان أن مفدي هو صاحب أناشيد حزب الشعب، وأنه هو الشاعر السياسي الوطني المعروف، فثقتهم فيه قوية. وربما كان ابن خدة وعبان يعرفان رأيه في السياسة الحزبية وسبب سكوته أو غضبه مما وقع في الحزب من مهاترات. ومن ثمة قصداه دون غيره في هذه المهمة الأدبية السياسية. ولكن متى كان هذا الاتصال؟

وللتذكير نقول إن ابن خدة كان من أعضاء اللجنة المركزية المقبوض عليهم في أول الثورة ثم أطلق سراحهم بعد أسابيع. أما عبان فقد كان سجيناً عند بدء الثورة ثم أطلق سراحه في ربيع 1955. بمعنى آخر أن الرجلين كانا طليقين منذ هذا الربيع.

أما مفدي فلا يذكر متى ولا من اتصل به من أجل النشيد، وإنما يذكر أنه نظمه في سجن بربروس، بتاريخ 25 أبريل 1955، بل أنه ذكر حتى الزنزانة التي كان فيها عند نظمه. ومن جهة أخرى نعلم أن مفدي قد شارك شخصياً في حفل الذكرى الثلاثين الذي أقيم لأحمد توفيق المدني بالعاصمة في العشرين من يونيو (جوان) 1955. فكيف نوفق بين التاريخين؟ وهل كان الشاعر سجيناً في أبريل وطليقاً في يونيو؟ ومن جهة أخرى نعلم ـ كما جاء في الديوان ـ أن الشاعر كان يقف أمام سلطان المغرب محمد الخامس لتهنئته على عودته من منفاه منتصراً، في 17 نوفمبر 1955. أما في 27 من هذا الشهر فكان في الدار البيضاء للتهنئة باستقلال المغرب. مرة أخرى كيف نوفق بين هذه التواريخ ومسألة السجن ونظم نشيد قسماً؟ لقد تتبعنا شعره سنة 1955 وتواريخه المسجلة فوجدناه قد نظم ما

ذكرناه، وقصيدة (الذبيح الصاعد) في رثاء الشهيد أحمد زبانة التي نظمها في 18 يوليو 1955. إنها القصيدة التي نكاد نشاهد فيها المسيح عليه السلام مصلوباً حسب عقيدة المؤمنين بالصلب.

وهناك ملاحظة يجب إبداؤها وهي تأثر الشاعر بمقاطعة تجار ميزاب التي أشرنا إليها والتي لا شك أنه كان معنياً بها أيضاً. ويبدو أن تأثره كان نفسياً وتجارياً وسياسياً. لذلك نجده يذكر ذلك صراحة في قصيدة حفل الشيخ المدني داعياً إلى اليقظة والتخلي عن المقاطعة حفاظاً على الوحدة الوطنية. وقد قيل إنه اشترط على من اقترح عليه نظم النشيد وقف المقاطعة، وهو ما حصل فعلاً حين نبهت الثورة إلى المؤامرة المحاكة في الظلام.

ومما يثبت أن (قسماً) قد نظم سنة 1955 أن نصه سافر إلى تونس للتلحين والتسجيل على الأشرطة ثم رجع إلى الجزائر آخر السنة المذكورة أو أوائل سنة 1956. أما قصة تلحين النشيد فلا تهمنا الآن، وأما تاريخ النظم وسماع اللحن «التونسي» فقد أخبر به العلامة الشيخ إبراهيم بيوض حين قال إنه «شهد مع بعض إخواني، وفيهم الشيخ ابن يوسف (بن داود) ومفدي زكرياء عرض أول شريط... للاستماع إلى النشيد الوطني في الأشرطة الواردة من تونس في تسجيلات، بحضور عبان رمضان وابن خدة وابن يوسف»، وكان ذلك من أجل اختيار النشيد الوطني أمام عبان رضمان وابن يوسف بن خدة ورباح لخضر. ويؤكد الشيخ بيوض أن «الشريط قد سجل بدار طلبتنا بتونس، كما سجل معه في نفس الشريط نشيد بعثتنا، وأظن في أوائل سنة 1956»[1].

ويهمنا من هذا النص أمران الأول التاريخ وهو أوائل 1956، مع شك الشيخ بيوض فيه، إذ قد يكون أواخر سنة 1955، الثاني حضور الشاعر مفدي زكرياء نفسه لهذا الاستماع. ومعنى ذلك أنه كان عندئذ طليقاً وليس سجيناً.

---

(1) (محمد ناصر، الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيماً، مكتبة الريام، الجزائر، 1426/2005. ص 153.

كما نلاحظ حضور عبان وابن خدة لهذه الجلسة، دون أن نعرف انطباع أي من الحاضرين حول لحن النشيد. ولا شك أن جلسة يحضرها الرجلان السياسيان إلى جانب الشيخين بيوض وابن يوسف، وكذلك الشاعر، تكون جلسة غير عادية في وقت كانت الثورة تمر بمرحلة حرجة ومسألة الوحدة الوطنية فيها مسألة خطيرة(1).

الشاعر في الثورة

اندمج الشاعر في الثورة اندماجاً كلياً، وكان يهرب قصائده وأناشيده من سجن بربروس. وكان ينفعل بأحداث الثورة فينظمها شعراً بليغاً يتساوى مع عظمة الأحداث. فكان يتمثلها ثم يحولها إلى آمال وتحديات وكأنه كان ينظم شعره في هذه الأثناء بالرصاص لا بالكلمات. كان اسمه يظهر في جريدة المجاهد (ابن تومرت)، مستحضراً به مئات السنين من التاريخ، وهو اسم يرمز إلى الثورة والوحدة من قرطبة إلى بنغازي، أي الإمبراطورية الموحدية بالمعنى العقائدي والسياسي. فالثورة الجزائرية عنده لن تقف عند حدود الجزائر الجغرافية ولكنها ستمتد لتشمل بلاد المغرب وجوارها. ويمكننا أن نظل نتخيل في مكانه صور التاريخ المتعاقبة إلى أن نصل إلى عهد الموحدين الذي اعتبره المفكر مالك بن نبي هو نهاية المجد الإسلامي وبداية الانحطاط.

وإذا عدنا إلى الديوان فإننا نجد القصائد التي نظمت 1956 ليست كثيرة فهي لا تعدو ثلاثة أناشيد. أولها أعصفي يا رياح، وهو عنوان نجده أيضاً في

---

(1) من أراد أن يتوسع في هذه النقطة فليرجع إلى كتاب الأمين بشيشي، أناشيد الوطن، الجزائر، 1998، ص 343 ـ 357، ومما انتهى إليه أن النشيد منظوم خلال ديسمبر 1955، وأن التلحين الأول للنشيد كان في الجزائر على يد الفنان التونسي قدور الصرارفي، وأن الشاعر أخذ النشيد بنفسه إلى تونس وسلمه إلى الفنان محمد التريكي، وأنه كان حاضراً أثناء التدريبات التي جرت في مقر بعثة الطلبة الميزابيين بتونس، وكان يشترك في تدريبهم على الإلقاء وطبقات الصوت.. وأخيراً يذكر بشيشي أنه بناء على ما توصل إليه أن الشاعر قد رجع إلى الجزائر وسجن أوائل شهر أبريل 1956.

نشيده 1937 حين كان في غمرة الحياة السياسية الحزبية. والنشيد الثاني هو (بنت الجزائر)، وفيه التفاتة واضحة إلى النصف الآخر من المجتمع ليكتمل العمل في وجه غاصبي الجزائر. أما النشيد الثالث فهو (نشيد العمال). ونلاحظ أن الأناشيد الثلاثة نظمت عشية مؤتمر الصومام. وكلها منظومة في سجن بربروس.

أما في سنة 1957 فقد نشر قصيدتين في المجاهد وكلتاهما في الديوان. الأولى قصيدة (نوفمبر) التي نظمها بمناسبة الذكرى الثالثة للثورة، ومطلعها:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا   نوفمبر هل وفيت لنا النصابا

وهي من روائع شعره الثوري. ولم يذكر معها شهراً ولا يوماً، أما الثانية فهي قصيدة (وتعطلت لغة الكلام) التي نظمها في فبراير والتي يبدو أنه استعار عنوانها من أحمد شوقي، ولكن شتان بين معنى ومعنى وموضوع وآخر. وهي بمناسبة عدم اتخاذ هيئة الأمم المتحدة موقفاً من القضية الجزائرية، وتبدأ على النحو التالي:

نطق الرصاص فما يباح كلام   وجرى القصاص فما يتاح ملام

فإذا تصفحنا الديوان وجدنا قصيدتين لسنة 1958، من ذلك قصيدة (حروفها حمراء) التي مطلعها:

لاذ بالانتخاب (مولي) سفاها   في بلاد تسيل فيها الدماء

وقصيدة (أول نوفمبر)، ومطلعها:

هذا نوفمبر قم وحي المدفعا   واذكر جهادك والسنين الأربعا

أما سنة 1959 فقد تحرر فيها من السجن، وأثناء هروبه في شهر مارس نظم قصيدة (أنا ثائر) وهي من نوع المقطوعات وليست قصيدة موحدة الوزن والقافية. ولكن القصيدة المدوية التي نظمها وهو في تونس (أو المغرب) في شهر يوليو، بمناسبة ذكرى الاحتلال هي (وتكلم الرشاش جل جلاله) والتي مطلعها:

أكبـاد مـن؟ هـذي التـي تتفطـر   ودمـاء مـن؟ هـذي التي تتقطـر

المرحلة المشرقية

في هذه المرحلة التي تمتد من 1960 إلى 1962، خرج الشاعر إلى عالم الحرية بعيداً عن سجن الاستعمار البغيض وأصبح يجوب المشرق والمغرب العربيين. فكان يتصدر المحافل الشعرية ويغني مآثر الثورة على مسامع الجماهير العربية. وأثناء ذلك تردد بين العواصم وهنأ الملوك والرؤساء وشارك في أحداث الشعوب.

في سنة 1961 حل الشيخ الإبراهيمي بتونس لحضور حفل تكريمه الذي أقامته له جماعة من الأدباء التونسيين. وكان الشاعر مفدي أحد الذين شاركوا في تكريم الشيخ بقصيدة قوية، وهي المرة الثانية ـ حسب علمنا ـ التي يشيد فيها بالشيخ الإبراهيمي بالاسم.

كما تضمن شعر مفدي في تلك المرحلة الإشادة بمصر وعبد الناصر وبحياة الشرق انطلاقاً من لبنان وعواصم عربية أخرى حيث وجد التكريم والتبجيل، وربما كانت هذه هي أول مرة يحل فيها مفدي زكرياء بالمشرق العربي، وقد مهدت له الثورة الطريق، فوجد شعره قد سبقه إلى الجماهير العربية عن طريق جريدة المجاهد وغيرها من وسائل الإعلام. وربما كانت هذه الشهرة من أسباب تقديم ديوانه إلى الطبع سنة 1961، وهو الديوان الذي جمع فيه شعره من أناشيد الثلاثينات إلى روائع الخمسينات.

الإلياذة وخاتمة المطاف

نظم الشاعر إلياذة الجزائر من وحي الثورة والتاريخ الوطني، بعد أن هدأت العاصفة وبردت العاطفة. فكان الشاعر فيها، وقد حاز المجد الأدبي من أطرافه، وأصدر ديواناً للجزائر وديواناً ثانياً (وهو من وحي الأطلس) للمغرب، وديواناً ثالثاً (وهو في ظلال الزيتون) لتونس، وأشاد بالعروبة والإسلام في

مختلف قصائده. وماذا يريد بعد ذلك؟ لقد كان يريد أمراً تطمح إليه النفس وتقصر دون الخطى. كان لسان حاله قول المتنبي: هل في الكأس فضل أناله؟ ولكن عهد الإمارات قد ولى، ولم يبق إلا عهد الوزارة، والولاية، وهذه من المحرمات على من تغنى بالثورة والعروبة والإسلام في الجزائر الجديدة لأن الذين رفعهم الشاعر فوق عليين أصبحوا أسفل سافلين. فلم يبق أمامه سوى تكريم يليق بالمقام ووسام على صدره المتفجر بالتنهدات وخيبة الآمال. وربما أحس أنه حتى هذه الأمور الشكلية استكثرها عليه من كان يطالب برأسه لأنه انتقم لنفسه فمدح سلطان المغرب ورئيس تونس وغمز مسؤولي الجزائر.

لم يبق أمام الشاعر سوى نظم إلياذة يستعرض فيها تاريخ الجزائر، ويتحدث فيها عن عهد مضى وانقضى بكلام هو أقرب إلى الذكريات والمواعظ منه إلى الإثارة والحماس. ولولا إلحاح مولود قاسم ومساعدة عثمان الكعاك لكانت الإلياذة نفسها ربما حلماً من الأحلام. أما وقد تحققت فقد جاءت متوازية بالنسبة للتيارات التي عرفتها الجزائر قبل الثورة وخلالها. ويطول بنا الحديث لو ذكرنا شواهد عن كل تيار، سيما وأن كل تيار تستغرقه عادة قطعة كاملة من الإلياذة قبل أن ينهي القطعة بلازمة كاملة:

شغلنا الورى وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر

فإذا اقتصرنا على التيارات الوطنية التي تعرض لها منذالحرب العالمية الأولى فإننا نجدها تتمثل في نجم الشمال الإفريقي، وجمعة العلماء، وحزب البيان. أما الأعلام المرافقة لهذه التيارات فهي مصالي، وابن باديس، والإبراهيمي، والعقبي، وكحول، والتبسي، ونلاحظ أنه لم يذكر أيا من الزعماء الآخرين بالاسم:

وقد وجدنا الشاعر في الفقرة المتعلقة بالفترة المشار إليها ينوه بالأعلام الآتية، وهي النجم (مرة واحدة)، والعلماء (مرتين)، والإبراهيمي (مرة واحدة)، وابن باديس (مرتين). ولنقرأ له[1]:

وفـي الـدار جمعيـة العلمـاء   تغذى العقول بوحي السماء
وتهدي النفوس الصراط السوي   وتغـرس فيهـا معـانـي الإبـاء
تواكب نجم الشمال اندفاعا   وتغمـر أكـوانـه بـالسنـاء
ويعضـد باديـس فيهـا البشيـر   فتـزخـر بـالخلـص الأصفيـاء
وتغــزو الضــلالات في التــا   ئهين، مع الوهم في موكب الأغبياء
وترسي جذور الأصالة في الشـــ   ـعب تمحو بها وصمة الدخلاء
وتبني المدارس عرض البلاد   فيعلى ابن باديس صرح السماء
ويــرتــاع مستعمــر مستبــد   وتخشى الخفافيش نبع الضياء
ويرهب ظل النفوس ابن آوى   ويؤذي المنافق صدق النداء
كــذا عبّـد العلمـاء الثنـايـا   بوحي السماء ووحي الدماء

أما في الفقرة الموالية[2] فقد ذكر أعلاماً كانوا فاعلين في الساحة خلال الثلاثينات والأربعينات. وقد ذكر خصائص كل تيار والأحداث التي واجهها أو الامتحان الذي خضع له:

أفاق من الوهم حزب البيان   فـأسلـم للمخلصيـن العنـان
وزايلـه الشـك فـي أصلـه   فمدت لحزب البيان اليدان
وأوحى اندماج فرنسا اندما   جا لحزبين مرماهما توأمان
فبـارك بـاديـس جمـع الصفـو   ف ودشن باديس عهد الآمان
ويـوليـوز والملعـب البلـدي   و(أحمـد) يعلـن فيـه الآذان
ولاذت فـرنسـا بـأصنـامهـا   تحاول بالدس كسب الرهان

---

(1) الإلياذة، ص 46، ط 1 المعهد التربوي الوطني، الجزائر، د. ت.

(2) نفس المصدر، ص 48.

فنغتـال (كحـول) تلقـى دمـاه | على (الطيب) الواسع الصولجان
لئن خاننا الدهر في (طيب) | وأصغى (مصالي) لغدر الزمان
فلـن يجحـد الفضـل تـاريخنـا | وهذي الدنا للرجال امتحان

ونلاحظ أنه ضرب صفحاً عن اسم فرحات عباس زعيم حزب البيان، بينما ذكر مرتين كلا من (أحمد) الذي يعنى به مصالي، والطيب الذي يعني به العقبي. وأشار إلى سياسة الاندماج التي كان يؤمن بها صاحب حزب البيان، وإلى تصريحه حول أصل الجزائر إلى أن «زايله الشك في أصله» وتخلى فرحات عباس عن الاندماج وأسلم القيادة للتيار الثوري سنة 1956. أما شهر يوليو والملعب البلدي فقد أشار بهما إلى الاجتماع الذي انعقد سنة 1936 في الملعب البلدي بالحامة وخطب فيه أحمد مصالي، ولجأت أثناءه فرنسا إلى اغتيال الشيخ محمود كحول ثم اتهمت به الشيخ العقبي لوضع حد لنشاطه. ثم وضع مصير العقبي ومصالي في خانة واحدة، وهي خيبة الأمل في كليهما. ولكنه تدارك في لمحة خاطفة قائلاً إن التاريخ لن يغمطهما حقهما لأن الدنيا دار امتحال للرجال.

كما اختصر[1] ما حدث لحزب الشعب من انشقاق، وقد نعته بالحزب العتيد، وهو بالرغم من الانشقاق الظاهر ظل حزباً واحداً، كما قال، ولكن الطموح المجنون إلى الكراسي والمشاركة في الانتخابات والزعامة، خلطت الأمور ففكر الزعيم (مصالي) أصبح بليداً، وحركة (الانتصار)، وهي تمثل الرأي الآخر، لا تعني الانتصار في الانتخابات، ولا الضرب على الموائد في الخطابة، ولا في الكتابات على الجدران عبارات يحيا فلان ويعيش فلان، ولا بإرسال الوفود إلى فرنسا كما حدث سنة 1936 ، إنما الثورة هي الحل لأنه (لا يفل الحديد إلى الحديد).

وإن وزع الـرأي حـزبـا عتيـداً | ففي القصد ما انفك حزباً وحيداً
وتأبى الزعامات كبح الطموح | فتصنع للخلف شكلاً جديداً

---

(1) نفس المصدر، ص 49.

وتغري الكراسي ضعاف العقول   كنار جهنم ترجو المزيدا
وتغزو السياسة فكر (الزعيم)   فيصبح فكر الزعيم بليدا
كأن الزعامة إعصار جان   ولم أر للجان عقلاً رشيدا
وما (الانتصار) دخول انتخاب   وضرب الموائد ضربا شديداً
ولا كلمات على جدران   هل الحبر في الحرب كان مفيدا
ولا بالهتافات عاش ويحيا   فما حرر القول يوما عبيدا
ولا بالوفود، وسمع فرنسا   أهال عليه الغرور الصديدا
ولن يغسل العار إلا الدماء   وعاش الحديد. . . يفل الحديدا

وما دمنا نشير إلى نظرته لمختلف التيارات فلنقل إنه خص الشيخ العربي التبسي بأبيات في الإلياذة لم يظفر بها غيره من شهداء الثورة[1]، فقال عنه، وهو يتحدث عن عنابة:

وتقفو تبسة آثارها   تباركها هبوات العصور
ويدفعها العربي التبسي   الشهيد فتحتل عرش النسور
ويجري العلوم بأوصالها   حياة، أصالتها في الجذور
على العربي الشهيد صلاة   مضرجة بدماء ونور

الخاتمة

ليس من السهل أن نمر على حياة شاعر «ملأ الدنيا وشغل الناس» مثل مفدي زكرياء في بضع دقائق، ثم نزعم أننا قد وفيناه حقه من الدراسة في بضع صفحات. وقد ألف فيه المؤلفون، وكان لكل منهم نظرته وتحليله والحكم عليه. ونعتقد أن الذي يتصدى لدراسة مفدي زكرياء عليه أن يوسع دائرة ثقافته فليس يكفيه أن يكون شاعراً مثله، ولا سياسياً ليكتب عن عصامي مثله، ولا أن يكون من جهته لينصفه أو من غير جهته ليضعه في مكانه بين الشعراء.

---

(1) نفس المصدر، ص 58.

إن دارس مفدي زكرياء يجب أن يكون عارفاً بأحوال الجزائر في القرن العشرين، وبالخصوص الحالة السياسية والثقافة العربية، كما يجب أن يكون مثقفاً عارفاً بأوضاع المغرب العربي والمشرق العربي لأن مجال مفدي زكرياء هو هذا المجال. فهو مؤمن بالجزائر ووحدة المغرب العربي وقوة الإسلام ومؤمن بالثورة على الجمود والتخلف والاستعمار. وإذا كان بعض زملائه الشعراء لهم ثقافة سياسية فإن مفدي زكرياء كان شاعراً نهل وعب من حوض السياسة حتى شرق بمائها.

الجزائر (بن عكنون)، 9 فبراير 2006

عزاء آل السائحي[1]

بمزيد من الحزن والأسى علمت بوفاة أخينا الشاعر محمد الأخضر السائحي، إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد عرفت السائحي أديباً يملك ناصية اللغة العربية ويستمد من تراثها البيان والبديع، وكانت ذاكرته القوية تمده برصيد لا ينضب من الأدب العربي في مختلف عصوره: الجاهلي والإسلامي والأموي وغيره.

كان السائحي آخر الشعراء الذين فقدتهم الجزائر في ظرف قصير، ومن الصعب أن يأتي الزمان بمثله بعد محمد العيد ومفدي زكرياء وأحمد سحنون.. كان السائحي شاعراً رومانسياً يلتقي مع الشابي - وقد عاش في بيئته وعاصره - في كثير من النقاط. كما أنه شاعر ديني ملهم يستمد قوته من العقيدة الإسلامية ومن التراث الإسلامي الغني برموزه وأحداثه. يضاف إلى ذلك أنه شاعر وطني تمكن حب الوطن عنده في القلب، فنظم الأناشيد والقصائد بعد الاستقلال تخليداً لمآثر الثورة وأبطالها.

سافرت مع السائحي في عدة مناسبات وجمعتنا مسامرات ومآدب فكان النجم الذي لا يبارى في النكتة والدعابة الأدبية وكان صاحب مجالس لا يمل حديثه ولا يخرج السامع إليه خالي الوفاض. فهو خزانة أدب على طريقة القدماء، وهو ذواقة للشعر يلتقط صوره ومعانيه من كل زهرة خلقها الله وجملتها يد الطبيعة.

---

(1) رسالة عزاء أرسلنا بها (عن طريق البريد الإلكتروني) إلى ذويه لوجودنا خارج الوطن ساعة الوفاة.

من للجزائر بعد السائحي من شاعر ديني رومانسي وطني هادىء لا يريد ضجيجاً ولا يتسلق المنابر والمنصات لينال الجوائز والمكافآت ويحصد التصفيق والأضواء؟

رحم الله الفقيد، وعزاء لأهله وذويه.

يوم 16 يوليو 2005

حرقة الكتابة

وصلني كتابكم حرقة الكتابة منذ حين. وسعدت به وانتعشت روحي. ووضعته قريباً مني حتى لا يختفي ضمن أكوام الكتب من حولي فأنساه. والمثل يقول: البعيد عن العين بعيد عن القلب. وكانت العين لا تخطئه لأن صورة الغلاف تراقبني وتذكرني إن غفلت عنه لحظة واحدة. والحق أن من أبدع هذه اللوحة المعبرة عرف كيف يسيطر على العين والقلب معاً. فالقلم مسنون والقيد مجنون والإنسان مسكون بالأفكار والشجون. إنها لوحة معبرة عن قلب مؤلف مثلك بدأ مسيرة الأدب والنقد منذ عقود ولم يحظ حتى الآن إلا باعتراف الأصدقاء وذوي المروءة من الأخلاء الشرفاء.

لقد تجولت في كتابك فوجدته قد اختار ونقى من المؤلفات ما حلا طعمه وسما هدفه وندّ مضمونه. فكنت صياد الحب والجمال، وعاشق الخير ونضال الكلمة. لذلك يفرض كتابك نفسه على القراء لأنه يعطيهم مادة الحب والخير وينصف الساكتين أو المسكوت عنهم، ومن قدموا للثقافة تجربة حياتهم دون انتظار جزاء أو شكور.

كلمة الأستاذ حسن بولحبال عن الكتاب كانت جميلة ومعبرة. وكلمة الإهداء التي تفضلت بها رفعت معنوياتي وأعادتني إلى السنين الخوالي، زمن السبعينات والحياة حبلى بالأماني، والثمانينات وقد بدأ العشب يعطش والليل يغطش، وهو العهد الذي مهد لزمن الظلمات والقهر والنكبات.

ومع ذلك فإن كتابك يحيى الأمل لأن إخراجه في حد ذاته في هذه الفترة (2005) له أكثر من مغزى، والمغزى الأول هو علامة الضوء في باب النفق.

أشكركم مجدداً على هديتكم الثمينة ودمتم(*).

2006/02/21

(*) كتاب من تأليف الأديب الأستاذ: بلقاسم بن عبدالله عنوانه (حرفة الكتابة).

من وحي البصائر والشروق

من قرأ للأستاذ محمد الهادي الحسني دون أن يرى صورته يحسبه من جيل حركة النهضة والإصلاح في القرن الماضي. ولكن أفكاره وصورته تشي به فتجعله من دعاة عصر العولمة ولكن بإحسان، ومن فرسان عصر التكنولوجيا بجدارة وإتقان.

صدر للأستاذ الحسني حتى الآن كتابان هما من وحي البصائر وأشعة الشروق. الأول استوحاه من معاشرته لجريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ 1935 قراءة وكتابة. فقد أكثر من الرجوع إليها حتى تأثر بأفكارها وأسلوب كتابها سواء في سلسلتها الأولى أو الثانية حتى أصبح من كتاب البصائر في سلسلتها الرابعة يوجهها ويغذيها أدباً وديناً وأخلاقاً وسياسة ونقداً اجتماعياً عميقاً وثقافة تاريخية واسعة. وقد صدق في اختيار عنوان كتابه الأول فمقالاته فيه مستوحاة من البصائر حساً ومعنى، أو فلنقل حساً أكثر من المعنى.

أما عنوان كتابه الثاني وهو (أشعة الشروق) فرغم جماله وشاعريته فهو لا يعبر عما تحتويه المقالات من أفكار متقدمة ومن وخزات مسددة بانتظام إلى بعض الأشخاص والأحوال. فإن كان يعني بالشروق هنا مطلع النهار فهو صادق، وإن كان يعني به الجريدة التي ينشر فيها مقالاته فأشعتها كحالتها ذات ألوان وأطياف تارة تمثل قوس قزح وتارة تمثل حزام للا فاطمة. ولا نظنه يعني غير النهار الطالع والضوء اللامع الذي يزيح الظلام ويبعد الأوهام.

لقد أتيح للأستاذ الحسني من الثقافة والتجارب ما لم يتح لغيره إلا في القليل. فبعد حفظه القرآن الكريم وتحصين فكره ولسانه من الشوائب واللكنة درس العلوم الدينية والدنيوية واختار بعد ذلك منهج الوسطية والاعتدال. ونشط مع الشباب الطامح المؤمن بالجزائر الجديدة التي حررها جيل أول نوفمبر من الخوف والهوان، جزائر الشهداء والمجاهدين الأخيار، فبذل الجهد وجرد القلم وأطلق العنان واللسان.

نهل الحسني أيضاً من حياض الجامعة، يوم كانت للمعارف ديمة هامعة، ودرس التاريخ وثقافة العصر الحاضر والعصور الغابرةوذاق تجارب الأمم وأشبع فضوله من أحوال الشعوب وقرأ عن تطور الحضارات. ثم إنه ساح في الأرض فعاش فترة في عاصمتين من عواصم الاستعمار الأوروبي القديم وهما باريس ولندن، ورأى بأم عينيه كيف ارتاضت العاصمتان أمام جبروت عاصمة العولمة الجديدة وكيف رفع الله أقواماً وخفض آخرين، وعلم أن التخلف ليس حكراً على المسلمين وأن العجز والشيخوخة تصيبان الحضارات كما تصيبان الإنسان.

وأضاف الحسني إلى رصيده من التجارب أنه كان قد توظف في شركة تابعة للدولة يقتصر عمله فيها على التعامل مع أهل الفكر والثقافة وليس التلاعب بأموال البلاد والعباد. ثم جرب التدريس في قضايا الدين المعاصرة مع استلهام سير الصحابة والعلماء والمفكرين الذين كانوا حقيقة وليس مجازا مصابيح الظلام وقناديل السائرين في دروب الحضارة الإنسانية. إن كل هذه التجارب تتجلى في مقالات الحسني، فأنت إذا قرأت كتابيه تحس أنك تغرف من مخزون لا يفنى من المعارف وكم هائل لا ينضب من المعلومات.

ولقد منح الله للحسني حاسة لاقطة وشجاعة فائقة في تناول الموضوعات الحساسة بأسلوب الواعظ الماهر والدارس الاجتماعي البارع والأديب البليغ. وإذا كان لكل كاتب خط فكري يسير على هداه فالخط الذي سار ويسير عليه الحسني هو خط مرسوم إلى قدر معلوم وهو خط ابن باديس ومنهج جمعية

العلماء، ولكن في لون جديد وثوب قشيب. فالتعاطي مع قضايا الساعة ليس هو التعاطي الذي واجهت به جمعية العلماء قضايا الثلاثينات والأربعينات مثلاً، لذلك يمكن أن نقول إن الحسني يمثل اليوم تيار الإصلاح الوسطي بدون عقدة، فالرجل مجادل بارع وواعظ مؤثر، وهو يخاطب بأفكاره النخبة القارئة للشروق، ويخاطب عامة الناس في دروس الجمعة بما يفهمون من المعاني والألفاظ والأمثال. فالمقاربة واحدة في الحالتين ولكن جمهور لغته وأسلوبه ليس واحداً.

واضح أن ثقافة الحسني ثقافة العصر، ولكنه اختار منها الوجه الذي يخدم شعبه وأمته. فهو من دعاة الجامعة الإسلامية ولكن بدون تطرف، وهو خبير بأدواء العصر التي أصابت هذه الأمة. فعندما كان في جامعة الجزائر تخصص في التاريخ وأكثر من المطالعة والتأمل. وعرف الصراع الذي خاضته الأمة الإسلامية ضد الاستعمار منذ الحملات الصليبية والاكتشافات الجغرافية، وعاش ما فعله الاستعمار الفرنسي ببلاده عن بينة، وما الجزائر إلا نموذج لما فعله الاستعمار عموماً بالأمة الإسلامية في مشرقها ومغربها. وكان الحسني من الشباب الذين استقبلوا الصحوة الإسلامية وانتظروا منها كل الخير رغم أن إشراقها كان عسيراً وطريقها كان شاقاً. وهو لذلك يدرك أن الاستقلال ليس منّة، وأن الوصول إلى جنة الإسلام ليس بالأحجبة وحلقات الذكر والانقطاع للزهد بل لا بد له من كفاح طويل وجهاد متواصل ضد الفقر والجهل والالحاد.

شعار الحسني في مقالاته ومحاضراته هو شعار النهضة الإسلامية عموماً والجزائرية خصوصاً وهو أن الهوية لها ثلاثة أركان وليس أربعة ولا خمسة ولا دون ذلك، وهي حب الوطن الصغير (الحزائر) بمن فيه وما فيه لأن حبه علامة الإيمان واحترام الآباء والأجداد.

ثم حب اللغة العربية لغة القرآن ولغة الملائكة ولغة أهل الجنة واللغة المقدسة والرسمية في دساتير الأقطار العربية والدول الإسلامية. فالحسني يكتب

بها، ويتذوقها ويحس بحروفها وألفاظها ومعانيها، وهو يقدسها كلغة تراث وعلم ووحدة وتوحيد، وأنت تعرف ذلك من خلال عناوين مقالاته ومحتوى كلماته ورموز عباراته وأمثلته وشواهده واعتزازه بها ودفاعه عنها ضد من يهينها أو يتعسف معها أو لا يعترف بفضلها على الحضارة الإنسانية.

أما الركن الثالثة للهوية عند الحسني فهو الإسلام الصحيح البعيد عن الخرافات والمبالغة في التبسيط أو في التفريط تحت شعار ما يسمونه التسامح الذي يعني عند بعض النخب الإسلامية المستلبة التنازل عن الأصول والتخلي عن المعقول في سبيل إرضاء الأطراف التي تجس نبض المسلمين برفع شعار التسامح إلى درجة قبول الأذية في الدين.

ولقد وهب الله للحسني ذاكرة قوية يستحضر بها الآيات والأحاديث والأقوال والمواقف والأمثال. فهو يكتب معتمداً على رصيد كبير من المصادر يتمثل في نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأشعار مختلف العصور وأمثال العرب ومواقف الصحابة وعظماء التاريخ الإسلامي بل والتاريخ البشري، وله معرفة كافية ببعض اللغات بحيث يستطيع أن يستمد منها الجديد من الأفكار والمذاهب والاتجاهات والتراجم وحتى التقارير والأسرار. ودور الذاكرة هنا هو أنها تمده بما يحتاجه من هذه المكتبة المخزونة والمتنقلة معه حيثما ذهب، بالإضافة إلى مكتبته الثابتة ذات الرفوف والعناوين القديمة والجديدة والفنون المختلفة كاللغة والأدب والتفسير والشروح بأنواعها والدراسات الحديثة والدوريات والقواميس. وتلك هي عدة الباحث وزاد الكاتب في كل عصر.

أحيا الحسني أدب المقالة بعد أن اعتراه الذبول وطغت عليه المقالة الصحفية. فقد تأثر الحسني بفن المقالة عند الشيخ الإبراهيمي، بل تأثر بأفكاره وأسلوبه وبعض عناوين مقالاته وبالأوتار التي يضرب عليها للوصول إلى هدفه. وهذا التأثير واضح من كثرة الاتكاء على الإبراهيمي في الاقتباس والاستعارة

بالتصريح لا بالإشارة. ومع ذلك فالحسني لم يكن مقلداً له حذوك النعل بالنعل، فموضوعاته بنت زمانها. وألفاظه من زوادته الخاصة. أما مقالاته فلا تكاد تخرج عن أحوال الجزائر وقضايا العرب والمسلمين الاجتماعية والدينية والمعرفية بصفة عامة. وهو يستعمل تارة الأسلوب الجاد حتى كأنه خطيب يحرض المؤمنين على التحرك وتارة الأسلوب التهكمي حتى كأنه الجاحظ، وهو ما يسميه البعض بطريقة التنكيت والتبكيت. وكم نود الإكثار عندنا من هذا النمط من الكتابة التي تصل إلى قلب وعقل القارىء بدون تردد ولا استئذان.

حقيقة إن مقالات الحسني محاصرة بالحجم الذي تفسحه الجريدة لصاحبها بخلاف الإبراهيمي الذي كان يطيل الموضوع الواحد حتى يكون له ذنب طويل وتفريعات عديدة، بل كان يملأ الصفحة ثم يكمل مقالته في الصفحة الموالية. كما أن لغة الحسني قريبة من لغة الوقت مما يجعل دارسي تاريخ الأدب والفكر يدركون بسهولة أنها وليدة المرحلة الحاضرة. ولكل مرحلة مفرداتها وموضوعاتها وأسلوبها. وكثراً ما تكون طعنات الحسني مشابهة لطعنات الشيخ الإبراهيمي، ولكن بأدوات زمانه، وأحياناً بكتب قرائه وأقرانه.

2005/12/21

السلطة ومراكز العلم في الجزائر

بعد تحيتكم وشكركم، أقول:

لعلكم تتوقعون مني أن أحدثكم عن العلم والعولمة وما يدور حولها من تعاليق وآراء هذه الأيام، أو عن النهضة التعليمية التي تعيشها بلادنا، حقيقة هي أم مزيفة، أو عن النخبة ودورها في الحياة الثقافية والسياسية. ولكني ربما سأفاجئكم بتحاشي ذلك اليوم.

وبدلاً من ذلك رأيت أن أحدثكم عن المراكز العلمية في الجزائر في الأزمنة الحديثة. ولكن لماذا هذا الموضوع وليس غيره؟ هل هو الهروب من الواقع؟ لا أعتقد ذلك. فمنذ حوالي أسبوعين تحدثت عن (الثقافة العربية في عصر العولمة) وهو الموضوع الذي أسهمت به في دورة مجمع اللغة العربية بالقاهرة لهذا العام (2005). ولعلكم تعرفون أنني قد نشرت مداخلتي منذ حوالي عام عن (العولمة والتاريخ) بمناسبة ذكرى المرحوم مالك بن نبي في إحدى الصحف اليومية. كما نشرت في نفس الصحيفة اليومية مقالتي (جزأرة الجزائر) التي دعوت فيها إلى الرجوع إلى رموزنا الوطنية والتاريخية المنسية.

ومهما كان الأمر فإن المقصود بالمراكز العلمية هو المساجد والزوايا والمدارس التي كانت منتشرة عبر الوطن خلال عهود طويلة، والتي أسهم في إنشائها سياسيون ومحسنون ومثقفون على السواء تطلعاً منهم إلى الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة.

إن هذه المراكز التي نشأت أولاً في عدة عواصم عربية وإسلامية (بغداد،

دمشق، قرطبة، القاهرة، القيروان) على أنها معاهد جامعية للتعلم والبحث، سرعان ما تحولت بفعل التخلف إلى مراكز للمرابطة والعبادة. فإنشاء المساجد والزوايا والمدارس في الجزائر العثمانية مثلاً أصبح وسيلة للتقرب إلى الله وتخليد الذكر واسترضاء الناس وليس لتخريج العلماء والنخب المثقفة التي تقود البلاد وتؤسس للحضارة.

وللأسف نقول هنا إنه بينما أسس جيراننا في فاس مركز إشعاع لهم تمثل في جامع القرويين، وبينما أسس جيراننا في تونس مركز إشعاع لهم تمثل في جامع الزيتونة، بقيت الجزائر عالة على هذين المركزين، كما بقيتْ عالة على الأزهر بمصر والحرمين الشريفين بالحجاز، ولم تؤسس هي لنفسها مركزاً علمياً يحفظ للثقافة العربية الإسلامية وجودها ويدفع بها إلى المزيد من العمق والإبداع.

وللمؤرخ أن يتساءل في هذا النطاق: لو كانت الجزائر سنة 1830 تتوفر على مركز إشعاع تاريخي على غرار الأزهر والزيتونة والقرويين هل كانت تقع فريسة في قبضة الغازي الفرنسي؟ ألم يكن بالإمكان أن تتصدى النخبة المتعلمة للقوات الاستعمارية الغازية وتقود الشعب في اتجاه التحرر والتطور، على غرار ما فعل علماء الأزهر في مصر ضد الحملة الفرنسية، وعلماء الزيتونة والقرويين ضد الاحتلال الفرنسي؟

لقد كان على الجزائر أن تواجه قوات الاحتلال طيلة القرن التاسع عشر الميلادي بقوة المرابطين لا بقوة العلماء، بقوة التصوف لا بقوة العلم، بقوة شيوخ الأعراش لا بقوة أعيان العلماء والفقهاء والمفكرين.

ولست في حاجة إلى تعداد المراكز العلمية التقليدية في الجزائر. فالكل يعرف أن الكتاتيب القرآنية والزوايا والمساجد انتشرت عندنا في كل بلدة، بل في كل قرية وخيمة. ذلك أمر لا غبار عليه ولا يختلف حوله الباحثون وإنما الذي يختلف حوله الباحثون هو مدى فعالية هذه المراكز، هو دورها الثقافي والسياسي

في خدمة الأمة والحضارة والهوية.

لقد كان كرسي المذاهب الأربعة الذي جلس عليه أحد شيوخ مدينة معسكر في أوائل القرن الثالث عشر (التاسع عشر) وهو أبو راس الناصري يؤدي مهمته، كان كرسياً مرفوعاً ليسمع منه هذا الشيخ الحافظ المئات من طلاب العلم الذين تحلقوا من حوله. ولكن أبا راس كان في فكره عالة على العصر وعلى السلطة. كان ملتزماً ـ كما نقول اليوم ـ بالخط الرسمي في الدين والسياسة. فلم يكن في فكره مجدداً ولا ناقداً للسلطة، بالعكس لقد كان مع السلطة ضد من ثاروا عليها.

وكانت زاوية القيطنة موئلاً للمريدين من أتباع الطريقة القادرية يتلقون فيها العلم والبركة الصوفية. وكانت في الزاوية مكتبة قادرة على تثقيف العصاميين أمثال الشاب عبد القادر بن محيي الدين، ولكنها كانت مكتبة منعزلة غير قادرة على بث العلم على أوسع نطاق. فكان على علماء الإقليم الغربي أن يؤموا مازونة أو وهران أو تلمسان أو فاس ليدرسوا في مساجدها باعتبارها حواضر سياسية واقتصادية وليست فقط علمية/ دينية.

هذه الظاهرة نجدها تتكرر في عاصمة البلاد (مدينة الجزائر). فمدرسة القشاش بالعاصمة كانت تؤدي وظيفتها بنشر تعليم محدود في المكان والتأثير. وكان الجامع الكبير بالعاصمة أيضاً يتمتع بسمعة كبيرة في بعض الأوقات جعلته ينافس القرويين والزيتونة، ولا سيما في عهد مدرسين من أمثال سعيد قدورة وابنه محمد، وأحمد بن عمار، ومحمد بن الشاهد.

كما كانت مساجد ومدارس وزوايا قسنطينة تؤدي دورها مدفوعة إلى ذلك بالبركة الصوفية والدعم العلمي من جامع الزيتونة، فكان جامعها الكبير والمدرسة الكتانية ودروس العائلات الكبيرة أمثال ابن الفكون وابن باديس وابن نعمون، والبوني في عنابة تسطع من وقت لآخر. ولكن هذه العائلات كانت عالة على السلطة السياسية إذ يحتمي كل منهما بالآخر خوفاً من العامة أو طمعاً فيها.

وكانت مدن التل وزواوة تتمتع ربما بشخصية علمية أكثر استقلالية لبعدها عن مركز السلطة. لقد قامت الزوايا في هذه المناطق بإخراج العديد من العلماء المستقلين أمثال عبد الرحمن الأخضري والحسين الورتلاني ومحمد بن عبد الرحمن الأزهري، ولذلك ظهرت في هذه المناطق الزعامات المقاومة بعد الاحتلال بطريقة ملفتة للنظر خلافاً للحواضر الواقعة تحت ضغط السلطة السياسية.

ومما يلفت النظر أيضاً في هذا المجال غياب دور العاصمة من حيث التأثير العلمي والاجتماعي. فالقطر الجزائري كان يحتوي على مجموعة من الحواضر أو العواصم، ومن ثمة تعددت فيه قوات الجذب والطرد، ولم يعرف القطر الجزائري لا في العهد العثماني ولا في العهد الاستعماري عاصمة مؤثرة بلغتها وأدبها وفنها وبتقاليدها على المواطنين حيثما كانوا، كما أثرت القاهرة في مصر كلها ودمشق في الشام كله وباريس في فرنسا كلها.

وهكذا، فإنه عندما وقع الاحتلال لم يلاحظ الفرنسيون قلة العلم والمتعلمين عندنا ولكنهم لاحظوا قلة النخبة المركزية. لقد اعترفوا بانتشار التعلم في الكتاتيب والزوايا والمساجد، كما اعترفوا بقلة الأمية في الجزائر. فهم قد وجدوا سلطة سياسية عسكرية ولم يجدوا نخبة متعلمة متجذرة في المجتمع، نخبة متمركزة في العاصمة ولها أتباعها في مختلف الأقاليم: فكان من السهل على المحتلين جمع الجيش الانكشاري في عدة سفن ونفيه إلى مدينة إزمير. كما كان من السهل عليهم إسكات الأصوات القليلة المعارضة، أو المتعاونة معهم على مضض، أمثال حمدان خوجة وابن الكبابطي وابن العنابي. فالمحتلون لم يجدوا جداراً سميكاً من المعارضة وإنما وجدوا حواجز من القصب والخشب لم تلبث أن أنهارت أمامهم.

وهناك ظاهرة أخرى ترتبت على غياب النخبة الفاعلة وهي أنه لا علاقة بين المعارضة والشعب. لقد كانت المعارضة قليلة العدد والفاعلية، وليس لهم ارتباط

عائلي عريق ولا قوة علمية مسموعة ومطاعة. وعندما تحركوا لم يجدوا صدى وسط عامة الناس لأنه لا أحد منهم سبق له الظهور بمظهر القائد الفكري أو العلمي. لقد كانوا مختبئين وراء سلطة ظالمة.

نعم إن عدداً من المثقفين قد اضطروا إلى الهجرة رغبة في العيش أو العلم أو الحرية. فكانت صفوف العلماء في الأقطار العربية الإسلامية قد تضخمت بهجرة علماء الجزائر. وعندما حدثت حرب الاحتلال كانت سبباً آخر في هجرة العلماء مما أدى إلى تفريغ الجزائر من طاقتها الثقافية، بما في ذلك المكتبات.

لم أحدثكم حتى الآن عن الأوقاف (الأحباس) التي كانت المصدر الأساسي لتمويل العلم والتعليم. لم يكن للجزائر، كما في العالم الإسلامي، وزارة للتعليم أو للثقافة. كان التعليم مسؤولية الجميع لأنه جزء من الدين والعبادة. وكان على رأس مؤسسة الوقف نظار ووكلاء وقضاة، وكان المستفيدون منها هم العلماء والطلبة والغرباء، والمراكز العلمية نفسها. (ولا أتكلم هنا عن الوقف الموجه لأغراض أخرى غير التعليم مثل وقف الحرمين الشريفين، والأندلس، والأشراف، والعيون، وافتداء الأسرى، وما إلى ذلك).

هذه الأوقاف الغنية وضع الفرنسيون يدهم عليها غداة الاحتلال وحرموا منها التعليم ومراكزه بدعوى أ نها تستعمل في تمويل المقاومة (تماماً كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية اليوم عندما تعلن عن تجفيف منابع ما تسميه الإرهاب). كما وضع الفرنسيون يدهم على مراكز التعليم نفسها، فالكتاتيب والزوايا والمساجد أصبحت لا تعمل إلا برخصة من مصلحة الشؤون الأهلية التي كان على رأسها في البداية عسكريون (أمثال بيليسييه دي رينو، ويوجين دوما، ولويس رين...) ثم أخذها منهم مستشرقون مدنيون (أمثال دومنيك لوسياني، وجان ميرانت، ولويس ميو...).

وبينما ألغى الاحتلال التعليم الأهلي أبقى على الكتاتيب وبعض الزوايا ولكن تحت المراقبة المشددة، وتمكن من تدجين معظم رجال الزوايا بتزويج

شيوخها من فرنسيات وربط «صداقات» مع الباقين منهم، كما تحكم في تعيين (رجال الدين) في المساجد وحدد لهم إلقاء درسين لعامة الناس: درس في التوحيد ودرس في الفقه (مع حذف كل ما يمت بصلة إلى الجهاد والجزية ونحوهما من أبواب الفقه). وقد منع الفرنسيون توظيف المتخرجين من المعاهد الإسلامية خارج الجزائر لعدم الثقة في ولائهم لهم. وأنشأوا ثلاث مدارس حكومية لتخريج ما تحتاجه الإدارة من القضاة المسلمين، وهي المدارس التي عينوا على رأسها متعلمين جزائريين في البداية ثم وضعوها تحت إدارة مستعربين فرنسيين.

ويجب أن نذكر هنا بأن الفرنسيين أنشأوا بعض المدارس الابتدائية الخاصة بأطفال الأهالي ابتداء من عهد الإمبراطورية الثانية، وهي مدارس ريفية في أغلبها، ولم يدخل المدارس الفرنسية المنشأة لأبناء المستوطنين إلا بعض أبناء الجزائريين الموالين لفرنسا في أغلب الأحيان، أمثال القضاة والقياد والعسكريين.

أما الدفعة القوية التي مست مراكز التعليم فتمثلت فيما سمي بإصلاحات عام 1892، ثم إنشاء جامعة الجزائر (1909) وما سبقها من الكليات وما لحقها من المعاهد التابعة لها أو المتصلة بها، وإذا كانت الجامعة هي مؤسسة فرنسية وسط كتلة ضخمة من الجزائريين فإن مدارس الحركة الإصلاحية بين الحربين كانت مؤسسة جزائرية منافسة وسط كتلة متراصة من الفرنسيين. تلك كانت تسير نحو فرنسة الجزائر وهذه كانت تسير نحو تعريبها. ورغم الفارق الكبير بين إمكانات كل مؤسسة فإنهما كانتا فرسي رهان، سيما خلال الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي.

ويتضح مما سبق أن مراكز العلم في الجزائر كانت دائماً مبتورة، فلم تكتمل لا رعاية ولا نضجا، ولم تشهد تأسيساً تاريخياً يظل على مدى الأجيال يغذي الهوية ويحفظ ثوابت الأمة. لقد كانت في أغلبها «مشاريع» لعلوم الدين أو للأبهة والخلود.

حقاً لقد عرفت بعض العهود التاريخية عناية سلطان ما أو ازدهارَ مؤسسة ما ولكن ذلك كان انتعاشة مؤقتة وسط خمود كبير، أو شهاباً وسط ظلام دامس، يظهر سريعاً وينطفىء سريعاً أيضاً.

وكان المتوقع بعد الاستقلال أن تظهر نخبة واعية تأخذ على عاتقها تصحيح هذا الخطأ التاريخي وتؤسس للأجيال ما فقدته عبر عصور كاملة. ولكن الذي حدث بعد الاستقلال هو أننا دخلنا الميدان بما لدينا من معارف مبتورة أيضاً، معارف كنا أخذناها في زمن فرضت علينا فيه فرضاً ولم نخترها عن دراية وتخطيط. ثم أخذنا نتخبط رافعين شعارات هوجاء لا معنى لها إلا في قاموس الديماغوجية السياسية، مثل (المحافظة على الثوابت، والإسلام دين الدولة، واسترجاع الشخصية الوطنية...). وها نحن أخيراً رفعنا شعارات جديدة لا تختلف كثيراً عن القديمة التي لم نعد نسمع بها وهي: ما بعد الحداثة، والعولمة، وحوار الحضارات، ومسايرة العصر، ومكافحة الإرهاب، والفوز بغنيمة الحرب، والتعامل مع القطب الواحد من موقع الخوف منه... وأصبحنا نطبق برامج وقائية، أي قبل أن تصلنا التعليمات الحقيقية من هذه الجهة أو تلك.

وفي نظري أننا نكرر اليوم أخطاء الماضي. انظروا إلى هذا السيل الجارف من الجامعات التي تظهر عبر الوطن. إننا نفتحها بدون بنايات جامعية حقيقية، وبدون أساتذة مؤهلين، وبدون مكتبات ولا مخابر ولا حاسبات. إنها مراكز علم بدون وصاية صارمة تسهر على رعايتها حتى تبلغ سن الرشد.

ولعل أكبر خطأ نرتكبه في حق الوطن، بل ربما أكبر جناية نقترفها نحوه، هو جعل كل جامعة أو مركز جامعي مكتفياً بذاته محلياً بأساتذته وطلابه. وبذلك نكون قد ساهمنا في تكريس النزعة الإقليمية والمحلية الضيقة، كما نكون قد حصرنا العلم في مواقع متباعدة تشبه واحات الصحراء أو جزر المحيط، فليس بين أساتذة وطلبة الوطن الواحد لقاءات دائمة تؤدي إلى تبادل الخبرات وتلاقح الأفكار.

فإلى متى سنستمر في السير على هذا المنوال؟ وإلى متى ستظل الجزائر بدون مراكز علمية فاعلة تتمثل فيها تجارب الأجداد وطموحات الأحفاد؟ ذلك شأن يحيرني، وأرجو أن يحيركم أيضاً.

وشكراً على حسن الإصغاء والاهتمام(*).

15 فبراير 2005

(*) هذه الكلمة ألقيت مع بعض التصرف في جامعة وهران يوم 17 أبريل، وفي المركز الجامعي بالوادي يوم 27 منه، وفي جامعة باتنة يوم 3 مايو، 2005.

ندوة الشيخ التليلي

بعد شكر القائمين على الندوة والحاضرين لها، قلت:

لا يمكنني ـ ما دمت قادراً أن تقام ندوة عن الشيخ التليلي ولا أحضرها. فقد كان رجلاً يحب الجزائر كلها، ويدرك معنى الوطنية والمصلحة العامة. وكانت رسالته هي خدمة الجزائر والإسلام واللغة العربية، وكل معاناته في حياته كانت من أجل هذه الثوابت منذ تخرج من جامع الزيتونة إلى أن فارق الحياة.

وكان الشيخ التليلي يحب سوف وأهلها أيضاً، فهو ينتسب إليها إذا كتب رسالة أو كتاباً فيقول (السوفي)، وهو يبحث عن أخبار سوف في بطون الكتب وسطور الرسائل وأخبار الرواة. وقد دون حياة وأخبار علمائها وأحداثها ومشاركتها في الحركة الوطنية ونشاط أهلها في عقر دارهم أو خارج منطقتهم.

وبنفس القدر كان الشيخ يحب مسقط رأسه (قمار) وينسب نفسه إليها فيقول (القماري)، وهو يطلق عليها (قرية) أو (بلدة) وكأنه يتغزل فيها، ويخصها بالاهتمام ويتسقط أخبارها فيما كتب عن سوف أو الصحراء أو بلاد المغرب أو المشرق. وكان يعتب على بعض أهلها ظلمهم وأذيتهم له أحياناً. ولكنه لا ينفك عن خدمتها بالعلم والتدريس والتنويه بعلمائها.

إن الشيخ الطاهر التليلي «عالم» بالمعنى التقليدي للكلمة، فهو فقيه وأديب وراوية وحافظ. وكان يحب بث العلم بين الناس على قدر عقولهم أو مستوياتهم، ولكنه بنفس الدرجة كان يحب التأليف والتدوين عن طريق النسخ. ولو عاش الشيخ في مدينة كبيرة وخالط وسطاً ثقافياً أو جامعياً لترك عدة مؤلفات

وموسوعات ذات قيمة كبيرة ولكانت مساهمته ربما في مستوى عالمي، لأن له من الموهبة والذكاء والهمة القعساء ما يجعله يبلغ السماكين. ومع ذلك يمكن أن نعتبره أكثر أهل منطقته (سوف) تأليفاً.

فن التراجم عند الشيخ التليلي

منذ بدأ الشيخ محمد الطاهر التليلي التأليف ظهر عليه الميل إلى كتابة التراجم، وهو علم تفوق فيه العلماء المسلمون دون غيرهم، وعدوه فرعاً من التاريخ. بدأ بتدوين الوفيات والمواليد والسير المختصرة للأعيان والعلماء والأنبياء والصحابة والتابعين، ويمكن إلحاق الحوليات وسجلات الحوادث في هذا الباب ـ باب السير والتراجم. فالشيخ يظهر في هذا العلم وكأنه يعد موسوعة أو قاموس أعلام.

وهذه المدوّنات نجدها تارة في دفتر واحد وتارة في دفاتر متعددة. مثلاً هناك مجموع يضم علماء قمار، وهناك الكشكول الذي ترجم فيه لأعلام من الجزائر ومن تونس. وهو عمل جامع لأسماء وتواريخ، ويشمل التاريخين الهجري والميلادي مع إحساس خاص بالفلك الذي يعتبر من اهتماماته أيضاً.

كما نجد للشيخ دفاتر تخص فرداً واحداً مثل (حياة الشيخ خليفة بن حسن) أو حياة أفراد مثل (تراجم علماء قمار)، وهو دفتر يضم حوالي ثماني عشرة ترجمة. وقد وعد بوضع تأليف عن شعراء قمار وحدهم، وأحياناً بوضع ترجمة لشيخ (عالم) ترك أثراً علمياً مثل إبراهيم العوامر صاحب كتاب الصروف، ومحمد العدواني صاحب التاريخ المعروف، ومحمد العروسي صاحب المخدرة. فتراجم هؤلاء جاءت عند الشيخ عرضا أثناء الحديث عن آثارهم.

ولا بد لكتابة الترجمة من مصادر، ولذلك فإن الشيخ طالما اشتكى من شح المصادر لتراجمه وعاتب من له أثر أو وثيقة عن عالم أو شاعر ولم يقدمها له ليستفيد منها، لأنه في الحقيقة يخلد صاحب الأثر والوثيقة. ومع ذلك كان

يلتقط أخبار ضالته من الأبناء إن كانوا، أو من الأصدقاء والزملاء والأقارب لصاحب الوثيقة، أو من المراسلات مع من له صلة بهم، أو من وثائق عنهم وجدها عند هذا أو ذاك، وأحياناً يكون المصدر هو الخبر المتواتر فقط، أي الخبر الشائع بين الناس عن فلان الذي يريد أن يكتب عنه.

ولكن الشيخ كان يحتاط في كل ذلك، فهو يملك حاسة النقد والشك في المعلومة حتى فيما شاع بين الناس وتواتر. فهو لا يقبل الأخبار على علاتها. بل كان يخضعها لحكم العقل، ومبدأ الشك، فالمادح قد يكون بريئاً وكذلك القادح. ولا تخدع الشيخ المحسنات ولا التمويهات، وإنما كان يورد الخبر كما جاءه أو عرفه ثم يستدرك عليه بعبارات تدل على شكه فيما روى له أو نقله عن الآخرين مثل (هكذا وجدته)، (هذا ما رواه لي فلان) و(الله أعلم بالحقيقة)، و(ما آفة الأخبار إلا رواتها).

ومذهب الشك الذي يدين به الشيخ التليلي جعله لا يسلم في قضية أو خبر تسليماً مطلقاً. فهو بالطبع متشائم، وحكمه على الإنسان يتلخص في أنه شرير أو بالأحرى تتغلب فيه طبيعة الشر على طبيعة الخير. ولذلك يجب الحذر منه، والتعامل معه يجب أن ينطلق من الخوف منه. وعنده أنه لو كان الإنسان خيراً بالطبع لما احتاج إلى الأنبياء والهداة ولا إلى العقاب والوعد بالثواب إن فعل الخير. إن الشيخ يعرف أن أغلب الناس يعملون بالقول (البس لكل حالة لبوسها)، وهذا في نظره منتهى النفاق والرياء. وهو أقرب في فلسفته إلى فلسفة المعري في عدم ثقته بالإنسان ولو كان من الزاهدين في الدنيا، ولسان حال الشيخ يردد مع المتنبي:

ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس، رَوَّى رمحه غبر راحم

فلا هو مرحوم إذا ظفروا به ... ولا في الردى الجاري عليكم بآثم

أو قوله أيضاً:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

ومع ذلك، ففي تراجم الشيخ إقرار لأهل الخير بخيرهم ولأهل الشر بشرهم. فحسب معرفتنا به وبهم فإنه لا يحمل حقداً لأحد منهم، رغم أنه أوذي كثيراً من بعضهم. وكأنه لا يكتب عن حاضرهم وإنما يكتب عنهم لمن سيأتي بروح متجردة من كل حس عدائي ومن تعصب أو هوى، كالذي يكون بين الزملاء والمتعاصرين المتنافسين، وكأنه لا يؤمن بالمثل القائل (المعاصرة حجاب).

ترجم الشيخ لأفراد من جيل تقدم عليه، فهو يعرفه بالدراسة عليه أو بالسماع عنه من طلاب العلم، كما ترجم لأناس من جيله. ورغم أنه يعزو قصر حياتهم إلى نقص في المعلومات عنهم، فإن الواقع أن حياتهم قصيرة بالمعنى السلبي ـ أي عدم تركهم أثراً يخلدهم في التاريخ ويبقى على ذكرهم بين الأجيال.

يقول الشيخ عن مجموعه في تراجم علماء قمار «ذكرت في هذا السفر ما عثرت عليه من كلمات عن حياة بعض علماء قمار، وهي نبذ قليلة وقصيرة بالنسبة لحياتهم الكاملة. والمانع من استيفاء المطلوب عدة أمور، منها بخل أبناء المترجم بعلم عن إمدادنا بالمعلومات اللازمة التي تتعلق بحياة ذويهم من علماء قمار وطلبتها».

لا نحتاج إلى ذكر الثماني عشر ترجمة التي أوردها الشيخ في هذه النبذة. فهي مذكورة كيفما اتفق دون ترتيب أبجدي أو موضوعي، ولا حسب الوفيات أو الولادات كما كان يفعل القدماء. أما العصر فكل تراجم الشيخ ترجع إلى القرن العشرين، وحتى الذين ولدوا وسط القرن الثالث عشر كانت وفاتهم عشية الحرب العالمية الأولى، ما عدا الشيخ خليفة بن حسن، وكذلك جده الشيخ قاسم التليلي.

ومن الأكيد أن النبذة تعني ترجمة مختصرة لكل عالم، والاختصار يمنع من ذكر الشواهد والاستطراد، ولكننا نعلم أن للشيخ تراجم أخرى مطولة إلى

حد ما بينما ذكر في المطولات شواهد من النثر والشعر.

عندما مر زائر بقمار وقرر ترميم قبر الشيخ خليفة بن حسن وقبر أحمد دغمان قال الشيخ التليل بعد إيراد الخبر: «جزاه الله على نيته وصفاء طويته». ولم يقل هذا عمل حسن أو سيء أو أنه يتفق مع السنة أو لا يتفق معها.

أما عن الشيخ محمد البرية المعروف (الزبيري) فقد قال، وهو يتحدث عن كونه يذهب ويجيء بين قمار وتماسين مع أهل الزاوية التجانية: «وكان بحكم وظيفته لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر إلا في السر ومع قوم يريدون ذلك». كما قال عن الزبيري أيضاً إنه كان أديباً مغموراً، وعالماً مهجوراً، وكنزاً مطموراً، فلم نجد له من القصائد إلا ما جاد به هو علينا».

ومن جهة أخرى تحدث الشيخ التليلي عن دار القاضي عبد الغني الجلالي التي أصبحت بمثابة (نادي الشباب) يؤمه الأدباء الذين منهم الزبيري ومحمد بن الخوصي، وهو يحتوي مجلساً للشعر والأدب والمطارحات. كما أن الرجلين (الزبيري وابن الخوصي) كانا يعلمان القرآن الكريم ويبثان العلم في الزاوية (التجانية) وكانا صديقين لا يكادان يفترقان.

وأضاف عن الزبيري أن قايد (حاكم) البلدة قطع عليه راتبه كمدرس رسمي. فقضى آخر أيامه منعزلاً عن العامة والخاصة لا يفكر في أحد ولا يفكر فيه أحد. وقال عنه إنه بدأ حياته بالفلاحة والخياطة، ثم أشير عليه بالعلم والادب، فتم له ذلك.

أما ابن الخوصي فقد كان مدرساً في الزاوية، أديباً، من أهل نادي الشباب. «ثم أولته الأيام ظهرها وعبس الزمان في وجهه فعجز عن الكسب في بلدة قمار فهاجرها إلى تونس مؤدباً للصبيان» فيها مدة ثماني سنوات. ثم رجع إلى قمار. «وقد لازمه المرض فباع عقاره وباع كتبه وكل ما هو عزيز عليه» وقد وضعه الشيخ التليلي ضمن من سيكتب عنهم في تأليفه الموعود شعراء قمار.

وقد قدر عمار بن الأزعر تقديراً خاصاً، فهو عنده زعيم الإصلاح في

سوف، تخرج من جامع الزيتونة في تونس. وجاء قومه في بلدة قمار فنشر فيهم العلم والفكر الإصلاحي، وبلغ صيته إلى أطراف سوف حتى «القي في ذلك معارضة من طرف أذناب البلدة ومن أولئك الذين لا يحبون الخير لبلادهم. أو لا يرون هذا الإصلاح من الخير، وبقي في المقاومة وصد المعارضة مدة تنوف على عشر سنوات. ثم هاجر إلى المدينة المنورة». هكذا سار الشيخ التليلي مع الياجوري وعلي بن سعد، وغيرهما.

وبعد أن ترجم لعمار بن الأزعر مما يعرفه عنه ومما قرأه عنه في مجلة المنهل السعودية. وهو ترجمة الأزعر لنفسه. قال الشيخ التليلي: «ونحن نقول: لا عطر بعد عروس، وأحق ما يؤخذ به المرء إقراره على نفسه. فإن احببت أكثر من هذا وأطول فعليك بما كتبته أنا في (الكشكول) وبما كتبه صاحب المجلة المذكورة في مجلته».

وهكذا كان يترجم لكل شيخ أو عالم بما فيه أو بما عرفه عنه من الوثائق أو من شهادة الشهود. كما يذكر كيف تقلبت الحياة بالمترجم له. ومنهم زملاؤه الشيوخ عبد القادر الياجوري والحفناوي هالي وعلي بن سعد.

مثقفو المغرب العربي وأزمة الاتحاد المغاربي

نقصد بالمثقفين تلك النخبة الواعية المتجردة من المصالح الشخصية والمنتمية للفكر وليس للسياسة وللمجتمع ولس لحزب من الأحزاب. ومن ثمة فنحن نعني بهم غير السياسيين أو المتحزبين الذين لهم ولاءات ضيقة، أي الكتّاب بجميع أطيافهم وأصحاب المهن الحرة كالمحامين والأطباء والأساتذة والطلبة والفنانين والصحفيين الأحرار على اختلاف مشاربهم. أين هؤلاء جميعاً من تعطيل مسار اتحاد المغرب العربي وكل المشاريع ذات الهدف الوحدوي والاستراتيجي والمتجهة إلى جمع الشمل والعمل المشترك لخدمة شعب المنطقة والأجيال القادمة؟

إننا نشهد منذ سنوات جموداً في مسيرة الاتحاد بسبب سوء التفاهم بين الجزائر والمغرب حول مصير الصحراء الغربية، وأحياناً بسبب توتر علاقات بين مسؤولين من هذا البلد أو ذاك مما ليس له علاقة بالقضايا الكبرى التي تهم جميع أهل المنطقة المغاربية. نشهد نزوات فردية وعلاقات شخصية بين المسؤولين تؤدي إلى قطع العلاقات أو تجميدها وكأن مصير المنطقة أصبح بيد أفراد يغضبون ويرضون متى شاؤوا، بينما الشعب يتفرج أو يتضايق ولا أحد يأخذه في الاعتبار وكأنه غير معني بما يفعلون.

أما المثقفون الذين يفترض فيهم الحكمة والقيادة والإرشاد إلى المصلحة العامة والتنبيه على نقاط الخطر، فهم صامتون أو موالون لنظام البلد الذي يحكمون منه أو معارضون له ولكن في خوف من الانتقام والتصنيف غير

المنصف. أما آن لهذه الفئة أن تتجاوب وتتحرك، أفراداً ومنظمات، لإبداء رأيها فيما يحفظ مسيرة الوحدة والتقدم في المنطقة؟ إن هذه الفئة هي التي يفترض فيها أنها تدرك دور المثقفين والمتنورين في البلدان الأوروبية ـ مثلاً ـ، وكيف تفرق بين السياسة الآنية والمصالح الإستراتيجية؟ وهي التي تتجاوز الحاضر إلى المستقبل وتؤسس لهذا المستقبل الذي تسعد فيه شعوب المنطقة بأسرها.

إن حكام المنطقة يريدون من المثقفين أن يكونوا إلى جانبهم فيما يتخذونه من قرارات ومواقف صائبة أو خاطئة، ولا يتحملون مقولة الحق إذا كان رأيهم خاطئاً. والحاكم، مهما كان عبقرياً، لا يستغني عن البطانة وعن الرأي العام، ولكنه إذا وجد الطريق إلى تعبئة الرأي العام مهيئاً إلى جانبه فإنه لا يتردد في استعمال مختلف الوسائل للحصول على التعبئة. ومهمة المثقفين في هذه الحالة أن يكونوا صوت الشعب وصوت المصلحة العامة وليس صوت الحاكم الغاضب أو المناور أو الواقع تحت ضغط جهات خارجية.

ولن يتم ذلك إلا إذا تسلح المثقفون بالشجاعة على قول الحق أمام الحاكم إذا جار، وكانت لهم مؤسسة تجمع شملهم وتوحد صوتهم وتنزههم عن السفه الذي يجعل منهم بدل الشموع أبواقاً.

فهل توفرت الشجاعة والمؤسسة للمثقفين المغاربة، أما الشجاعة فإننا نكاد نجزم بأن المثقف المغاربي لا تعوزه، فهو تاريخياً كان في طليعة المتشبثين بقناعته ولو جعلوا الشمس في يمينه والقمر في يساره. وأما المؤسسة فهي غير متوفرة الآن. فالمثقفون للأسف متشرذمون داخل بلدانهم وعلى مستوى بلاد المغرب كلها. وقد أغلق الحكام حدود كل بلد حتى لا يعرف مثقف نظيره ولا يشتكي صاحب فكرة إلى زميله. وكلما طال العهد على هذه الحال ازداد جهل المثقفين ببعضهم وازداد التنكر للماضي وغابت القضايا الجامعة وحلت محلها الخصوصيات والرغبات الضيقة.

لقد قدم لنا تاريخ المنطقة نماذج حية وخالدة كان للمثقفين فيها دور

إيجابي حاسم. خذ مثلاً تعاون ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي على المستوى الثقافي والفكري، وهو التعاون الذي تولدت عنه دولة قوية، كان للمثقفين فيها النصيب الأوفر. وخذ تعاون الجزولية مع الأشراف الذي أدى إلى قيام دولة أنقذت المغرب وطردت الدخيل من المنطقة. وخذ دعم المثقفين (الفقهاء) للإمام سحنون، الذين لولاهم لانهزم المذهب المالكي. ومثل هذا الموقف نجده في التفاف المثقفين حول الأمير عبد القادر لمقاومة المحتل. أما التعاون الذي نريده اليوم فهو التجمعات والتنظيمات التي نشأت منذ الحرب العالمية الأولى، تحت شعارات وحدوية من حزبية وطلابية وسياسية كانت بدايتها نجم شمال إفريقيا وآخرها مؤتمر طنجة 1958. وإذا وسعنا الدائرة وألممنا بجميع الأطراف فإننا نشير بذلك إلى التفاف المثقفين المغاربة والعرب حول الثورة الجزائرية مما جعلها تنتصر على أعدائها.

كم نحن في حاجة اليوم إلى حركات جماعية مدنية وسياسية وفكرية تضغط باتجاه العمل الوحدوي في المنطقة، وتدعو إلى إزالة الحواجز الحدودية وفتح خطوط السكة الحديدة التي كانت مقرّبة في زمن الاحتلال فأصبحت مبعدة في زمن الاستقلال، وكم نريد تنقل البضائع والكتب عبر الحدود والاكتفاء عندها بالاستظهار بالهويات بدل الأوراق المعجزة والرشاوى المكلفة. أين اتحاد كتاب المغرب العربي، أين اتحاد طلاب المغرب العربي، أين اتحاد الناشرين واتحاد الفنانين، والرياضيين والتجار والطيارين... لماذا لا يعمل - كل في مجاله - على إنجاز الوحدة، والضغط على أولي الأمر في هذا الاتجاه.

إن جيلنا كان يتطلع إلى أن نعيش هذه الأيام في بحبوحة الوحدة التي طالما رفع قادتنا شعارها وتغنى بها منشدو أناشيدنا زمن الاستعمار. نحن نتحدث في مناسبات متعددة عن وحدة الأصل ووحدة الدين ووحدة الثقافة ووحدة التاريخ والآمال والمصير. فأين ذلك كله على أرض الواقع اليوم؟ إن بعض مثقفينا قد جعلوا من وحدة المغرب العربي (عقيدة) عاشوا وتمثلوا بها كما فعل عبد الحميد بن باديس وعبد العزيز الثعالبي وعبد الكريم الخطابي

وسليمان الباروني، وكما فعل ابن تومرت (مفدي زكرياء) الذي جسدها في شعره في الجزائر وتونس والمغرب وليبيا، وكان في الواقع يعبر عن شعور وتطلعات رعيل من المثقفين لم نعد نسمع عنهم إلا قليلاً وعلى المستوى المحلي فقط.

ولطالما كان المثقفون المغاربة عبر التاريخ لا يعرفون الحدود. فالبلاطات والمساجد والزوايا والطرق الصوفية وقوافل الحج كانت مفتوحة أمام العلماء والزهاد والفقهاء والأدباء والرحالة والمؤرخين... فلماذا هذا التقوقع اليوم على مستوى المغرب العربي بينما الانفتاح الكامل على المستوى الدولي باسم العولمة، وهو الانفتاح الذي وصل إلى حد إقامة تحالف غير مقدس مع أعداء الإسلام لمكافحة الإرهاب (الإسلامي).

إذا كانت قضية الصحراء حقاً حجر عثرة في طريق بعث اتحاد المغرب العربي فلنبحث لها عن حل، فإذا كان المفتاح في يد المغرب والبوليزاريو فلنساعدهما على التوصل إلى حل يرضي الطرفين وينهي النزاع، وإذا كانت المفتاح في يد المغرب والجزائر فلنسع لكي يتوصلا إلى اتفاق يفتح آفاق الاتحاد ويعيد المياه إلى مجاريها بين شعبين شقيقين. وإذا كان الحل بين جميع أطراف الاتحاد فليكن لنا دور في دفع هذه الأطراف إلى التلاقي والتداول والخروج بنتيجة لصالح الجميع وليس لصالح طرف على حساب آخر.

إن سد الذرائع في وجه تدخل خارجي يريد فرض حل على حكام المنطقة يعتبر انحرافاً غير مقبول في نظر المثقفين. لقد حلت الدول الناضجة حضارياً قضايا أكثر تعقيداً من قضية الصحراء دون تدخل أية جهة أجنبية، فلماذا ننتظر نحن فرض حل علينا ليس في صالحنا بالتأكيد لأنه قد يؤدي بنا إلى زيادة التباعد لا التقارب، ونكون فيه مجرد أدوات لتنفيذ مخطط ليس في صالح شعوبنا. إن النضج الحضاري يقتضي منا ومن حكام منطقتنا أن نعالج قضايانا الحساسة بكل مسؤولية ونترفّع عن المحليات والصغائر، وعلينا ألا ننظر إلى القضية بنظرة

(ميكيافيلية) لا تخضع لدين ولا أخلاق ولكن بنظرة المنفعة المشتركة طبقاً لمبادىء ديننا وحضارتنا ومصلحة الأجيال.

فلتكن لدينا عبرة في نظرية ابن خلدون وابن الأزرق وغيرهما من مفكري هذه المنطقة التي جربت فوائد الاتحاد وخسائر الاختلاف. فقد قدم لنا هؤلاء منهج الحكم الراشد ومزالق الحكم الفاسد. ولو كانوا معنا اليوم لاستنتجوا استنتاجات لا تختلف كثيراً عن واقع بني مرين وبني زيان وبني حفص وبني نصر ولاستغربوا منا كيف لم نتعلم الدرس من التاريخ البعيد وهو قريب. وكيف تتوحد إسبانيا وإيطاليا وفرنسا ويبقى شمال إفريقيا دويلات مشتتة عرضة للابتلاع والتقسيم. ما الفائدة أن نلقن أبناءنا في المدارس سقوط غرناطة سنة 1492 والجزائر سنة 1830 ثم لا نفعل نحن شيئاً اليوم قبل أن تسقط عواصم أخرى جديدة مثل بغداد وكابل. لقد بكى أبو البقاء الرندي غرناطة واستبكى، وبكى ابن الشاهد سقوط الجزائر واستبكى، وندب شعراء آخرون سقوط فاس وتونس وشنقيط وطرابلس، فلماذا نخون دموعهم بعد أن أصبح كل قطر من أقطارنا يتمتع بالسيادة والاستقلال؟ هل ننتظر أن تفرض علينا أمريكا أو فرنسا أو إسبانيا حلا لقضية الصحراء أو فتحاً للحدود أو لقاء بين عاهلين؟ إذن بئست الحياة حياتنا وشلت يمين قادتنا![1]

19 أكتوبر 2005

(1) نشرت في الشروق اليومي، تاريخ 27 أكتوبر 2005.

بين مصر والمغرب العربي

أيها الحضور الكرام

يسعدني أن أكون بينكم اليوم لأسهم بمداخلة قصيرة في ندوتكم الكريمة. وأبدأ بالإشارة إلى العنوان. إن مصر نفسها من شمال إفريقيا، وربما نظر الذين اختاروا هذا العنوان إلى الخريطة قبل الفتح الإسلامي. ذلك أن المكتشفات تثبت أن العلاقة بين مصر وشمال إفريقيا ترجع إلى عهود سحيقة قبل الفتح.

أما منذ الفتح فالعلاقة أصبحت مع المغرب الإسلامي أو بلاد المغرب أو مع المغرب العربي، كما أصبح معروفاً منذ حوالي 1947. ولدينا اليوم أناس متأثرون بالنظريات الفرنسية (ولا سيما نظرية إيميل فيليكس غوتييه) لا يريدون سماع كلمة (عربي) ولا كلمة (إسلامي) في وصف المنطقة. ومع ذلك فنحن هنا نحبذ استعمال تعبير بلاد المغرب القديم لفترة ما قبل الفتح والمغرب الإسلامي منذ الفتح، والمغرب العربي للفترة المعاصرة احتراماً لاختيار الأجداد وتمشياً مع التطور في الاستعمال حسب مقتضيات كل عصر.

والمستعرض للتاريخ خلال الخمسة عشر قرناً السابقة يكفيه أن يجزم بتوطد العلاقات التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية بين مصر وبلاد المغرب. فالفتح الإسلامي لهذه البلاد انطلق من مصر وإدارتها كانت مسؤولة عن إدارة المغرب الإسلامي فترة من الوقت. وكانت جيوش الفتح تضم مسلمين من مصر وغيرها. وبعد استتباب الأمور في بلاد المغرب والأندلس انتقلت المذاهب والأفكار سواء من مصر مباشرة أو عبرها من المدينة المنورة إلى بلاد

المغرب. ومن هذه المذاهب والنحل: الأشراف الأدارسة والخوارج والإسماعيلية، إضافة إلى المذهب المالكي والحنفي وغيرهما. وبينما أرسلت بلاد المغرب جيشاً إلى مصر لدعم الفاطميين أرسلت مصر جيشاً لدعم المالكية يتكون من بني هلال وبني سليم، وهو الجيش الذي أسهم في نفس الوقت في نشر اللغة العربية في ربوع المغرب الإسلامي.

كان المغاربة طيلة العهد المملوكي وما بعده ينبهرون كلما حلوا بمصر. ولعل عبارات ابن خلدون في وصف القاهرة عندما نزلها أول مرة لا تغيب عن كل مثقف، فهي في نظره أم الدنيا ومركز الخلافة وبستان الحضارة. وقد تبعه في ذلك من لحقه فيها حاجاً أو طالب علم أو زائراً أو لاجئاً. . . سواء كان ذلك في القرن الرابع عشر الميلادي أو في القرن العشرين. وكان بعض الحجاج والعلماء والطلبة والتجار يطيلون الإقامة في مصر أو يستوطنونها، وهؤلاء هم الذين أصبحوا جالية معتبرة سكنت القاهرة والإسكندرية ورشيد، وأصبحوا مواطنين بعد الاختلاط بأهل مصر بالمصاهرة وغيرها. وليس بوسعنا تتبع هذه العلاقة هنا بالتفصيل. وحسبنا أن نشير إلى العناوين البارزة فقط، مع ملاحظة أن كل عنوان يصلح أن يكون بحثاً مستقبلاً.

وسواء أكان الحج براً أم بحراً فإن المغاربة كانوا ينزلون مصر ويزورون القاهرة، ويرتاد علماؤهم الأزهر، وينضم بعضهم إلى ركب الحج المصري أو المحمل، وكان كبراؤهم يلقون الحفاوة والتبجيل من حكام مصر الذين يستقبلون الأمراء والعلماء المغاربة ويهادونهم ويحادثونهم ثم يودعونهم بالتجلة والاحترام. وكان علماء المغاربة يسجلون مشاهداتهم ومروياتهم في رحلات أصبحت في العصور التالية مصدراً لا غنى عنه لفهم تاريخ مصر الاجتماعي والعمراني والثقافي وحتى السياسي. ومن لا يذكر اليوم رحلات ابن بطوطة والعياشي والورتلاني والزياني وغيرهم؟ في الجانب العلمي نجد الطلبة المغاربة يقصدون مراكز العلم في مصر ولا سيما الأزهر، وقد كان لهم رواق باسمهم معروف منذ القديم يجدون فيه حاجاتهم المادية. وقد تحدث عنه الجبرتي في تاريخه.

وكان طلب العلم أحد الأسباب التي حدت بهم إلى الجلوس في حلقات الدرس والتتلمذ على مشائخ طالما سمعوا عنهم من قبل. وبعد الإقامة اللازمة كانوا يحصلون على الإجازات في علوم شتى ثم يعودون، ولا يكونون مقبولين عادة في بلدانهم علمياً إلا إذا حملوا معهم الإجازات ممهورة بأختام شيوخ مشهود لهم بالعلم. وهناك أسماء كثيرة سجلها أصحاب التراجم لطلبة العلم، أو سجلوها بأنفسهم في مذكراتهم: عيسى الثعالبي وأبو سالم العياشي ومحمد بن الأمين وأبو راس الناصري وحمودة المقايسي ويحيى الشاوي ومحمد بن العنابي... وكان البعض منهم يتخذ مصر معبراً مثل أبي الفضل المشدالي، وأحمد أبو عصيدة البجائي وأحمد المقري. وقد تزوج الطبيب عبد الرزاق بن حمادوش وأقام بمدينة رشيد يبحث في الأعشاب والمواد الصيدلية. أما ابن خلدون فقد تولى القضاء في القاهرة وتوفى بها، كما هو معروف.

ومن قرأ حياة الزهاد والمتصوفة يعرف أن المغرب الإسلامي قد أسهم في حركة التصوف بنشر الطريقة الشاذلية (أبو الحسن الشاذلي) على يد الشيخ أحمد المرسي، كما انتشرت الطريقة التيجانية في وقت لاحق. بينما أثرت الطريقة الخلوتية (أو الحفنية، نسبة إلى أبي سالم الحفناوي الخلوتي) في المغرب الإسلامي، فكان تلميذه محمد بن عبد الرحمن الجزائري الأصل قد امتثل أَوامرَ شبخه الحفناوي فنشر الطريقة الخلوتية أولاً في السودان ثم في الجزائر (نهاية القرن 18) حيث أصبحت تعرف بالطريقة الرحمانية، وهي الطريقة التي كان لها دور رئيسي في نشر العلم ومكافحة الاستعمار الفرنسي طيلة القرن 19. ومنها أيضاً الطريقة الأحمدية نسبة إلى الشيخ أحمد البدوي القادم من المغرب (مراكش).

ولأسباب سياسية لجأ إلى مصر عدد من الجزائريين (والمغاربة عموماً) ولا سيما منذ 1830 وهو تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر. فقد لجأ إليها الأمير عبد الكريم الخطابي وعدد آخر من زعماء مراكش (المغرب حالياً) منهم علال الفاسي وابن عبود وعبد الخالق الطريس وآخرون تطول القائمة بذكرهم. ومن تونس لجأ إلى القاهرة عبد العزيز الثعالبي ومحمد الخضر حسين والحبيب

بورقيبة والحبيب ثامر، وصالح بن يوسف وآخرون. أما من الجزائر فقد نزل بمصر الشيخان الفضل الورتلاني ومحمد البشير الإبراهيمي، والشاذلي المكي، ثم بعض زعماء الثورة التحريرية أمثال ابن بلة ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد. ثم تكاثر عدد القادة الجزائريين خلال الخمسينات حيث كانت مصر مقراً للوفد الخارجي لجبهة التحرير. وفي مصر أيضاً تكونت جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا سنة 1942، ومكتب تحرير المغرب العربي سنة 1947، ونادى طلبة المغرب العربي حوالي سنة 1956.

ومن جهة أخرى كانت فرنسا قد أجبرت عدداً من الجزائريين على الهجرة إلى مصر فنزلوا الإسكندرية حيث عاشوا إلى أن توفاهم الله. ومن هؤلاء الباي السابق لغرب الجزائر (وهران) والباي السابق لوسطها (التيطري)، وهما على التوالي حسن بن موسى ومصطفى أبو مزراق. ثم لحق بهما الداي حسين باشا وهو آخر الدايات الذين حكموا الجزائر في العهد العثماني، حيث توفى في الإسكندرية سنة 1838. كما حل بمصر عالمان شهيران في وقتهما وهما محمد بن العنابي الذي ولاه محمد علي الفتوى والتدريس بالإسكندرية والذي ترك مؤلفات في الإصلاح السياسي والعسكري، وزميله القاضي مصطفى الكبابطي الذي نفاه الفرنسيون لمعارضته تدريس اللغة الفرنسية في الكتاتيب القرآنية، وهو فقيه وأديب، وكان له أتباع وتلاميذ في الجزائر ومصر، وقد أقام الكبابطي في الإسكندرية وتوفى بها سنة 1860.

وهناك من هاجر إلى مصر لأسباب تبدو شخصية مثل محمد بيرم الخامس، رفيق خير الدين باشا التونسي في السياسة والإصلاح، وصاحب الرحلة الموسومة بـ (صفوة الاعتبار). وقد أنشأ محمد بيرم في مصر جريدة البرهان، وتوفي بها حوالي 1889. وكذلك محمد الخضر حسين الذي نزل مصر من تونس وهو الذي أنشأ مجلة (الهداية الإسلامية) وأصبح عضواً في هيئة كبار العلماء، وتولى في عهد الثورة المصرية مشيخة الأزهر الشريف. وقبل هذين العالمين حل بالقاهرة محمد بن عمر التونسي صاحب كتاب (تشحيذ الأذهان)

الذي أصبح خبيراً في شؤون السودان، وهو الذي استفاد علماء الفرنسيين في مصر من خبرته وترجموا كتابه، وكان صديقاً للدكتور نيقولا بيرون الفرنسي مدير مدرسة الطب المصرية في عهد محمد علي.

وعندما ندخل باب زيارات المغاربة لمصر تطول بنا القائمة. ونحن نقصد بالزيارات العابرة التي ليست مقصودة لغرض من الأغراض المذكورة آنفاً على أغلب الظن. فالأمير عبد القادر ووالده زارا مصر حوالي سنة 1827، وكانا في طريقهما إلى الحج وقد حظيا، وكذلك باي قسنطينة الحاج أحمد، باستقبال وتكريم من جانب محمد علي، وربما تأثروا بإصلاحاته فأرادوا تقليد بعضها في وطنهم بعد عودتهم. وكانت زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس لمصر سنة 1913 فلازم الشيخ محمد البخيت المطيعي فترة ونال منه إجازة، وكذلك فعل معاصره الشيخ المولود الزريي الذي أشاد ببعض أساتذته الأزهريين في كتابه (بدور الأفهام)، وممن درس في الأزهر أيضاً الشيخ العربي التبسي الذي أصبح نائباً لرئيس جمعية العلماء والذي استشهد أيام الثورة التحريرية الجزائرية. وكذلك زارها ودرس بها الفلكي الشهير المولود الحافظي. ومن المغرب (مراكش) زار القاهرة وأقام فيها الشيخ شعيب الدكالي والشيخ بدر الدين الحسني. وكذلك حل بها سليمان الباروني باشا الليبي، وأنشأ بها مطبعة وجريدة أوائل القرن العشرين. كما حلّ بها عدد آخر من الزعماء الليبيين سواء كانوا من أهل الدين أو السياسة.

تأثر المغاربة بالنهضة الإصلاحية والأدبية في مصر، وكانوا يتلقون صحافتها ومطبوعاتها، بما في ذلك مجلة المنار والمؤيد ودواوين الشعراء أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وصحافة الإخوان المسلمين، ومجلات الأزهر، ومؤلفات مصطفى صادق الرافعي وعلي الجارم، ومجلة الرسالة والثقافة، والهلال والمقتطف، والفتح لمحب الدين الخطيب، وغيرها. وأثناء المناسبات مثل مبايعة شوقي بإمارة الشعر ثم وفاته ووفاة حافظ إبراهيم أقاموا حفلات التكريم ومناسبات التابين. وبصفة عامة انتصروا للرافعي على طه

حسين أثناء العراك النقدي بينهما لأنهم رأوا الرائعي مدافعاً عن الإسلام واللغة العربية أكثر من دفاع طه حسين عنهما، أو ربما كرد فعل على تأثر طه حسين بالثقافة الفرنسية التي يشكون من تدخلها في هويتهم. وأعلن بعضهم صراحة أنهم من تلاميذ الشيخ محمد عبده ومن قراء آرائه في مجلة المنار وتفسيره وكتابه رسالة التوحيد، ومن الذين ردوا على رأي طه حسين في الأدب الجاهلي عالمان معروفان وهما محمد الخضر حسين وأبو إسحاق إبراهيم أطفيش.

والمعروف أن محمد عبده زار تونس مرتين وزار الجزائر مرة واحدة، ولم يحقق أمله في زيارة مراكش سنة 1903، وكانت له تصريحات وآراء حول العلاقة بين الفرنسيين ومسلمي المغرب العربي. وهي موضوع دراسات حديثة من جانب الباحثين في هذه الأقطار. وقد حضر إلى مؤتمر المستشرقين الرابع عشر بالجزائر الزعيم الوطني المصري محمد فريد والشيخ سلطان محمد سنة 1905 وساهما بأبحاثهما ومناقشاتهما ودافعا عن ثقافة ولغة أهل المغرب العربي بما أثار عليهما حفيظة الأعضاء الفرنسين في المؤتمر. وقد كتب محمد فريد رحلة سماها (من مصر إلى مصر) هاجم فيها الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي.

وزارت الفرق الفنية المصرية أقطار المغرب العربي، ومنها فرقة جورج أبيض في العشرينات وفرقة يوسف وهبي أوائل الخمسينات. ورغم الطابع الفني لهذه الفرق فإنها (ولا سيما بالنسبة ليوسف وهبي) تحولت إلى مناسبات سياسية أيضاً ينوه فيها الحاضرون بدور مصر في تحرير المغرب العربي وبالعلاقات التاريخية والمستقبلية بين شعوب العرب والمسلمين.

ومما يذكر بهذا الصدد أن مصر اتفقت مع فرنسا على فتح معهد عربي في الجزائر على غرار المعهد الفرنسي في مصر، وبدأ الاستعداد له. وفي آخر لحظة اعترضت فرنسا ربما لضغط من المستعمرين في الجزائر. ورغم فشل هذا المشروع الرسمي فإن الجزائريين عوضوه ببعثات طلابية أرسلوها إلى مصر للدراسة على حساب الحكومة المصرية استعداداً لفتح كلية ابن باديس في الجزائر، كل ذلك كان عشية اندلاع الثورة في الجزائر وعشية استقلال تونس ومراكش.

هل يكفي في هذا المجال أن نقول بلغة دبلوماسية إن العلاقات كانت متينة بين مصر والمغرب العربي؟ لا أعتقد أن هذا الوصف يكفي هنا. لعل الأفضل من ذلك أن نقول إنها كانت علاقات أخوة تاريخية وجوار، أو هي بكل المقاييس علاقات هوية وانتماء، مما يجعلها تصمد في وجه كل الأهوال والأهواء[1].

الزمالك (مصر) 27 مارس 2001

(1) أرسلت إلى ندوة مصرية عن علاقة مصر بالمغرب العربي، ونعتقد أنها نشرت.

صلات الجزائر ومصر في عهد محمد علي باشا

هذه الورقة تتناول العلاقة بين الجزائر ومصر في عهد محمد علي باشا، أي من الحملة الفرنسية على مصر إلى الحملة الفرنسية على الجزائر. وبهذا المفهوم فإن الورقة تتناول قضايا وأحداثاً وعلاقات شخصية ودولية تبرهن كلها على التجاوب والتواصل بين الجزائر ومصر، رغم ما قد يبدو أحياناً من اختلاف في وجهات النظر السياسية أو التباعد في الجغرافيا.

الحملة الفرنسية على مصر والجزائر

من الثابت حتى الآن أن باشوات الجزائر وقفوا من الحملة الفرنسية على مصر موقفاً مخالفاً لموقف السلطان العثماني، فلم يشتركوا في حرب الفرنسيين ولم يقاطعوهم اقتصادياً، بل ثبت أنهم أمدوهم بالقمح والمؤونة حين حاصرتهم أوروبا وبالأخص بريطانيا، وأن نابليون قد أطلق سراح الأسرى الجزائريين في مالطة، كما أطلقت الجزائر سراح الأسرى الفرنسيين عندها. ولكن نابليون كان في نفس الوقت يفكر في غزو الجزائر وكانت المسألة عنده مسألة أولويات فقط، ولذلك أرسل بعد هزيمته في مصر إلى الجزائر من يتجسس عليها ويأتيه منها بالأخبار والخطط لتسهيل القيام بحملة ضدها (خطة الضابط بوتان، 1808).

ويبدو أن الجزائريين لم يكونوا واعين بالخطر المحدق بهم من فرنسا أيضاً. فقد بلغتهم أصداء الثورة الفرنسية وسمعوا ما كان يدور في فرنسا من نزاع على السلطة ومن تصفيات جسدية لأسرة البوربون ومن صراع على السلطة بين اليمين واليسار. فاكتفى أحد الكتاب الجزائريين حين سمع بذلك بالدعاء بأن

يجعل الله كيد الفرنسيين في نحرهم وأن يشغلهم ببعضهم حتى يبعد خطرهم عن الجزائر والمسلمين عامة[1].

محمد علي والوهابية والجزائريون

حين تولى محمد علي الحكم في مصر لم يعرف عنه الجزائريون إلا من قناتين: الأولى علاقته بالوهابية والثانية علاقته بالفرنسيين. أما الوهابية فقد عرفوا عنها من أداء الحج، فقد التقوا بأتباع محمد بن عبد الوهاب وعلموا بما قاموا به في الحجاز من محاربة البدع والدخول في مناظرات مع علماء المسلمين. وربما علموا أيضاً ما نسب إليهم من قسوة إزاء معارضيهم وحرب محمد علي باشا والقضاء على نواة دولتهم. هذه الصورة نقلها أحد علماء الجزائر وهو محمد أبو راس الناصري في رحلته المعروفة (بفتح الإله ومنّته). لقد حج هذا العالم مرتين وزار مصر كذلك مرتين في ولاية محمد علي ولكنه لم يذكر محمد علي بالاسم، لماذا؟

اهتم أبو راس بإنجازات محمد علي وليس بشخصه. فقد أشاد بتقدم مصر في عهده، حتى أصبحت ـ كما قال ـ «بلاد المباني المعجبة والعلوم الزاهرة والعساكر القاهرة والمساجد والعلماء. . .» وقد أورد أبو راس رأيه في عبارات مسجعة طويلة جاء فيها قوله بعد ركوبه البحر من تونس، فمصر هي البلد الذي «استقل به كرسي خلافة الإسلام. . . وما عسى أن تضيف في وصفه ألسنة الأقلام، وتعبر عن كماله فنون الكلام»، ثم قال عن مصر في عهد محمد علي: «ودخلت بناءها المبهت المعجب، وخارجها المنبت المنجب، فحمدت الرؤوف المنزل، ذا العطايا المجزل. . . ذا العمارة الهامية، كأمواج البحر الطامية، ذا العلوم الزاهرة بالأزهر، والعساكر القاهرة بالقلعة والمزهر، والفسطاط ومشهد الإمام، وجامع ابن طولون والأهرام. . لقيت بها العلماء الكبار، أهل العلم والأدب والأخبار. . .» وذكر من علمائها الذين التقى بهم

(1) أحمد بن سحنون، الثغر الجماني، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر 1973.

وأجازوه عندئذ: محمد مرتضى الزبيدي، ومحمد الشرقاوي، ومحمد الأمير، والشربيني. . . [1].

يعرف المؤرخون أن سلطان المغرب دعم الحركة الوهابية لأنها تضعف منافسه سلطان اسطانبول كما يعرفون أن سلطات تونس ساندت الدولة العثمانية في جهودها ضد هذه الحركة، أما موقف دايات الجزائر فغير معروف حتى الآن، والمفروض أنهم كانوا يقفون مع الدولة العثمانية ولكننا عرفنا أنهم لم يتقيدوا بولائهم عند هجوم نابليون على مصر.

ركب الحج الجزائري: أحمد باي، الأمير عبد القادر. . .

في كل العصور الإسلامية كانت مصر محطة رئيسية لركب الحج الجزائري ـ والمغاربي عامة. وفي عهد محمد علي تابع الحجاج التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مصر، ولكن القليل منهم من سجل انطباعاته حول ما شاهده وما عاشه من تطورات. فهذا أبو راس سابق الذكر قد علق بذكاء على ما خلفته الحملة الفرنسية بعد انسحابها وما حمله الفرنسيون معهم من مصر ومن سار في ركابهم[2]. وفي وقت غير متباعد (حوالي 1818) حل بمصر وهو في طريقه إلى الحج أحمد باي الذي سيتولى حكم قسنطينة أثناء عهد حسين باشا آخر دايات الجزائر. وأحمد باي هذا هو الذي بقي يقاوم الجيش الفرنسي في قسنطينة إلى أن غلب على أمره فاستسلم لعدوه سنة 1848، أي قبل سنة واحدة من وفاة محمد علي باشا. أعجب أحمد باي بإصلاحات محمد علي، ولا ندري هل التقى به شخصياً، ذلك أن محمد علي اعتاد كما يقول الرواة، على إقامة حفلات استقبال ومآدب على شرف بعض الأعيان من حجاج أهل المغرب العربي. ومهما كان الأمر فقد تجول أحمد باي في مصر وتأثر بتطور الأحوال فيها وفي المشرق عامة. لقد كان تأثير محمد علي لا يقتصر على مصر بل

---

(1) انظر فتح الاله، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1998، ص 115 ـ 117.

(2) نفس المصدر.

يتجاوزه إلى السودان والحجاز والشام[1].

وفي سيرة الأمير عبد القادر الجزائري أنه رافق والده إلى الحج سنة 1827 وأنه التقى مع والده بمحمد علي، أي قبل أن يصبح الأمير سلطاناً على الجزائر بحوالي خمس سنوات. وكان عمر الأمير إذاك حوالي تسع عشرة سنة. فقد ذكر كاتب سيرته (شارل هنري تشرشل) أن الأمير ووالده الشيخ محيي الدين نصبا خيمتهما قرب القاهرة وأن الأمير رأى محمد علي لأول مرة في القاهرة (سنة 1827) وأنه لم يكن يتصور أنه كان مقدراً له أن يفوقه في المهارة العسكرية والقدرة الإدارية وفي الأعمال الأخرى التي طبقت شهرتها الآفاق. كما امتدح تشرشل محمد علي قائلاً إنه جندي ناجح[2].

وهناك ركب حج جزائري آخر جاء القاهرة في حدود سنة 1236 هـ. وهذا الركب عبارة عن وفد يضم محمد أفندي أخ داي الجزائر حسين باشا، ومحمود بن العنابي وابنه محمد، وهما من رجال العلم. وقد التقى الوفد بعزيز مصر محمد علي وأدوا فريضة الحج. وفي طريق العودة وقع خلاف بين محمد بن العنابي وأخ باشا الحزائر[3] . ويبدو أن هذا الخلاف تسبب في بقاء ابن العنابي في القاهرة. وقد استغل ابن العنابي بقاءه فتولى التدريس بالأزهر مدة تسع سنوات. وتأثر بإصلاحات محمد علي العسكرية وغيرها فألف وهو في القاهرة كتابه (السعي المحمود في نظام الجنود)[4] الذي سنتحدث عنه، وكان

---

(1) انظر عبد الجليل التميمي: قسنطينة والحاج أحمد باي (بالفرنسية) 1830 ــ 1837، مطبوعات المجلة التاريخية المغربية المجلد 1، 1978، تونس، نقلاً عن المستشرق الفرنسي شيربونو.

(2) انظر شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 4، 2005، ص 68.

(3) مات والد ابن العنابي في المويلح أثناء رجوعه من الحج.

(4) تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1982، انظر عنه أيضاً كتابنا رائد التجديد الإسلامي: محمد بن العنابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 3، 2005

يشترك محمد علي في أصل الموطن، كما سنذكر. وقبيل الحملة الفرنسة على الجزائر استرضى الداي حسين باشا ابن العنابي وأرسل له سفينة تحمله إلى الجزائر وعينه مفتياً من جديد. وبهذه الصفة حضر ابن العنابي سقوط عاصمة الجزائر في أيدي الفرنسيين الذين حكموا بنفيه إلى مصر بعد حوالي ثلاثة أشهر فقط من الاحتلال.

مصر مخبر الأفكار الفرنسية للجزائر

يمكن القول إن بعض المؤشرات التاريخية تدل على أن الفرنسيين اتخذوا مصر في عهد محمد علي مخبراً لتصدير أفكارهم نحو بعض البلدان ومنها الجزائر. ذلك أن علاقتهم لم تنقطع بمصر بخروج حملتهم منها ولا حتى بوفاة محمد علي. فقد حملوا إلى الجزائر أيضاً مطبعة وأنشأوا فيها جريدة واصطحبوا معهم هيئة من العلماء مثلما فعلوا في حملتهم على مصر فإن الاحتلال في الجزائر قد حولها لصالحه. ونشطت في فترة محمد علي الفلسفة السانسيمونية فأرسلت رجالها يجربون أفكارهم ومشاريعهم في مصر، وكان زعيمهم هو أونفنتان[1] الذي أرسل تلاميذه مزودين بتعليماته وآرائه في بناء المستوطنات النموذجية أو المثالية في المجتمع المتخلف السعيد. ويهمنا أن اثنين من هؤلاء التلاميذ (وكان عددهم كبيراً) عملا في مصر ثم نقلا نشاطهما إلى الجزائر وهما توماس أوربان Th. Urbain والدكتور بيرون N. Perron، وكلاهما ترك بصماته على مصر والجزائر.

عاش (أوربان) فترة في مصر وأحب الشرق واعتنق الإسلام وتزوج من مصرية وتسمى بإسماعيل، وامتدح الحياة في مصر حيث وجد المجتمع بدون

(1) B.P. Enfantin ويلقب أيضاً بالأب أونفنتان، ت. 1864، وهو من المؤسسين للمدرسة السانسيمونية، وهو مهندس واقتصادي فرنسي، وكان له تأثير على أتباعه وأهل عصره. وكان قد حل بالجزائر سنة 1843. وقد شارك في اللجنة العلمية التي ألفتها الحكومية الفرنسية لدراسة أوضاع الجزائر، كما ألف كتاباً بعنوان (استعمار الجزائر).

تمييز عنصري ولا لوني. وكان أوربان هجيناً مولداً من أب فرنسي وأم من المارتنيك. وبعد نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر انضم إليها وخدمها ولكنه انتصر للأهالي ضد الليبرالية الأوروبية المتوحشة التي اغتصبت الأرض والعقار من الجزائريين. وحاول أوربان تطبيق الفلسفة السانسيمونية الداعية إلى نشر الحضارة الأوروبية بين الشعوب المتخلفة، وذلك في نظره عمل إنساني كبير. ألف أوربان بعض الكتب وكتب التقارير وتزوج أيضاً جزائرية وعاش معها حتى توفيت في رقبته، وأصبح مترجماً لنابليون الثالث حين زار الجزائر 1865 وهو الذي أقنعه بإعلان حمايته للأهالي من اعتداء الكولون على أملاكهم، وهي السياسة التي اشتهرت في وقتها بسياسة (المملكة العربية) والتي لخص فيها نابليون موقفه في تصريحه القائل إن الجزائر أرض فرنسية ومعسكر فرنسي ومملكة عربية[1].

وأما الدكتور بيرون فقد ظل يعمل في مصر في مدرسة الطب، وكان أيضاً من السانسيمونيين، تعاون مع الشيخ محمد بن عمر التونسي في القاهرة وترجم كتابه (تشحيذ الأذهان) إلى الفرنسية، وألف هو عدة كتب عن الأدب والتاريخ والمرأة العربية. ثم احتاجته حكومة نابليون الثالث في الجزائر لإدارة المعهد العربي الذي كانت تخطط لإنشائه فجاء وأداره بحزم ولكنه أصبح طاعناً في السن عندما كلف بهذه المهمة. وقد نقل إلى الجزائر تجربة مزدوجة: تجربة فرنسا في الشرق (مصر) وتجربة مصر في عهد محمد علي التي عاصرها واندمج فيها[2].

ومن التجارب المصرية في عهد محمد علي التي انتقلت إلى الجزائر تركيز الفرنسين على تشبيه ما يقومون به في الجزائر بما قاموا ويقومون به في مصر. فأثناء الحملة الفرنسية على الجزائر كانوا يرددون عبارات يحاولون من خلالها إقناع الشعب الجزائري بعدم محاربته لهم بقولهم؛ إن إخوانكم المصريين ما

---

(1) انظر عنه تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، 2005، ص 438.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، 2005 ص 442.

يزالون يأسفون علينا وأنهم أصدقاء لنا، وأنهم يرسلون بأبنائهم إلى فرنسا للتعلم. ومن جهة أخرى كانوا ينوهون بكل ما يحدث في مصر وله علاقة بفرنسا وحضارتها. من ذلك التنويه بما قام به رفاعة الطهطاوي من ترجمة الميثاق الفرنسي، والاقتباس من رحلته المعروفة(1). فهذه الأمور تجدها في المجلات والصحف الفرنسية الصادرة في الجزائر عندئذ مثل (المجلة الجزائرية والشرقية).

الجزائر ومصر في رحلة ليون روش

أوضح مثل على التغلغل الفرنسي في عهد محمد علي وعلاقته بالجزائر ما جاء في رحلة ليون روش أو مذكراته. فقد جاء روش إلى مصر في مهمة والتقى بمحمد علي عدة مرات ووافق له الباشا بطريقة غير مباشرة على خطة فرنسا في الحصول على فتوى من علماء الأزهر تنهي الحرب بين الأمير عبد القادر والفرنسيين. وتناقش الباشا مع روش في حظوظ الحرب والسلم في الجزائر، وحضر اللقاء سليمان باشا الفرنسي (سيف) والقنصل الفرنسي (فريسنال F. Fresnel). كما عقد روش سهرات طويلة مع الشيخ عمر التونسي والدكتور بيرون وفريسنال للتخطيط من أجل الحصول على الفتوى الأزهرية بوقف الحرب بين الجزائر وفرنسا.

جاء ليون روش إلى مصر سنة 1841 على رأس وفد من شيوخ الطرق الصوفية في مهمة تهدف إلى إصدار المجلس الأعلى للأزهر فتوى بتحريم القتال على المسلمين الجزائريين ضد النصارى الفرنسيين ما دام هؤلاء قد تغلبوا عليهم ولكنهم تركوا للمسلمين حرية ممارسة شعائرهم الدينية. وكان هدف روش تجنيد محمد علي لقضيته وإيعازه لعلماء الأزهر بعدم الاعتراض على الفتوى. فاجتمع به عدة مرات، وقال إنه رغم وجود المترجم الأرمني فقد تحدث معه

(1) تخليص الإبريز في تلخيص باريز، وهي الرحلة التي طالما استشهد بها الكتاب الفرنسيون الذين كانوا يتعاملون مع مثقفي الجزائر أوائل الاحتلال مثل العقيد بواسوني Boissonnet.

بالعربية مباشرة. والسؤال هو هل كان محمد علي يتقن العربية؟ لقد قارن روش بين محمد علي والأمير عبد القادر، فقال إن الباشا يمثل شخصية نقيضة للأمير، فوجه محمد علي وجه أسد، وهو يعتمد على القوة المادية والقسوة، وضرب على ذلك مثلاً بمذبحة القلعة. أما الأمير فهو في نظر روش يمثل رجلاً زاهداً في الدنيا ووجهه يضيئه الإيمان الذي يحركه العمل الخير. وقد سأله الباشا عن استقرار الفرنسيين في الجزائر ومجريات الحرب مع الأمير، واستغرب محمد علي من طول المقاومة العربية غير المسلحة تسليحاً جيداً في الجزائر بينما الجيش الفرنسي مسلح ومنضبط. وفي ذلك غمز لكفاءة الجيش الفرنسي. ويظهر من كلام ليون روش أن محمد علي كان يعتقد أنه من السهل القضاء على هذه المقاومة بجيشه الكثير العدد، ولكن روش تفطن لذلك ودافع عن جيش بلاده قائلاً إن لدى الجزائريين 150 ألف فارس، وهم لم يعطوا الجيش الفرنسي الفرصة لخوض المعركة.

حاول روش أن يكسب دعم الباشا، كما قلنا، بحصول فرنسا على فتوى من علماء الأزهر ـ بعد حصولها عليها من علماء القروان ـ ضد مقاومة الأمير الذي كان يستعمل آيات الجهاد القرآنية في حربه ضد الفرنسيين. ومن رأي روش أن الباشا، رغم أنه أفاد شعبه بفوائد الحضارة الأوروبية لا يمكنه أن يتغاضى عن مصير «مسلمي الجزائر البائسين المضللين بتفسير خاطىء لكلام الله» حسب قوله، وقد لاحظ روش أن محمد علي ابتسم عند سماعه أقواله دون أن يوافق على مشروعه صراحة، مما جعل روش يفهم ضمنياً أن الباشا يدعمه وأنه سيوحي إلى علماء الأزهر بالموافقة على الفتوى. وبعد الموافقة عليها علم روش من الشيخ محمد بن عمر التونسي أن محمد علي لم يكن بعيداً عن الموافقة، لأنه يريد أن تنتهي الحرب التي يخوضها الأمير عبد القادر ضد الفرنسيين، فهو يعتبرها طعنة دموية في وجه القرآن التي تأمرهم بخلاف ذلك[1].

---

(1) ليون روش Leon Roches: اثنان وثلاثون سنة في الإسلام، ج 2، باريس 1885، ص 26 ـ 32، 47، 50. وللتفصيل انظر (رحلة ليون روش إلى الحجاز: 1841 ـ 1842)=

لقد بلغ روش أن محمد علي يسخر من طريقة الفرنسيين في حربهم ضد الأمير عبد القادر، وأن الباشا ادعى أن عشرة آلاف من جنوده ستهزم الأمير وأيضاً كل القبائل الخاضعة له، ولكن روش لم يواجه الباشا حول هذه الملاحظة، إذا صدقت، وإنما قال إنه لم يخبر الباشا يوم لقائه به بأن ألف فارس يعترضنا بها الأمير ستهزم الفرق العشرة من الفرسان الذين لدى الباشا[1].

أعطى روش أهمية خاصة لدور الشيخ محمد بن عمر التونسي في مصر[2]. فقد جعله من المدركين جيداً لأبعاد مهمته الإنسانية (؟)، وأعطاه دروساً في اللغة العربية الفصحى خلال النهار بينما في المساء كان الشيخ يستدعي بعض شيوخ الأزهر عنده للحديث حول الفتوى التي جاء بها روش، وأن الشيخ قدمه إلى صهره سيدي الحاج حسن بن إبراهيم مفتي القيروان السابق الذي أصبح دليلاً لروش في الحجاز. ونحن لا نعرف دور الشيخ إبراهيم في الموافقة على الفتوى في القيروان ولا ما إذا كان لقاء القاهرة قد أعد له من تونس. ومهما كان الأمر فإن القنصل فريسنال والدكتور بيرون كانا يحضران أيضاً هذه السهرات التي كانت برعاية الشيخ عمر التونسي. وبعد انسحاب شيوخ الأزهر من السهرة يظل الشيخ التونسي والفرنسيون يواصلون سهرتهم ويقصون الأقاصيص ويروون الأخبار ويحضرون خططهم، وكانوا أحياناً يقضون الليالي كلها معاً، حسب رواية روش الذي يعترف بأن الشيخ التونسي قد لعب دوراً كبيراً في التأثير على علماء الأزهر. وبالإضافة إلى هذا الشيخ جاء روش معه بـ «مقدمين» من الطريقة التجانية وهما الميلود بن سالم الأغواطي ويحيى بن أحمد

= في كتابنا: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 2005.

(1) نفس المصدر، ص 37.

(2) محمد بن عمر التونسي، ت. 1857 بالقاهرة، ولد بتونس، ثم رحل إلى السودان ومصر. وهو عالم باللغة، وقد اشتغل مصححاً للكتب. و(تشحيذ الأذهان) هو أحد كتبه، تناول فيه رحلته إلى السودان، وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية هو وكتابه الآخر (رحلة إلى وادي) الدكتور بيرون سابق الذكر. انظر الأعلام للزركلي، ج 7، ص 209.

البوزيدي[1] ، فهذان «المقدمان» هما اللذان قدما نص الفتوى إلى مجلس علماء الأزهر.

محمد علي وعمر باشا داي الجزائر

روى روش قصة تربط مبكرا بين محمد علي باشا والي مصر وعمر باشا داي الجزائر: كيف تعارف الرجلان وكيف وصلا إلى السلطة ومصير كل منهما. والقصة طويلة وفيها كثير من المغامرات والخيال ولكننا سنكتفي هنا باختصارها فيما يلي: بناء على روش فإن عمر كان من عائلة تركية محترمة، ولد في جزيرة ميتلين حوالي 1775 وكان له أخ يدعى محمد الميتليني أرسل إلى باشا الجزائر فمنحه مركزاً في بلاطه بينما بقي أخوه عمر يعمل في الفلاحة. ولكن الحظ ابتسم له حين تعرضت سفينة ألبانية يقودها أرناؤوطيون وكانت في طريقها إلى مصر، لعاصفة جعلت أهل ميتلين، ومنهم عائلة عمر، يقدمون لها المساعدة. كان قائد الأرناؤوطيين هو محمد علي فتعرف على عمر الذي سافر مع صديقه الجديد إلى مصر.

وسرعان ما لاحظ الرجلان أن المسرح لا يسعهما معاً فقال محمد علي يوماً لصاحبه إن أسدين لا يمكنهما العيش في غابة واحدة. فنحن اليوم أخوان ولكننا غداً سنصير عدوين، فلنفترق لكي يبقى قلبانا معاً. إن مصر والجزائر تحققان طموح كل منا، فإما هذه وإما تلك، فاختر لنفسك إحداهما. فاختار عمر الجزائر لوجود أخيه الأكبر فيها. وهو حل يتلاءم أيضاً مع رغبة محمد علي. وعند الفراق أقسما على القرآن الكريم على البقاء صديقين. أما مصير محمد علي فمعروف وأما مصير عمر فيحتاج إلى بعض التوضيح. توجه عمر إلى الجزائر وبعد تقلبات قاسية أصبح هو الداي والباشا كما أصبح محمد علي هو باشا مصر وعزيزها. وخلال حكمهما تبادلا الهدايا، فحمل هدايا عمر ابنه محمد إلى محمد علي. ومرت السنين وأصبح محمد بن عمر صديقاً لروش

(1) ليون روش، ص 47. و(المقدم) هو نائب شيخ الطريقة الصوفية.

الذي كتب في مذكراته أن الجزائريين ما يزالون يتحدثون عن هذه الهدايا العجيبة التي عاد بها محمد التركي من مصر إلى والده عمر باشا. ولكن عمر هذا لم يتول السلطة سوى سنتين إذ مات مقتولاً سنة 1818 عندما كان محمد علي في عنفوان حكمه[1].

محمد علي ومشروع احتلال الجزائر

ليس جديداً أن نشير إلى مشروع محمد علي عن الحملة الفرنسية ضد الجزائر سنة 1830. فقد ألفت حول هذا المشروع كتب وبحوث وظهر منها أن محمد علي كان يفكر في ضم إيالات الدولة العثمانية في شمال إفريقيا إلى سلطته منذ سنة 1820. ولكن ظروفاً محلية ودولية جعلت المشروع يفشل. وبين 1826 و1830 جرت مفاوضات واتصالات وتحضيرات على مختلف الأصعدة مع أطراف عديدة.

وبالإضافة إلى اهتمام محمد علي بالجزائر (ومعها تونس وطرابلس) هناك رئيس الوزراء الفرنسي الجديد آنذاك، بولينياك، الذي كان لا يقل عنه اهتماماً بحملة ضد الجزائر، خصوصاً منذ حادثة المروحة المزعومة (1827). كان بولينياك قد تولى وزارة الخارجية الفرنسية ثم قنصل بلاده في بريطانيا قبل أن يصبح رئيساً للوزراء. وكانت له طموحات تتمثل في مشاريع أوروبية وشرقية، وكان يشاركه في بعضها على الأقل وزير البحرية البارون دي هوسي الذي قيل إنه كان يؤمن بضرورة قيام بلاده بحملة ضد الجزائر. يذهب مشروع محمد علي إلى تسيير جيش مصري بري يحميه أسطول فرنسي بحري للاستيلاء على طرابلس وتونس والجزائر وإلحاقها بسلطته، على أن تقدم له فرنسا أربع سفن و28 مليون فرنك مقدماً. وهذه الخطة سترضي السلطان العثماني الذي سيحصل على جزية كالتي يدفعها إليه محمد علي مقابل حكم مصر. كما سترضي فرنسا التي ستخلصها من مشكلة الجزائر، وسترضى عنها أوروبا لأنها ستتخلص من

(1) نفس المصدر، ص 31 ـ 45. وقد أورد روش قائمة بثروة عمر باشا.

القرصنة. وقد وعد محمد علي بتجنيد 68 ألف رجل وتوفير 23 سفينة ومائة مليون فرنك للإنفاق على الحملة.

رحب بولينياك بمشروع محمد علي، وأرسل الضابط (هودير) ليفاوضه على التفاصيل، كما أرسل تعليماته إلى سفير فرنسا في اسطانبول لجس نبض السلطان وإقناعه بالفائدة التي سيجنيها من الحملة إذا قام بها محمد علي، بالإضافة إلى عدم اشتراك الجيش الفرنسي فيها. ولكن السلطان لم يفصح عن رأيه وإنما أرسل أحد ثقاته، وهو خليل أفندي صديق الداي حسين، إلى الجزائر للحديث معه. وتذهب الرواية الفرنسية إلى أن خليل أفندي فشل في مهمته لأن فرنسا كانت تريد الرجوع إلى الشروط السابقة لصيد المرجان في مرسى القالة وإقامة منشآت مسلحة بهذه الناحية. كما أن كلا من وزير الحربية والبحرية عارض اشتراك محمد علي في الحملة على الجزائر بدعوى أنه لا فرق في نظرهما بين محمد علي وحسين باشا. ولكن بولينياك لم يقطع المفاوضات مع محمد علي، فقام بتعديل المشروع بحيث تخفض المعونة الفرنسية إلى عشرة ملايين فرنك فقط مع اشتراك فرنسا في الحملة بأسطول هام وقوة من الجنود والمهندسين للحصار والهجوم. وقد وافق الملك شارل العاشر على هذا التعديل في أكتوبر 1829.

أرسل بولينياك المشروع المعدل إلى محمد علي مع هودير من جديد. ولكن محمد علي رفض التعديل ورضي بتعديل آخر يقتضي أن تدفع فرنسا عشرين مليون فرنك وترسل أسطولاً لحماية الحملة ابتداء من الإسكندرية، وتعوض السفن الأربع الموعودة بدفع ثمانية ملايين فرنك بدلها. ولكن هذا التوافق اعترضته موجة من الاحتجاجات الصحفية الفرنسية، كما وقفت ضده بريطانيا وروسيا. وفي السادس من فبراير 1830 أرسلت حكومة فرنسا رسولاً إلى محمد علي تعلن أنها ستقوم بالحملة ضد الجزائر وحدها، وعرضت على محمد علي ثمانية ملايين فرنك فقط إذا اكتفى باحتلال طرابلس وتونس. وعندما وصلت المفاوضات إلى هذه النقطة يئس محمد علي وقطعها، وبذلك فشل

المشروع[1].

ولكي تقوم فرنسا وحدها بالحملة ضد الجزائر قررت عدم تسليم محمد علي خطة وخارطة الضابط بوتان عن الجزائر. كما عرقلت مهمة طاهر باشا مبعوث السلطان العثماني إلى الجزائر لإقناع الداي حسين بالتفاوض مع الفرنسيين أو لخلعه. وفي نفس الوقت اجتمع إبراهيم باشا في الثاني من مارس وأعلن للمفاوض الفرنسي أن الباشا (والده) قد تخلى عن التحالف مع فرنسا في حملتها ضد الجزائر لأن «العالم الإسلامي ينظر إليه على أنه بطل وأمل». ومن جهة أخرى لم يأته (فرمان) من الباب العالي يخوله الهجوم على طرابلس وتونس. وهكذا أعلن في29 أبريل أن الباشا (محمد علي) لا يستطيع التحالف مع فرنسا لمحاربة المسلمين[2].

فإذا صحت هذه الرواية فيكون محمد علي ليس مجرد باحث نهم عن السلطة والحكم ولكنه كان يسير وفق خط أخلاقي وإسلامي معين. ولعل موقفه من الجزائريين بعد احتلال بلادهم ولجوء بعضهم إلى كنفه هو برهان آخر على ذلك.

محمد علي واللاجئون الجزائريون

من نتيجة الاحتلال الفرنسي للجزائر هجرة أعداد من أهلها إلى البلدان الإسلامية طواعية أو كرهاً، ولن نتكلم هنا عمن هاجر إلى تونس والمغرب لكثرتهم ولأنهم خارجون عن موضوعنا. أما الهجرة التي تعنينا الآن فهي التي اتجه أصحابها نحو مصر في عهد محمد علي. إن هناك عدداً من القادة والعلماء قد شدوا الرحال إلى مصر فوجدوا فيها حسن الاستقبال والعمل والأمان، ومنهم بعض البايات، وهم حكام الأقاليم، ثم الداي حسين نفسه، بالإضافة إلى عدد

(1) انظر أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 4، 2005، ص 26، 29.

(2) انظر جورج دوان Douin: محمد علي وحملة الجزائر، 1829ـ 1830، القاهرة 1930.

من العلماء الذين حكمت عليهم السلطة الفرنسية الجديدة بالنفي، مثل العنابي وزميله الكبابطي.

كان مصطفى بومزراق حاكماً (باياً) لإقليم التيطري عند الاحتلال، وبهذه الصفة شارك في الحرب ضد الفرنسيين إلى أن سقط النظام واستولوا على مدينة الجزائر. عندئذ رجع بومزراق إلى عاصمة ولايته (المدية) فحاول الفرنسيون التفاهم معه بإبقائه في سلطته بشرط الاعتراف بسياده بلادهم على الجزائر، فرفض وظل يناور معهم إلى أن حكموا بنفيه بعد سنة من الاحتلال، ثم هاجر إلى الإسكندرية واستقر بها إلى أن أدركته الوفاة حوالي 1834. ولا ندري هل رأى محمد علي أو قابله، وهل قدمت له مساعدات مادية، والملاحظ أن ابنه (أحمد) بقي في الجزائر فحارب ضد الفرنسيين تارة وحارب ضد الأمير عبد القادر تارة أخرى. وكذلك الحال مع الباي حسن بن موسى حاكم إقليم وهران، فهذا الرجل العجوز (ثمانون سنة) لم يأت للدفاع عن مدينة الجزائر كبقية حكام الأقاليم وإنما ظل يحارب مع المسلمين في ولايته، وأرسل خليفته إلى المعارك التي دارت حول العاصمة. وبعد استيلاء الفرنسيين على العاصمة قرر حسن بن موسى أن يسلم مدينة وهران إلى الفرنسيين دون حرب بعد أن تخلى عنه أعيان إقليمه الذين عاقبوه على قسوته معهم أثناء حكمه. فهذا الرجل نفاه الفرنسيون في نهاية 1831 فاختار مصر مهجراً حيث توفي في تاريخ غير معروف. وكل هؤلاء المسؤولين هاجروا بعائلاتهم وأقاربهم، ومنهم حسين باشا.

لا تعنينا هنا حياة حسين باشا داي الجزائر بقدر ما تعنينا صلته بوالي مصر محمد علي. فهو رغم أهمية اسمه في التاريخ لا توجد له ترجمة شخصية، ولم يبق له في الجزائر نفسها من الذكريات سوى ناحية بالعاصمة أطلقها عليه الفرنسيون وحرفوها هكذا (لوسان دي) وقد أخذها عليهم الاستعمال الشعبي الجزائري بهذا النطق الفظيع. وهناك خلاف بين المؤرخين حول دور حسين باشا أثناء الأزمة بين الجزائر وفرنسا. منهم من يجعله حاكماً حكيماً رزيناً مستقيماً له علاقات طيبة مع مختلف الطبقات، ومنهم من يجعله جاهلاً محدود الأفق عنيداً

لا يقبل النصح، وغير حذر، وساذجاً، ترك البلاد بدون استعدادات ولا تحصينات حتى وقعت فريسة في مخلب المحتل[1].

نكتفي هنا بما يلقي الضوء على العلاقة بين محمد علي والداي حسين آخر باشوات الجزائر. فقد ولد حسين وعاش فترة في أناضوليا ثم جاء الجزائر جندياً وترقى في سلم السلطة حتى وصل إلى كرسي الحكم سنة 1818، وتزوج من أسرة جزائرية دينية وله منها أولاد وأصهار، وقد غير في النظام الإداري وبنى وأصلح بعض المساجد، وكان عهده عهد سلام بصفة عامة لم تكدره إلا مسألة الديون التي على فرنسا للجزائر ثم ضربة المروحة الشهيرة وما ترتب عليها من أزمة بين الجزائر وفرنسا التي انتهت بالاحتلال. ويبدو أن اتصالاً وقع بين محمد علي وحسين باشا أثناء الأزمة انتهى بدون نتيجة ولم تبق منه إلا ما يشبه الخرافة الشعبية، فقد قيل إن محمد علي أرسل إلى حسين ينصحه بالتفاهم مع الفرنسيين فرد حسين على الرسول بقوله: أرجع إلى سيدك وقل له يأكل الفول.

ودارت الأيام ووقع الاحتلال وأجبر حسين على الخروج من الجزائر مع أهله وأقاربه، ولم يذهب عندئذ إلى إزمير ولا إلى الإسكندرية وإنما اختار عندما خيره الفرنسيون، مدينة نابولي التي كان ملكها صديقاً له. ثم غادرها إلى ليفورنيا حيث أصدقاؤه من اليهود الجزائريين الذين كان يتعامل معهم تجارياً. وبعد محاولات فاشلة لاسترجاع ملكه المغتصب اختار الإسكندرية التي حل بها بعد أربع سنوات من خلعه، وربما كان اختياره الإسكندرية قد جاء بعد اتصالات بينه وبين محمد علي. وقد عاش في هذه المدينة إلى وفاته سنة 1838. وقد قيل إن حسين حين نزل مصر وطاف بمنشآتها الحديثة والقديمة اندهش وتساءل من أين كل هذا، فبلغ ذلك مسامع محمد علي فلم يترك الفرصة تمر دون أن يذكّر ضيفه بغلطته. فقد قيل إن عزيز مصر قال لمن جاءه بالخبر: قل له إن ذلك كله من أكل الفول.

---

(1) عن هذه الظروف انظر حمدان بن عثمان خوجة، كتاب المرآة، ترجمة محمد العربي الزبيري، الجزائر، 1974.

محمد علي وابن العنابي

ربما لا توجد صلة أوضح فيما قلناه حتى الآن من صلة محمد علي بابن العنابي. فابن العنابي من مواليد الجزائر ولكنه يعود بأصله إلى منطقة قريبة من مسقط رأس محمد علي. وقد دار الزمن دورته والتقى الرجلان على مبدأ الإصلاح والاحترام المتبادل. وولد ابن العنابي لأسرة من جنينا يرجع تاريخ قدومها إلى الجزائر إلى القرن السابع عشر. لذلك جاء في نسب ابن العنابي أنه الإزميتلي (الإزميرلي؟) وأن أسرته من جنينا الألبانية، ولذلك أضيفت عبارة (الجنيني) إلى نسبه في بعض الوثائق القديمة، فهو إذن من مقاطعة واحدة مع محمد علي، أي أنه مثله ألباني أو أرناؤوطي أيضاً، كما قيل عن ابن العنابي أنه تركماني كذلك.

ولد في الجزائر سنة 1189 هـ ودرس فيها وتولى الوظائف الدينية العالية مبكراً، كما سبق. وكان يضاف إلى اسمه عبارة «نزيل القاهرة»، وأثناء هذه الإقامة ألف كتابه (السعي المحمود في نظام الجنود)، بوحي من تجديد جيش محمد علي ومن حل السلطان محمود الثاني الجيش الإنكشاري. ولا ندري مدى صلة ابن العنابي بمحمد علي باشا خلال هذه الإقامة الأولى في مصر، غير أننا نعلم أن محمد علي قد أمر باختصار كتاب (السعي المحمود) فقام بذلك إبراهيم السقا أحد تلاميذ ابن العنابي. وربما كانت عودته إلى الجزائر لا تخفى على محمد علي سيما والرجل كان له مشروع ضم الإيالات الثلاث المغربية إلى سلطته، كما عرفنا. فهل نغامر ونقول إن عودة ابن العنابي إلى الجزائر كانت بالتنسيق مع محمد علي أيضاً.

على كل حال رجع ابن العنابي إلى الجزائر وقربه حسين باشا إليه وأعاد إليه منصب الفتوى. وحدثت الحملة الفرنسية، وانهزم الجيش الذي كان بقيادة إبراهيم آغا صهر الداي حسين. فطلب هذا من ابن العنابي أن يحمل سيفاً ويخطب في الجيش لتحميسه ورفع معنوياته لعل الهزيمة تتحول إلى نصر. ولكن ذلك لم يتحقق، وسقط النظام ولزم ابن العنابي بيته، ولكن عيون

الفرنسيين كانت ترصد حركاته فأثبتوا أنه كان «يتآمر» على الاحتلال وجاءوا بالبينة ولم يمهلوه حتى يبيع أملاكه ويجمع كتبه ويصفي ديونه. لقد نفوه إلى الإسكندرية. وبمجرد عودته إلى مصر صادف، كما يقول عبد الحميد بيك، موت المفتي الحنفي خليل السعدان، فعينه محمد علي مفتي الإسكندرية، وهو المنصب الذي بقي فيه إلى سنة 1266 هـ (1850 ـ 1851 م)، أي سنة واحدة قبل وفاته. وأثناء مقامه الثاني في مصر ألف ابن العنابي معظم كتبه المذكوره في ترجمته، ومنها الكتاب الذي أمره به محمد علي وهو (صيانة الرياسة في القضاء والسياسة). وهو كتاب كما يدل اسمه يتناول الأحكام الشرعية والسياسة الوضعية. يقول عبد الحميد بيك عن دواعي تأليف هذا الكتاب إنه بعد شيوع الرشوة وكثرة الدعاوى بين المتخاصمين، غضب محمد علي وأمر ابن العنابي بوضع تأليف يوفق فيه بين المذاهب الأربعة ليفرضه على القضاة قطعاً للرشوة وتوحيداً للأحكام وسداً للطريق أمام طلاب الفتوى من القضاة المختلفين باختلاف المذاهب. وقد عمم محمد علي الكتاب على جميع القضاة فعملوا به أثناء حياته مكرهين. ولكن الشيوخ غضبوا على مؤلف الكتاب لأنه تسبب في قطع معاشهم. وأسروها في أنفسهم.

فلما تولى عباس حفيد محمد علي بعث الشيوخ والمفتون إليه طالبين إبطال العمل بكتاب (صيانة الرياسة) قائلين إنه يضعف الديانة المحمدية، وادعوا أن ابن العنابي خارجي وزنديق، وقصدهم من ذلك، كما يقول عبد الحميد بيك، الارتزاق من الفتاوى على اختلاف المذاهب. وما زالوا بالوالي الجديد (عباس) حتى نقم على ابن العنابي وعزله وعوضه بتلميذه محمد البنا. وقد عرفه عبد الحميد شخصياً في مصر ووصفه بهذه العبارات: «إنه كان عارفاً بأحكام المذاهب الأربعة، الراجح منها والضعيف، وعالماً بباقي المنقول والمعقول، والسياسات العامة والخاصة الداخلية والخارجية»(1).

(1) انظر عبد الحميد بيك: أعيان من المشارقة والمغاربة، تقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 2005.

والظاهر أن ابن العنابي بقي له نسل في الإسكندرية، إذ تذكر بعض الوثائق أن له ابناً يدعى محمد الجزائري وأنه كان متولياً للفتوى أيضاً في مديرية الغربية[1].

قضية القاضي مصطفى الكبابطي

لم يسهل محمد علي مهمة ابن العنابي فقط، بل استقبلت مصر في عهده عدداً من علماء الجزائر المنفيين أو المهاجرين طواعية. وقد ذكر عبد الحميد بيك في تاريخه عدداً منهم، مثل مصطفى الكبابطي الذي كان زميلاً لابن العنابي في السلك الديني أثناء الحملة الفرنسية على الجزائر. وقد تولى الفتوى المالكية أثناء الحكم الفرنسي، ثم اختلف معهم حول تدريس اللغة الفرنسية على يد معلمين فرنسيين في المدارس الإسلامية. فنفوه إلى الإسكندرية حيث استقبله زميله ابن العنابي وسعى له لدى محمد علي فرتب له رزقاً كافياً وعينه في جامع تربانة حيث اشتغل برواية الحديث وروى عنه ـ كما يقول تلميذه عبد الحميد بيك ـ معظم علماء الإسكندرية، وكان في كل سنة يختم البخاري ومسلم. وقد توفي الكبابطي بالإسكندرية ودفن في تربة أبي العباس أحمد المرسي[2].

الخـــاتمـــة

ننتهي إلى أن العلاقة بين مصر والجزائر أقدم من العلاقة بين محمد علي والجزائريين. فمنذ الفتوحات الإسلامية كانت مصر مركزاً إدارياً وسياسياً وعلمياً للجزائريين. وتحفل وقائع العصور الإسلامية التالية بقوافل الحجاج وطلبة العلم

(1) (وثائق ويلفريد W. Rollman، من وقفية (بحري 5/567 وقف، يناير 22، 1906، 27 ذو القعدة، 1323 ـ محكمة الإسكندرية الشرعية).

(2) بالإضافة إلى كتاب عبد الحميد بيك، مرجع سابق، انظر بحثنا قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا في كتابنا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 5، 2005. وأيضاً كتابنا تجارب في الأدب والرحلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 2005.

والتجارة وحتى اللاجئين «السياسيين». ولم يزد محمد علي على مواصلة الاهتمام بالجزائر وحكامها وعلمائها. ففكر في غزوها ـ مع ليبيا وتونس ـ، ربما لإنقاذها من الاحتلال الأجنبي، واستقبل رجال إدارتها حاجين ولاجئين، ووفر وظائف لبعض العلماء الذين نفتهم السلطات الفرنسية بعد الاحتلال وانقطعت بهم السبل، كما وجد هؤلاء الرجال وعائلاتهم المناخ الأمني والعلمي في مصر فأقاموا وأسهموا في حركة التأليف وتعاطوا التدريس والفتوى وأصبحوا جزءاً من النسيج الاجتماعي المصري.

قمار يوم 14 سبتمبر، 2005

الثقافة العربية في عصر العولمة

تواجه الثقافة العربية في عصر العولمة الجديدة تحدياً كبيراً ربما لا يشبهه إلى التحدي الذي واجهته زمن الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر أو عصر العولمة القديمة. ومع ذلك فإن عليها أن تستعد لمواجهة العصر القادم أو أن تختفي عن الأنظار تاركة مكانها لثقافات أخرى أولى منها بالحياة والبقاء. هكذا تقول قوانين الطبيعة، فالغلبة للأقوى، والفضل للمبدع لا للمجتر.

ونحن هنا نريد أن نتحدث عن الثقافة العربية في مجموع عناصرها وشموليتها، من لغة وأدب ومسرح وموسيقى وفنون رسم. فهذه العناصر كلها تتأثر بعوامل التقدم والتخلف، ومن ثمة تؤثر على هوية الأمة وكينونتها. ويمكن أن نضيف إلى ذلك مجموع القيم والأخلاق والنظم التعليمية والسلوكية.

لقد دخل مصطلح العولمة أدبياتنا منذ حوالي عشرين سنة. وهو لم يدخل أدبياتنا كمصطلح ثقافي أو أدبي أو فني، وإنما دخلها ـ فيما أذكر ـ كمصطلح إعلامي وسياسي واستراتيجي واقتصادي، وهو في ذلك يعني سيطرة قطب واحد أو دولة واحدة على سير ومصير العالم بكل ما في هذا العالم من أمم وحضارات وتواريخ ولغات وأديان. فكأن العالم كله، بحكم القطبية الواحدة والثورة التكنولوجية الباهرة، قد أصبح قرية واحدة ـ كما يقولون ـ اختفت منها الدول والكيانات وتحولت إلى أجزاء من كل لا يتمتع فيه الجزء إلا بقدر ضئيل من الحرية. وعلى هذه الأجزاء أن تتلقى الأوامر والتعليمات لتوائم بين مصالحها ومصالح الدولة القطبية الواحدة التي يجب أن تكون لها هي اليد العليا في كل

شيء، بما في ذلك الثقافة. وإذا خالف جزء من الأجزاء الأوامر والتعليمات فعليه أن يتحمل العواقب السيئة التي قد تنتهي بالحرب والتدمير الشامل.

يقول أحد الساسة العرب المتفائلين بتعدد القطبية في زمنه «ومن الملاحظ أنه منذ الحرب العالمية الأخيرة (الثانية) تعززت قوى السلم في العالم، ولا تزال تقوى شيئاً فشيئاً. وأقيم الدليل على ذلك أثناء الاعتداء الثلاثي ضد مصر سنة 1956». ثم يتساءل هذا الكاتب الذي خبر السياسة وعرف أسرارها فيقول: «ما هو سبب هذا التطور؟ إلى أي شيء يعزى تقهقر سياسة القوة والعنف؟ إن لذلك تفسيراً. إنني أعرف (وجهة) نظر أوروبا وأمريكا الشمالية في الشيوعية، ولكن الإنسان، ولو لم يكن ماركسياً، لا يشاركهما حتماً في حكمهما على الشيوعية... يمكن لنا أن نصرح وبدون أدنى تردد بأن روسيا وأقطار الشرق (يعني المعسكر الشرقي) كانت كلها رحمة أنزلتها السماء على الأقطار المستعمرة. نعم، لولا وجود الدول الاشتراكية وقوتها لبقينا نتخبط في الثرثرة الاستعمارية الجوفاء وفي مواعيد ويلسون العرقوبية وفي عصبة الأمم التي امتازت بالبلادة والنفاق. وطوبى لنا حيث برزت للوجود قوى جديدة، فبفضلها لم يستطع أصحاب الأبناك (جمع بنك) ورؤوس الأموال الاستمرار في فرض إرادتهم وقوانينهم على الشعوب الصغيرة»[1].

ترى ماذا كان سيقول كاتب السطور أعلاه لو كان يعيش في وقتنا الذي كثر فيه الحديث عن العولمة والقطبية الواحدة؟

العولمة قديماً وحديثاً:

أما ثقافياً فمصطلح العولمة يعني في تقديرنا صبغ الثقافات السائدة اليوم بلون الثقافة الأمريكية وصهرها بالتدرج لتخرج منها ثقافة موحدة أو متشابهة هي ثقافة العصر الأمريكي المتميز بالعلم والتكنولوجيا وسيطرة اللغة الإنجليزية

---

(1) (فرحات عباس: ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1962، المقدمة).

وآدابها وفلسفتها. . . وبذلك تتحول ثقافات العالم إلى عنصر داعم للسلام العالمي الأمريكي الذي تختفي في ظلاله القوميات والمعالم الحضارية الخاصة.

إن العولمة في هذا السياق تهدف إلى وحدة العالم سياسياً وثقافياً، بحيث ينشأ في النهاية نظام دولي واحد ترعاه منظمة الأمم المتحدة التي تسيرها الولايات المتحدة، والتي يكون لها برلمان واحد بدل الجمعية العامة، ولها لغة واحدة مشتركة هي اللغة الأمريكية (وليست حتى الإنجليزية)، ويكون لها مرجعية واحدة هي الدستور الأمريكي، وثقافة واحدة تتمثل في الآداب والعلوم والفنون والتكنولوجيا التي هي نتاج القلب والعقل الأمريكيين.

ومع ذلك فإن الإنسان الأمريكي الذي يتهمه البعض بأنه بدون تراث ثقافي، ليس غيوراً، كبقية الناس، على «تراثه» الثقافي، فهو لا يقدس المرجعية شأن الآخرين. ولكنه يأخذ من المرجعية بقدر ما يحتاجه منها في اللحظة. كما أنه ليس غيوراً غيرة عقائدية على معتقداته وآثاره الأدبية والعلمية والفنية لأن هذه الأشياء قابلة عنده للتغير والتغيير، وهي ليست ثابتة ثبوت الجبال. فكل شيء عنده يمكن النظر فيه إذا كان سيتحول إلى صفقة رابحة. فالعمل في أمريكا هو المقدس، فالكل يعمل، والكل ينتج، والكل لا يعرف الجزء (الفرد) إلا كعنصر منتج، لأن الكل منهمك في الإنتاج والإنفاق. وهكذا فإن العالم يتحرك إلى الأمام وليس إلى الخلف، وهو يتقدم نحو الأفضل وليس نحو الأسوأ. وعلى الإنسان فيه أن يكون متفائلاً مبتسماً وفي صحة وأناقة دائمتين. وعلى الثقافة كذلك أن تساير العصر وأن تساير هذا الإنسان الذي يعمل ليل نهار، وأن تتحول إلى طاقة دافعة إلى الأمام في الأدب واللغة والموسيقى والعلم.

فاللغة مثلاً عند الإنسان الأمريكي ليست مقدسة، كما نقدس نحن لغتنا ونتحفظ من تطويرها خشية الإساءة إليها، بل عليها هي أن تقبل بالتطويع والتطوير وأن تتسع للمصطلحات الجديدة سواء تلك التي تولدت من ابتكارات العلوم أو تلك التي أنجزت من الاتصال بالثقافات الأخرى. وعلى اللغة ألا

تكون جامدة بقواعدها وألفاظها لأنها في هذه الحالة تكون معرقلة للتقدم. كما أن على الموسيقى أن تواكب عصر السرعة فتبتعد عن الحزن والبؤس والكسل وما إلى ذلك من مظاهر التخلف والجهل والفقر. ومن واجب الشعر والمسرح والرواية أن تدفع بالإنسان إلى المثل الأعلى وهو شحذ الطاقة البشرية على الإنتاج.

إن على الثقافة الأمريكية أن تصدم الآخرين في عقائدهم وأخلاقهم وتراثهم، وأن تخرجهم من الأوهام والأساطير إلى الواقع والمستقبل. فبدون صدمة لن تكون هناك يقظة، وبدون يقظة لن تكون هناك نهضة، وبدون نهضة لن يكون هناك تقدم، وبدون تقدم في مختلف المجالات لن تكون هناك حرية ولا ديموقراطية.

ولكن هل هذا المفهوم للعولمة جديد علينا؟ إن الذين درسوا التاريخ البشري يعرفون أن العولمة بمعنى سيطرة القوي على الضعيف تمثل جدلية لا تنقطع، وأن المنطقة العربية عاشت ظاهرة العولمة في هيمنة القرطاجيين والرومان والفرس والروم في الأزمنة البعيدة، ثم عاشتها في هيمنة بريطانيا وفرنسا في الأزمنة الحديثة، وأخيراً عاشت نفس الظاهرة في هيمنة أمريكا وروسيا منذ 1945.

ولكننا الآن نعيش عصر الهيمنة الأمريكية وحدها، وربما لا يطول هذا الانفراد بالعالم، لأن الهيمنة الثنائية أو تعدد الأقطاب هو التعبير الصحيح عن سنة الحياة، إذ به يتحقق منهج التدافع الذي نص عليه القرآن الكريم. ولا نقول منهج التصادم بين الحضارات الذي قال به بعض المنظرين الغربيين المعاصرين أمثال أرنولد طوينبي، وصمويل هنتنغتون، وآزوولد شبنقلر، وفوكوياما. وما ثقافة الإمبريالية إلا عولمة فرضت نفسها بالقوة على ثقافات الشعوب التي هيمنت عليها. وبالمقابل حاولت الشعوب أن تقاوم هذه الثقافة الغازية فمنها من نجح ومنها من انهزم. وقد عشنا «التبعية» للاستعمار والإمبريالية حتى بعد التحرر الصوري.

ونحن نشهد اليوم بعض الشعوب ما تزال تدور في فلك القوة التي غزتها وفرضت عليها لغتها ونظمها التعليمية والقضائية والفنية والأدبية. لننظر إلى المستعمرات الفرنسية والإنجليزية والهولندية والبرتغالية السابقة، ونتساءل: ألا تطبق هذه الشعوب بعد الاستقلال، النموذج الثقافي الذي تركته الدول المستعمرة السابقة؟ ألا تتوجه بعقلها وقلبها إلى عواصم الدول التي كانت تهيمن عليها في السياسة والعمل والتعلم؟

فما الذي جاءت به أمريكا تحت شعار العولمة؟ الظاهر أنها لم تزد على تسجيل واقع عالمي وهو أنها قد حلت منذ 1945 محل بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوروبية في المستعمرات، وأنها منذ سقوط الاتحاد السوفياتي حلت محل روسيا في ما كان يعرف بالمعسكر الاشتراكي. وقد أخذ المغلوب يقلد الغالب في أوروبا أولاً ثم آسيا وإفريقيا ثانياً، وما الوطن العربي في الوقت الحاضر إلا جزء من المغلوبين على أمرهم. فهل يمكننا أن نقلد الغالبين الأمريكان في شؤونهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ثم لا نقلدهم في حياتهم الثقافية؟ ثم إن المسألة ليست اختيارية إلى هذا الحد، إنها مفروضة فرضاً ومعجونة مع الدقيق الذي نصنعه خبزاً ، وملفوفة ضمن المساعدات التي نتلقاها، وممزوجة في (الكوكا كولا) التي نشربها، ومصنوعة ضمن الأفلام التي نشاهدها منذ عشرات السنين، ومندمجة في العلوم التي نذهب لتعلمها في المدارس والجامعات الأمريكية. ويوم نكتفي بخبزنا، وبالتعلم في مدارسنا، وبصنع أفلامنا ومشاهدتها، ونحفظ لغتنا ونحترمها ستنتهي العولمة تلقائياً أو فلنقل ستكون لنا عولمتنا التي نصدرها لأمريكا وغيرها.

ويبدو لنا أنه بدل أن نَتَنادى للتصدي للعولمة وتعرية وجهها الحقيقي ولعن أدواتها علينا أن نشمر عن ساعد الجد ونجدد بناء أنفسنا كما تتجدد الأمم التي تصنع العولمة وتصدرها للآخرين. وقد فتح العرب والمسلمون بالإسلام عوالم شاسعة ونشروا فيها عولمة الإسلام بكل ما فيها من ثقافة روحية وأدبية وعلمية، ومن نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي لا عهد لتلك العوالم به. فالعرب

والمسلمون لهم تجربة غنية في مجال العولمة يجب أن يستفيدوا منها الآن، ولا ترهبهم الأوامر والنواهي التي تصدر من هذا الجانب أو ذاك. فهم قادرون ـ إذا أرادوا ـ أن يكيفوا أنفسهم مع الواقع الجديد وأن يتقووا بثقافتهم ودينهم وتراثهم الغني، وأن يأخذوا من عولمة غيرهم في الحاضر ما يفيدهم في جولتهم المقبلة. وليس من الحكمة الإشاحة عن تجربة غيرهم والتشبث بتراثهم بذريعة المحافظة عليه من التلف والضياع.

ماضي الثقافة العربية:

اختلطت الثقافة العربية بثقافة الإسلام منذ البعثة النبوية. أما قبل البعثة فقد كان للعرب ثقافتهم السائدة في الجزيرة العربية وهي تتمثل فيما يمكن أن نسميه بالرصيد الشعري وأيام العرب وأساطيرهم، وعقائدهم ولغاتهم (لهجاتهم). وكان مجال نشاطهم الثقافي هو المجالس والأسواق ومسار القوافل والعلاقات مع الجيران. وتثبت الحفريات والبحوث الأثرية والتاريخية والجغرافية أن العرب لم يكونوا بمعزل عن بعضهم البعض، فقد كانوا يلتقون للعبادة والتجارة والحروب والأسفار. وكانت لغة (لهجة) قريش هي الغالبة لوجود الكعبة في مكة، ولكون سدنة الكعبة من قريش، ولكون الأسواق الكبيرة تنعقد في مكة، ومنها سوق الشعر والأدب، حيث تعلق المعلقات، وتنشد الأشعار والأسجاع وتلقى الخطب والأمثال، وحيث يحج الحجيج، ويزور الزوار والتجار، ويأتي الفضوليون من كل فج عميق.

وقد ظهر في هذه البيئة البدوية النائية الأنبياء والحكماء ودونت الأيام والوقائع، وسارت الركبان بالأخبار والحوادث. وقد ثبت حديثاً أن اليمن السعيد كان بيئة حضارية متقدمة في العمران البشري وفي تدوين الكتابة بالمسند، وحفظ الآداب والفنون والنظم الإدارية والسياسية التي عاشت عليها ممالك اليمن قروناً متوالية. كما كان اليمن منذ انهيار سد مأرب منطلقاً لهجرات القبائل العربية شمالاً وغرباً. فاجتازت شمالاً إلى حدود دولتي الروم والفرس،

واستقرت فيما هو اليوم العراق وسوريا وفلسطين، وتوجهت غرباً نحو مصر والسودان والصومال وأثيوبيا، ولم يثنها عن التقدم إلا الحواجز الطبيعية أو الهزيمة العسكرية. وهكذا تقدمت بعض القبائل من البحر الأحمر غرباً إلى صحراء سبستي وبحيرة تشاد، ومنها إلى ليبيا وبلاد المغرب الأخرى. كما أن بعض عرب الشمال اتجهوا غرباً عبر فلسطين ومصر نحو بلاد المغرب أيضاً. وقد حملت هذه القبائل العربية معها لغاتها (لهجاتها) وفنونها ونظمها فأثرت وتأثرت بالثقافة التي وجدتها في بلاد الشام والعراق وفي مصر وبلاد المغرب.

وبظهور الإسلام أخذت الثقافة العربية بعداً جديداً. فتعززت لغة قريش بنزول القرآن الكريم بها، وبذلك توحدت لغة العرب بعد أن كانت لهجات، ووحدة اللغة قوة للأمة وثقافتها وسياستها. وانتشرت اللغة العربية بانتشار القرآن والإسلام. فأصبح المسلمون حيثما كانوا عرباً بالثقافة، وأصبحت اللغة العربية هي أداة هذه الثقافة، وأصبحت قوة هذه الثقافة في توسع الفتوحات، ثم في انتشار الإسلام بوسائل جديدة، ومنها التجارة والطرق الصوفية والزواج المختلط. وتوطدت الثقافة العربية بحركة التأليف والترجمة عن لغات العالم المعروفة عندئذ كاليونانية والهندية والفارسية. فتوحدت الثقافة ووحدت المسلمين من جبال البرانس إلى جبال الهيملايا. وتلك هي عولمة الإسلام وثقافته.

وقد حاول المسلمون عدة مرات الوصول إلى وحدة القطبية، منها حين شق عرب الأندلس طريقهم إلى دمشق عن طريق أوروبا، ولكنهم توقفوا أو أوقفوا في معركة بواتييه، ثم حين حاول العثمانيون الاستيلاء على فيينا فأوقفتهم أسوارها ودفاع أهلها والنجدة التي وصلتهم من جيرانهم. فالبدر الإسلامي لم يكتمل وبقي هلالاً مفتوحاً تعيش داخله أمم أوروبا اليوم من صقالبة وجرمان وفرنجة ولاتين إلى أن انفتح الهلال في الاتجاه المعاكس، بعد عدة محاولات فاشلة كالحروب الصليبية. فحين نجح البرتغاليون والأسبان ثم الإنجليز والفرنسيون في الدوران حول العالم الإسلامي ومحاصرته في البحر الأبيض وما

جاوره ودارت الدائرة على المسلمين ومال هلالهم إلى الأفول. وبدأ عصر العولمة الأوروبية الذي استمر إلى الأمس القريب، أي الحرب العالمية الثانية.

واقع الثقافة العربية:

إن الثقافة العربية كالسياسة العربية كلاهما تحت مطارق المهاجمين وحوافر المغيرين. وكما أن السياسة العربية غير قادرة على التصدي بوسائلها العسكرية والاقتصادية لهذه الجحافل فكذلك هي غير قادرة على الدفاع عن وجودها الثقافي بوسائلها الثقافية. ولعل الضربات الواقعة على رأس الثقافة العربية اليوم أقوى من الضربات الواقعة على رأس السياسة. فنحن نشاهد نوعاً من التسامح وتراخي القبضة الحديدية إذا تعلق الأمر بنظم الحكم والحكام وتصرفات الدول العربية، بينما نشاهد هجوماً كاسحاً على نظام التعليم وعلى تعاليم الإسلام وعلى نبيه (ﷺ) وعلى القيم الاجتماعية المتوارثة وأخلاق المجتمع العربي الإسلامي، ونظام الأسرة، وعلى التقاليد التي تخص المرأة والطفل والإنسان. كل ذلك يجري تحت شعارات مغرية مدروسة تجندت لها نخبة من المجتمع العربي ذاته وتواطأت عليها جيوش من وسائل الإعلام ونسقت الهجوم بينها بدرجات مختلفة، ودعت إلى إزالة كل الحواجز وعدم التوقف عند شخص ولو كان نبياً يوحى إليه، ولا عند فكرة ولو كانت عقيدة مقدسة، ولا عند نظام ولو كان شرعياً أو تربوياً أو نفسياً مبجلاً عند أهله. والجميع يرفع تلك الشعارات باسم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان والقضاء على الفساد والإرهاب والطغيان.

هذا الهجوم المنسق اشترك فيه، كما قلنا، بعض أهل البلد الواحد، سيما الذين يحسون أنهم أقلية وأنهم لن يخسروا شيئاً بالانضمام إلى صف الداعين إلى هدم المجتمع الذي يظنون أنه ظلمهم. فكم من فضائية تعقد الحلقة تلو الحلقة لبث أفكار بعض النخب العربية الموتورة والمزيفة. والأدهى من ذلك أن عدداً من مواطنينا في البلاد العربية أصبحوا مستغربين يعملون مع بعض المستشرقين

ومع المراكز البحثية المنتشرة في الجامعات والمنتديات ليكشفوا عن نقائص مجتمعاتهم وعيوب ثقافتهم و«انحطاط» أخلاق أهلهم وتعصبهم الديني وتزمتهم الاجتماعي ومعاداتهم للتغيير والتجديد، ويحرضون عليهم ويستعدون ضدهم المتربصين الطامعين في السيطرة على ثروات الثقافة العربية الإسلامية. وهذه الحملة تحمل في طياتها أحقاد القرون الغابرة على الإسلام والمسلمين وعلى العرب بالخصوص لأن نبي الإسلام ظهر منهم ولأنهم الدعاة الأوائل للإسلام. وقد التقت مصالح هذه السنفونية غير المتجانسة الأنغام والآلات مع مصالح الحركة الصهيونية في هدم منار الثقافة العربية الإسلامية.

دور المجامع اللغوية:

ولكي تواجه الثقافة العربية هذه الحملات المنسقة عليها أن تعمل في نفس الوقت على تطوير نفسها لأن التطور من سنة الحياة، كما أشرنا، وأن تسرع الخطى في ذلك لأن قطار التقدم يغذ السير ولا ينتظر. ولأن التطور يقتضي معرفة ما عند الآخر والاستفادة منه عند اللجوء للتغيير.

ونعتقد أن أول ما يتعرض للنقد والطعن في هذا المجال هو اللغة باعتبارها رمزاً من رموز وحدة الأمة وثقافتها، وباعتبارها لسان القرآن الكريم الذي هو وعاء الإسلام. كانت اللغة العربية قد تعرضت في الماضي إلى النقد من بعض الأفراد سواء كانوا من ملتها أو غير ملتها. فقد وسموها بالصعوبة في القواعد والقصور في التعبير والجمود في مسايرة العصر وعدم القدرة على نقل المعرفة. واقترحوا لذلك بدائل مثل كتابتها بالحروف اللاتينية وتيسير نحوها وإملائها. أما الآن فهي تواجه النقد من دول ومؤسسات لها مصلحة في إحلال لغة أخرى محل العربية لبسط العولمة وتوحيد الاتصال بين أجزاء العالم الواحد الذي تدعو إليه.

وفي مواجهة هذا الامتحان العسير على اللغة العربية أن تثبت أنها قادرة على التحدي وأنها تملك من أسباب التطور ما تساير به العصر وتحقق به النصر.

ومن الطبيعي أن تكون المجامع اللغوية هي المعنية بالدرجة الأولى بأداء هذه الرسالة. فالمطلوب منها هو تجديد مقاربتها لتطوير اللغة العربية وتحديث أدواتها ومراجعة أدائها وبرامجها، وهي مهمة لا تعني فقط سدنة اللغة بل تشمل المؤسسات ذات العلاقة كالجامعات، والجمعيات الأدبية واتحادات الكتاب، ودور النشر ومراكز البحث والترجمة. فالمطلوب من هذه جميعاً الإسهام في دعم وتطوير اللغة العربية في عصر العولمة الجديدة باعتبار اللغة العربية هي اللغة القومية ولغة التراث ولغة القرآن الكريم. وكما أن الإصلاح مطلوب في السياسة والاقتصاد فكذلك هو مطلوب في الثقافة ولا سيما اللغة.

ومن الواجب أن يشمل التطوير مختلف المؤسسات الثقافية والإعلامية أيضاً وليس اللغة وحدها. ذلك أن العولمة ستتجه بالدرجة الأولى إلى المواطن العربي لتؤثر فيه وتسحبه من محيطه وتجذبه إلى محيط ثقافي جديد بواسطة الإعلام الموجه القائم على مبادىء علم النفس وحاجة الإنسان إلى التكفل والتأقلم والمنفعة. فالمسرح والسينما ومعاهد والموسيقى وفنون الرسم والنحت والخطاطة... يجب أن يدخلها أيضاً التغيير المدروس الهادف إلى حماية الذات والتراث. وهذه المؤسسات في الحقيقة يجب أن تخدم المبادىء العليا للمجتمع كالاعتزاز بالوطن والقيم والثقافة والأخلاق الراقية والسمو الحضاري. وهذا لا يعني معاداة التجارب الأخرى في الحضارة التي قد تأتي بها العولمة، فلدى الطرف الآخر ما يقدمه أيضاً من علوم وآداب وفنون وتكنولوجيا، وكلها يمكن أن تقدم فائدة كبيرة للمواطن العربي دون أن يتخلى عن ثوابته. وعلى هذه المؤسسات الثقافية أيضاً أن تحارب العنصرية وأن تدعو إلى الحرية والمساواة واحترام الإنسان والتشاور ورفض الاستبداد، فكل هذه المثل العليا دعا إليها الإسلام وأخلاقنا ونادى بها علماؤنا ومفكرونا عبر العصور.

نحن ندرك أن الصراع بين الثقافة العربية والعولمة سيكون صعباً وطويل المدى، وسيستخدم كل منهما سلاح الهجوم والدفاع الذي يملكه. وقد عاشت الثقافة العربية قديماً صراعات من هذا النوع مع عولمات أخرى وانتصرت عليها

بدفعها أحياناً وباستيعابها أحياناً أخرى. والثقافة التي تملك حصانة قوية هي التي تستطيع أن تسوعب الثقافة المهاجمة فتخضعها لناموسها وتستفيد من تجربتها وتكيفها حسب حاجتها.

تجربة الجزائر:

وأمامكم تجربة الجزائر فقد مضى هذا البلد قرناً وثلاثين سنة تحت مطارق العولمة التي دخل معها الجزائريون في صراع غير متكافىء في مختلف المجالات كاللغة والتعليم والقيم الاجتماعية والمؤسسات الدينية والثقافية، واتخذ الصراع معها شكل مقاومة شرسة. صحيح أن بعض الثوابت قد انتهكت وأن بعض القيم قد ديست، ولكن داعي النهضة حين دعا سنة 1954 ضرب ضربة لازب واستعاد اللغة العربية شبابها وللإسلام حيويته وللثقافة العربية مكانتها. ومع ذلك فالجزائريون غير غافلين عما يجري اليوم عندهم من تداخل العولمة الفرنسية والأمريكية، ولكنهم يعملون على تفادي التصادم بل يريدون أن يوظفوا العولمتين لصالح التطور والتقدم، أي لفائدة الثقافة العربية الإسلامية.

ولا أدعوكم هنا لاتخاذ الجزائر قدوة في مواجهة العولمة الجديدة، كلا، ولكني أعتقد أنه من صالح الثقافة العربية أن تتوحد برامجها في الوطن العربي كله وأن لا تغرق في الخصوصية التي تشتت الجهود وتبعث على الفرقة والتمايز. فالجزائر لا تستطيع وحدها أن تقاوم العولمة في اللغة والآداب والفن والإعلام، بل لا بد من تضافر الجهود والعمل المشترك والمنسق. ولتبق الخصوصية داخل التعددية في الثقافة العربية الواحدة. أما المواجهة فيجب أن تكون موحدة.

الجزائر 2005/01/24

قيمة المخطوط الوطنية

للمخطوط قيم عديدة تجعله في قمة اهتمام الإنسان باعتبار المخطوط في حد ذاته موروثاً إنسانياً. وهذه القيم منها العلمي والفني ومنها السياسي والاجتماعي والاقتصادي. ويجب ألا نفاجأ حين نرى الدول والمؤسسات تنشىء المراكز لحفظ المخطوطات وتتفنن في صيانتها وتبذل الأموال في اقتنائها. وقد أصبح الباحثون يعرفون أن الدول تنسخ المخطوطات والوثائق على أشرطة وغيرها، ولا تبقي المخطوط في مكان معروف زمن الحروب والأخطار، وأنها تغار عليه كما تغار على مقدساتها وكنوزها الثمينة، لذلك فهي تبعده عن أماكن الخطر وتحصنه بكل إمكانات التحصين. وقد رأيت بنفسي في إحدى البلدان أنهم حفروا قريباً من ضفة نهر كبير مساحة شاسعة داخل أرض مغطاة بأشجار الغابة وجعلوا في تلك المساحة مركزاً لتخزين الوثائق والمخطوطات بعيداً عن أعين الخطر الطبيعية والبشرية وزودوا المركز بكل ما يحتاجه من تهوية وإضاءة مناسبة ووسائل صيانة.

قد يكتسب المخطوط قيمته الفنية كتحفة أثرية ذات خط جميل وتاريخ بعيد، تعود به الذكرى إلى مؤلفه الأصل وناسخه الأول ومزخرفه صاحب الفضل في إتقانه. ويدخل في هذا المصاحف وبعض المخطوطات النادرة التي ترجع إلى عصور تاريخية متقدمة.

وتظهر القيمة الاجتماعية للمخطوط في انتمائه إلى المالك الأصلي أو الذي آل إليه أولاً عبر تبادل الأيدي عليه، فنعرف مما كتب عليه من تملك اسم

صاحبه الأول وصاحبه الأخير أنه قد مر بسلسلة من الأسماء التي تفيدنا في معرفة المستوى الاجتماعي، وفي أي مكتبة هو، عامة أو خاصة، مهدى أو موقوفاً، كاملاً و ناقصاً. ومن حالة المخطوط نعرف أيضاً حالة المالك، غني هو أم فقير، فرد هو أو مؤسسة، وفي أي فترة زمنية وأي منطقة جغرافية هو من العالم.

وربما تكون القيم العلمية للمخطوط من أبرز هذه القيم التي نتحدث عنها: أولاً ما هو تخصص المخطوط، الفقه أو الأدب أو اللغة أو التاريخ أو الفلك أو غيرها من المعارف. وبقدر الحاجة إليه في التخصص بقدر ما تبرز قيمته العلمية. فإذا موضوعه مثلاً في التاريخ المحلي في فترة معينة نفتقد فيها المراجع وتغيب فيها الوثائق فإن قيمة المخطوط العلمية تصبح ذات أهمية قصوى بخلاف ما لو كان هناك غيره أيضاً في نفس الموضوع والمكان والزمان، فالمخطوط في هذه الحالة يصبح مكملاً لمعلومات غيره. وإذا كان المخطوط يشكل اكتشافاً في العلوم لم يكن متوقعاً لأحد العلماء العرب المسلمين في فترة التواصل العلمي مع الحضارات الأخرى أو حتى في فترة الجمود السياسي الذي اختفى فيه النشاط العقلي، فإن المخطوط قد يمثل حدثاً عالمياً لأنه يضيف معلومة جديدة إلى معارفنا الإنسانية.

وفي عصر تتنافس فيه الحضارات والدول والمؤسسات على التفوق والهيمنة يكتسب المخطوط أهمية سياسية خاصة، ربما لم يكن القدماء يولونها أي اهتمام. فالدول الحديثة تحرص على اقتناء المخطوطات وتجميعها عندها لا باسم الغيرة القومية فقط ولكن باسم البعد الحضاري ولفت الأنظار إليها كمركز إشعاع يقصده الباحثون مهما بعدوا. وقد نضيف إلى هذا الميدان السياسي العداء بين الدول. فإسرائيل اليوم تقتني وتحفظ المخطوط العربي حيث تجده أولاً ليستفيد منه علماؤها وباحثوها، وثانياً لتنشر أو تحجب منه ما تشاء، متى شاءت، وثالثاً لتجعل الباحثين العرب عالة على مراكز المخطوطات في الدولة العبرية، أو تبقى معلوماتهم مبتورة أو غير موثقة.

وفي عصر شاعت فيه السياحة والتفاخر بالمعالم والآثار والتحف يلعب المخطوط دوراً بارزاً في جذب السياح العلماء أو السياحة العلمية. فالمخطوط في هذه الحالة يصبح مصدراً لدخل من العملة الصعبة للبلاد وتجميع الثروات، بالإضافة إلى أن الذي سيطلع على المخطوط سيقوم بأشياء أخرى في البلاد هي من صميم السياحة كالجولات ولقاء الناس والتعرف على العادات والتقاليد، وغير ذلك.

لقد كان نهب المخطوطات وتهريبها والتحايل عليها بالشراء أمراً شائعاً عند الأفراد في الماضي. وقد يظهر أنه أمر يتعلق بالمال أي أن الذي حاز المخطوط بالوسائل المذكورة إنما قصده بيعه بثمن عال لمن يحتاجه. فهو مصدر للكسب كالتحف الفنية. ولكن الواقع أن الذين يحصلون على المخطوطات بالطرق المذكورة إنما يقصدون غايات أخرى، منها تجريد بلد المخطوط من ثرواته ومصادره، ومنها إعدام المخطوط الذي قد يدين موقفاً ويؤكد حقيقة تاريخية أو ينفيها. ومنها الربح المادي الآني أو المؤجل باعتبار أن ملكية المخطوط في حد ذاتها تعتبر إحدى وسائل التوفير.

في العصور القديمة كانت المخطوطات ضحية للحروب والغارات. فكانت تتلف أو تحرق وقلما كانت تنهب، بمعنى تنقل تعسفياً من بيئتها إلى مكان أخر للاستفادة منها وحرمان مالكيها منها. ومن ذلك حريق مكتبة الإسكندرية الشهير، وإتلاف مكتبات بغداد على يد هولاكو، ومكتبات أهل الأندلس أثناء الحروب بين المسلمين والأسبان. ولدينا في العصور الحديثة نهب مكتبات الجزائر على يد الفرنسيين وأخيراً نهب وحرق مكتبات العراق على يد الأمريكان وحلفائهم.

بالنسبة إلينا نحن الجزائريين لقد بعثرت مخطوطاتنا وتفرقت أيدي سبأ -كما يقولون- فبالإضافة إلى الحروب المتوالية التي أتلفت وأحرقت المخطوطات الخاصة والتي تملكها الزوايا والمساجد، هناك الجهل بها وإتلافها

عمدا إما لأنها أجزاء من القرآن الكريم وإما للانتقام الحضاري ـ إذا صَحَّ التعبير. ولم يبدأ الفرنسيون، كسلطة في صيانة المخطوطات إلا بعد أن استتب لهم الأمر وتأكّدوا أنهم سيطروا على المدن والمواقع الثقافية في البلاد. أما على المستوى الفردي فقد تولى بعض الضباط والمترجمون والمستشرقون نهب المخطوطات لأنفسهم أو لإهدائها «إلى بلدياتهم ومرجعياتهم الثقافية والدينية. وتمتلىء يوميات ومذكرات وأدبيات المرحلة بالإشارة إلى ذلك، أما أول من كان يجمع المخطوطات باسم السلطة أو تحت حمايتها فهو أدريان بيربروجر الذي يعتبر المؤسس الفعلي للمكتبة العمومية الجزائرية في العاصمة. وطريقته في ذلك معروفة وقد تحدثنا عنها في كتابنا الثقافي.

ومن الأسف أننا لم نكون إلى الآن جيلاً يعرف قيمة المخطوط. وما دام القائمون لا يعرفون هذه القيمة فلا نتوقع منهم صيانته ولا حتى المحافظة عليه. لقد ظلت المخطوطات التي دخلت المكتبة العمومية (الوطنية) مفهرسة ومُصَانة وإنْ لم تبلغ درجة الكمال. ولكن شروط المحافظة عليها كانت متوفرة. ثم أخذت الأمور تتدهور بعد الاستقلال مثل عدد من الثروات العامة. وهنا يجب أن نصارح أنفسنا لأننا أمام مسؤولية تاريخية، فنحن إلى الآن، وبعد أكثر من أربعين سنة من الاستقلال، لا نملك فهرساً لمخطوطاتنا. وما حصل من طبع إنما هو إعادة طبع لعمل قام به (فانيان) منذ آخر القرن التاسع عشر. لقد أضيفت مخطوطات كثيرة إلى الرصيد المطبوع ولكن أين فهرسته؟ هل هو سر من الأسرار؟

أما خارج المكتبة الوطنية فقد قام أفراد حسب علمي ـ بمحاولات يشكرون عليها، ففهرسوا بعض المكتبات الخاصة فعرفنا أن رصيدنا ما يزال في أيدي أمينة، ولكنها أيدي لا تملك الوسائل العلمية للحفظ والصيانة. كما أن طريقة الفهرسة ليست موحدة وقلما تخضع لقواعد ثابتة سهلة التناول أو كاملة، إنما هي تشمل ما يسمح به أصحابها/ مالكوها للشخص المفهرس، وكثير من أصحاب هذه المخطوطات يخشون أن تصبح مخطوطاتهم معروفة للباحثين وهم يريدونها مجهولة.

وعندي أن من أسباب تلف وفقدان مخطوطاتنا في المكتبة العمومية الأمور التالية:

1 ـ عدم حصر المسؤولية في جهة تخضع للمراقبة والمحاسبة.

2 ـ إسناد وظيفة محافظ المخطوطات لمن لا يعرف قيمتها.

3 ـ إخراج المخطوط إلى جهة سلطوية تعتبر نفسها فوق قواعد الإعارة فيضيع المخطوط عندها أو في الطريق إليها أو منها.

4 ـ عدم فهرسة المخطوطات ووضع الفهرس بين يدي القراء، ثم متابعة الفهرسة كل بضع سنوات لمعرفة المطاف.

5 ـ عدم تصوير المخطوطات على الأشرطة ونحوها واستعمال هذه عند طلب المخطوط بدل المخطوط نفسه.

6 ـ عدم المراقبة الضيقة لطالبي الإطلاع على المخطوط وتصويره باسم الصداقة أو الثقة مما يتيح للمطلع العبث به كما يشاء.

إن الغيرة على المخطوط يجب أن ترقى إلى الغيرة على رموز السيادة الوطنية، فكما لا نتحمل إهانة هذه الرموز أو الاعتداء عليها كذلك يجب ألا نتحمل إهانة مخطوط أو الاعتداء عليه. فهو بالإضافة إلى كونه ثروة فكرية ومادية جزء من التراث الذي يمثل بدوره الهوية الثقافية الوطنية.

2004/10/26

قراءة في بعض الرسائل
الجامعية الأمريكية عن الجزائر المعاصرة

الذين عاشوا وقرءوا ما كان يكتبه الغربيون عن الجزائر قبل 1962 يعرفون مدى التحول الذي طرأ على ما أصبح يكتبه الغربيون أنفسهم عن الجزائر بعد 1962. كانت الجزائر لا تكاد تذكر إلا مرتبطة بفرنسا، فهي جزء منها، قطعة من إمبراطوريتها ورمز من رموز سيادتها ومنطقة من جعرافيتها وولاية في نظامها الإداري. فهي ليست بلاداً قائمة الذات وإنما هي ذيل من ذيول فرنسا، أو تابعة لها في مختلف المجالات.

أما في ميدان البحث العلمي فلا تكاد الجزائر في العهد الاستعماري تذكر إلا كحقل لتجارب النباتات، وغرائب الحيوانات وظاهرة من الظواهر الأنثروبولوجية، وتربة للاكتشفافات الأثرية، وميدان لأنشطة التنصير. أما تاريخ الجزائر العربي الإسلامي، وآدابها، وفنونها وعلومها وتطورها الإداري والقضائي والمالي والسياسي... فلا نكاد نعثر عليه. وإذا أشار بعض الباحثين الغربيين غير الفرنسيين إلى شيء من ذلك فإنما ينقله عن الفرنسيين أنفسهم لأن هؤلاء كانوا محتكرين الكتابة عن الجزائر (الفرنسية)، لذلك ينقل عنهم زملاؤهم ذلك على أنه عين الحقيقة.

كنت من الذين عاشوا في الغرب قبل وبعد استقلال الجزائر. وكنت أوائل الستينات أبحث عن الجزائر التي ضاعت في متاهات التاريخ كما ضاعت (نجمة) كاتب ياسين. وكنت أغضب وأتوتر وأحزن في ذات الوقت من غياب الجزائر

قبل الاستقلال، أو حين أجد الباحثين يكتبون عن مختلف البلدان ما عداها. ولا شك أنني لم أكن وحدي في ذلك، فالجزائريون الآخرون أيضاً كانوا يشعرون نفس الشعور حين يبحثون عن بلادهم في الرسائل الجامعية والأكاديمية عموماً، فلا يجدونها إلا ضمن القفص الذي وضعتها فيه فرنسا.

ولحسن الحظ وبفضل الثورة انقضى ذلك العهد، وأصبحنا نقرأ في ملخصات الرسائل الجامعية في البلاد الغربية نفسها، وفي الإحصاءات المتعلقة بالجزائر، ما يبهر ويثير الدهشة، وفي نفس الوقت يثير التحدي، لأنه إذا كان الغربيون يكتبون عن الجزائر فالواجب أن تكون أغلب مصادرهم ومراجعهم أو على الأقل الضروري منها، جزائرية وليست فرنسية، فأين نحن؟ أين بحوثنا المصدرية؟ وأين موسوعاتنا وقواميسنا واكتشافاتنا الأثرية وإنجازاتنا العلمية؟ إنه لم يعد مقبولاً أن نعلق على مشجب الاستعمار كل أخطائنا وتخلفنا وكسلنا. فإذا كان لثورتنا مبرر مقنع فهو أننا أهل لحكم أنفسنا بأنفسنا، والحكم يقتضي مقومات أساسية، منها العلم والعمل والنظام والانضباط والإرادة القوية في الوصول إلى الهدف الأسمى، وهو التفوق.

هذه مقدمة أقدم بها كلمتي عن قراءة في بعض رسائل الدكتوراه الجامعية الأمريكية عن الجزائر بعد الثورة.

لقد أتيحت لي فرصة الاطلاع منذ سنة على مختصرات الرسائل الجامعية والبحوث في المجلات المتخصصة عن الجزائر. فخرجت منها بنتيجة مثيرة. فقد بلغت البحوث 1802 بالأنجليزية، و789 بالفرنسية، بينما بلغت البحوث باللغة العربية 37 فقط وذلك بين سنوات 1994 ـ 2003. ومن الملاحظ أن هذه البحوث مأخوذة من المجلات المسجلة فقط في السجل الدولي ISSN.

أما رسائل الدكتوراه فقد بلغت خلال نفس الفترة 409 رسالة باللغة الإنجليزية، وهي في أغلبها من الجامعات الأمريكية ولكن بعضها من الجامعات البريطانية والكندية.

ومما يلاحظه المطالع هو الاهتمام المتزايد بموضوعات تتعلق بحياة الجزائريين من الداخل وليس في علاقاتهم مع الخارج أو حتى مع الاستعمار السابق. ومن الأمثلة على هذا الاهتمام بداخل الجزائر العناية ب: الأدب النسائي، الأدب الفرنكفوني، الثقافة البربرية، الحركة الإسلامية، الحضور اليهودي، المسائل الأنثروبولوجية، التساؤل حول الهوية كصدى لما يتردد عندنا. هذا بالإضافة إلى موضوعات كثيرة التداول مثل: النفط، الاقتصاد، العلاقات الخارجية، النظام السياسي، مقارنة ما حدث في الجزائر بما حدث في بلدان أخرى كالمغرب العربي، الفيتنام، تركيا، مصر، إلخ.

وسأضرب أمثلة من رسائل الدكتوراه لنقف معاً على نوعية الاهتمام ومداه حسب ميدان الاختصاص.

1 ـ في الأدب:

يلاحظ غلبة الاهتمام بالأدب والثقافة بصفة عامة على الرسائل الجامعية فيما يتعلق بالجزائر بعد الاستقلال. فالأدب ميدان لمعرفة الهوية المتمثلة في اللغة والأصول العرقية والعلاقة مع الآخر. ولذلك جاء الاهتمام الواضح بأدباء الجزائر الذين يكتبون باللغة الفرنسية (الأدب الفرنكوفوني). أما الأدب العربي الجزائري فليس هناك اهتمام به. فكأن الجزائر وإن استقلت عن فرنسا سياسياً فإنها بقيت ثقافياً مرتبطة بها. وقد برزت أسماء بشكل ملفت للنظر، مثل آسيا جبار، وألبير كامو، وليلى صبار، وإيمانويل روبلس، و محمد ديب، وكاتب ياسين، ورشيد ميموني، وفرانز فانون...

وكان هؤلاء يقارنون بكتاب فرنكفونيين في بلدان مجاورة أو بلدان إفريقية، ولكنهم لم يقارنوا مطلقاً بأي كتاب فرنكوفينين في مصر أو لبنان مثلاً، رغم وجودهم. وهكذا نجد عدة رسائل تتحدث عن آسيا جبار في عدد من أعمالها وعن الطاهر بن جلون، وإدريس الشرايبي وكاتب ياسين وفاطمة المرنيسي. نجد ذلك مثلاً في أطروحات الدكتوراه التالية:

1ـ الأجسام المزعجة: الأدب والفيلم الفرنكفوني ما بعد الاستعمار، لماري لوتون Marie Lauten جامعة ميشيجان 1997. (وهي رسالة تعالج ثلاث روايات لآسيا جبار وهي الجدار والفنطازيا، والسجن: كم هو واسع، وبياض الجزائر. وثلاثة أفلام هي: إفريقيا، ونهاية نبي، وسأنزع ريشك).

2 - كيف يخبرون عن تاريخهم؟ ولمن؟ الروائيون الجزائريون الفرنكفونيون المعاصرون في مواجهة تهميشهم، لجيل كارجوزا Gilles Carjuzaa، جامعة كالورادو ـ بلدر، 1996.

3 - لوحات من الفنطازيا: الصوت والتمثيل أو الروايات المغاربية الفرنكفونية، لسوزان كوش S. Gauch جامعة ولاية نيويورك، 1936.

4 - قراءات على الطريقة البروطينية (Protean)، لماري فيزو M. Visoi، جامعة تورنطو (كندا)، 1996 (دراسة مستمدة من أسطورة بروتس Pruteus التي تمثل إله الحرب المتخفي في زي يخيب ظن أتباعه. اتبعت في الدراسة الطريقة التحليلية المستمدة من الأسطورة نفسها، وهي تهدف إلى إعادة النظر في أدب الستينات والسبعينات ومقارنة أدب الجزائر (الفرنكفوني) بأدب الزائير - الكونغو).

5 - الرق الأبيض في إفريقيا: مكانة كتابات الأسرى الأمريكيين في شمال إفريقيا (برباريا Barbary) في الأدب الأمريكي، لميشيل بابلر M. Baepler جامعة منيسوتا، 1996 (ذكر الباحث ستة من الأسرى، منهم جيمس كاثكارت، وروبرت آدمز. . . ممن كانوا أسرى في الجزائر وتونس وطرابلس ومراكش).

6 - من الكتابات القديمة إلى استقبالها: تداخل النصوص الإسلامية عند فاطمة المرنيسي وآسيا جبار وإدريس الشرايبي والطاهر بن جلون، لكارين بوزغيت C. Bouzget، جامعة ميشيقان، 1997. (أطروحة عن التراث الشرقي (القرآن، الحديث، التصوف) والتراث الغربي (اليهودية، المسيحية. . .) في

كتابة الكتّاب المذكورين).

ويمكنني أن أستمر في عرض العناوين ومحتوياتها إلى العشرات من الرسائل، فما بالك بالبحوث المتخصصة والمستمدة من نصوص الواقع والتاريخ والأسطورة، مثل: تثوير الرجولة في فرنكفونية أدب الشمال الإفريقي: ما بعد الاستعمار والتحرير والذاتية، لسكوت هوملر S. Homler (1997). وفشل السياسة الفرنسية في الجزائر بين 1930 ـ 1954 (الاندماج، والمواطنة الفرنسية... من خلال المدرسة وغيرها) لجونثان غوسنيل J. Gosnell (1998).

2 - في التاريخ:

تأرجح ميزان التاريخ في رسائل الدكتوراه من العهد الاستعماري الفرنسي إلى ما بعد الاستقلال، بل هناك رسائل تناولت التاريخ ما قبل 1830 . من ذلك النماذج التالية:

1 - مواجهة الرأي العام الفرنسي للحرب الجزائرية 1954 ـ 1962، لكون ويتفيلد C. Whitfield، جامعة برندس، 1997 .

2 - حرب الاستقلال الجزائرية (عن الصراع بين الجزائريين والفرنسيين من أجل كسب الدعم الدولي، وهو الصراع الذي فاز فيه ـ حسب الباحث ـ الجزائريون. وقد استعمل الباحث الوثائق الدولية، والمقابلات في أوروبا وأمريكا وشمال إفريقيا) لجيمس كونلي، J. Connely، جامعة يال، 1997.

3 - من الاندماج إلى الاستقلال: الروائيون المتنورون évolués واستعادة الهوية الجزائرية: 1939 ـ 1962 لروبرت فيرفاي R. Vervaet، جامعة إلينوي في شيكاغو 1995 (عن الروائيين الفرنكفونيين الجزائريين ودورهم في استعادة هويتهم وهوية مواطنيهم).

4 - الإسلام وسياسة المقاومة في الجزائر: 1883 ـ 1992، لرينيه

لارومان، جامعة يال، 1995 (توثيق وتحليل للمقاومة الوطنية باتخاذها الإسلام شعاراً للحصول على الدعم الجماهيري).

5 - المثقفون الفرنسيون والحرب الجزائرية: التخلص من الاستعمار، والعنف وسياسة الهوية. لدين لوسوير D. Le Sueur، جامعة شيكاغو، 1996 (عن أزمة المثقفين الفرنسيين أمام هوية جديدة فرضتها الثورة الجزائرية).

3 - في العمران:

ألفت النظر إلى تعدد الرسائل في العلوم السياسية. وعلم الاجتماع، والاقتصاد، واللغة، وعلم النفس... وأتوقف هنا عند عنوانين فقط:

الأول: حول عمران مدينة الجزائر المخطط له من قبل المهندس المعماري الفرنسي الشهير، لوكوربوزييه Le Corbusier. فهناك رسالة دكتوراه عنه بعنوان: لوكوربوزييه المفاوض عن الحداثة، ممثلاً لمدينة الجزائر من 1930 ـ 1942، لشيري ماكيه Sherry Mckay، جامعة كولومبيا البريطانية (كندا)، 1994.

وتاريخ 1930 يمثل الاحتفال بمرور مائة سنة على احتلال مدينة الجزائر، وتاريخ 1942 يمثل سيطرة جيوش الحلفاء (أمريكا وبريطانيا) على مدينة الجزائر والاحتفاظ بها إلى أن حلت بها لجنة فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديجول. ومما يلفت النظر أن لوكوربوزييه هو الذي خطط مدينة الجزائر (الفرنسية) للقرن الثاني من الاحتلال. وقد سار على منواله جيل من المهندسين المعماريين الفرنسيين في المدن الجزائرية الأخرى، وهو التصميم والطراز الذي ورثته الجزائر المستقلة. فماذا بقي منه اليوم؟

الثاني: هو الندوة التي انعقدت سنة 2002 بجامعة كورنيل (أمريكا) تحت عنوان (الجزائر في لغات الآخرين) Algeria in Others Languages. وقد جمعت بحوث هذه الندوة ونشرت بنفس العنوان بتحرير آن إيمنويل بيرجر A. E. Berger، جامعة كورنيل، 2002، 246 ص.

عقدت الندوة بمناسبة إنشاء برنامج للدراسات الفرنسية في الجامعة المذكورة فافتتحوه ب (الجزائر في اللغة الفرنسية وخارجها: السياسات الثقافية في الجزائر بعد الاستقلال). وقد شارك في هذه الندوة عدد من المهاجرين «الجزائريين» (أصحاب الأقدام السوداء وغيرهم) سواء كانوا قد هاجروا إلى فرنسا أو إلى أمريكا، منهم رضا بن سماية وحفيظ قطايفي (كلاهما في أمريكا)، وجميلة سعدي مقران (فرنسا). وهناك آخرون ولدوا في الجزائر مثل هيلين سيكسو H. Cixous ولوسيت فلنسي، وهما فرنسيتان يهوديتان الأولى من الجزائر والثانية من تونس.

كما شارك في الندوة عمر كارلييه وهو مذكور في الكتاب على أنه جزائري من أصل فرنسي، «أجبر» على النزوح إلى فرنسا سنة 1993. ولد باسم جان بول كارلييه، وأدى الخدمة العسكرية في الجزائر في آخر الستينات. وقد أحب ـ كما يروي الكتاب ـ فتاة جزائرية فاعتنق الإسلام لكي يتزوجها، واستقر بوهران حيث بقي يدرس إلى تاريخ نزوحه إلى فرنسا.

ومن الملاحظ أن كارلييه زعم في هذه الندوة أن أسم القطر الجزائري (L'Algérie) في اللغة الدارجة هو اسم مذكر، وأنه مأخوذ من النطق الفرنسي: الجزاير El Djazair، بينما اسم الجزائر في اللغة العربية الفصحى ـ كما يقول كارلييه ـ هو اسم مؤنث.

أما عبد الكبير الخطيبي المغربي فاسمه مذكور في كتاب الندوة على أنه يعيش ويعمل في المغرب حيث يستعمل اللغة الفرنسية بالدرجة الأولى.

كما ورد في كتاب الندوة اسم ريجانا خنمة Rayjana Khanma التي تحدثت عن طريقة كلام النساء الجزائريات عندما يتكلمن عن الإرهابيين.

وقد انتهت الندوة، كما تخبرنا محررة الكتاب، إلى أن تجربة التعريب في الجزائر باءت بالفشل.

خـــاتمـــة

من السهولة أن يلاحظ المطالع للعناوين السابقة اختلافها عما اعتدنا عليه. فهي ليست عناوين معلوماتية سردية تذكر المتعارف عليه من الأسماء والأحداث والرموز، ولكنها عناوين تحليلية تقييمية لما وراء المنظور تهدف إلى المقارنة بين عدة عناصر أو شخوص سيما في مجال الأدب والتاريخ والثقافة. فالعناوين تظهر قصيرة ولكنها تأخذ في الاتساع مع تطور دلالات البحث. ومثال ذلك المقارنة بين الجزائر وعدة بلدان آسيوية وإفريقية وحتى أوروبية (إستونيا) تشيع في هذه الرسائل الجامعية.

ومن جهة أخرى ننبه إلى أننا اكتفينا بالرسائل التي كتبها غير عرب ومسلميـن عن الجزائر، ولم ندرج في النماذج التي سقناها الأسماء العربية سـواء كانت لجزائريين أو غيرهم، انطلاقاً من كون الباحثين العرب والمسلمين يختارون موضوعات بحوثهم من وحي ما تهتم به الجامعات الأجنبية نفسها. فهناك تيار فكري داخلي في الجامعات يعكس الرأي العام وحتى الرسمي فيتأثر به الطلبة الذين جاءوا لتعلم أصول البحث والحصول على درجة علمية.

وأخيراً نعيد التركيز على أننا اكتفينا ببعض التخصصات والتنبيه من جديد على أن التخصصات التي عالجتها الرسائل الجامعية قد شملت تخصصات كثيرة أخرى لم نذكرها ولا سيما في المجالات الاقتصادية والعلاقات الدولية.

ونحن نرجو أن تستفيد بحوثنا من هذه الرسائل الجامعية التي انطلقت بفضل ثورة نوفمبر. ذلك أن البحث العلمي لا يعرف الحدود الجغرافية ولا السياسية. ألسنا في عصر يسمونه عصر العولمة؟

ملاحظة:

القراءة هنا لا تعني قراءة نصوص الرسائل وإنما قراءة عناوينها وأحياناً ملخصاتها، وهي الملخصات التي يكتبها أصحابها في شكل مركز ومكثف لكي يعرف الآخرون مضامينها.

2004/11/08

ذخيرة الأواخر والأول

إذا كان العالم قد شاهد بالصورة والصوت هذه الأيام ما فعله الاحتلال الأمريكي بآثار وثروة العراق، فإنه لم يشاهد ما فعله الاحتلال الفرنسي سنة 1830 بآثار ومصادر تاريخ الجزائر. فقد اكتفى العالم في هذه الحالة بالسماع عما حدث لثروة الجزائر التاريخية والفكرية فصدقه البعض وشكك فيه آخرون لأنهم لم يشاهدوا التخريب والنهب بأعينهم وإنما قرأوا روايات مختلفة. يتذكر الإنسان هذه المقارنة وهو يتابع حياة النخبة الجزائرية التي عاشت محنة الاحتلال الفرنسي في غياب الموثقين الصادقين والشاهدين المحايدين ووسط حصار شديد من التعتيم والانفراد بالضحية بحيث لم تتسرب أخبار «الجريمة» الحضارية إلى خارج الجزائر، ولم تطف بعض أخبارها على السطح إلا من خلال يوميات ومدونات فردية من بعض شهود العيان.

ومن تداعيات النهب والتخريب هجرة النخبة المثقفة التي كانت تمتلك الوثائق والمخطوطات وكانت هي المعنية بحفظ وتقدير قيمتها المادية والمعنوية. فقد تفرقت النخبة الجزائرية شرقاً وغرباً، هروباً من جحيم الاحتلال وانتظاراً لساعة العودة بعد خروجه، تاركة وراءها ثروتها من الوثائق والمخطوطات في قبضة ريح لا تبقي ولا تذر. ويصدق هذا على النخبة الجزائرية التي هاجرت إلى المغرب الأقصى والتي منها صاحب مخطوط (ذخيرة الأواخر)، أبو حامد العربي المشرفي.

والواقع أننا كنا تناولنا المشرفي وأعماله في عدة مناسبات من بحوثنا،

ومنها دراسة ما عرفناه من إنتاجه في بحث خاص نشر منذ ربع قرن بعنوان (مؤلفات المشرفي)، فإذا هو ـ رغم ظروفه وهجرته وثقافته العصامية ـ كاتب يستحق الدراسة والاهتمام. وقد أسهم الأستاذ عبد المنعم القاسمي الحسني أيضاً في التعريف بالمشرفي ـ استناداً في الغالب إلى بحوثنا عنه ـ، كما أسهم في ذلك آخرون، وبذلك أخذت الصورة عن المشرفي تزداد وضوحاً في أعين الباحثين.

إن لكل مؤلف من مؤلفات المشرفي أهمية خاصة في موضوعه. ويهمنا هنا منها كتابه (ذخيرة الأواخر) الذي نقدمه للقراء بعد أن قام الأستاذ القاسمي بدراسته. فقد بنى المشرفي كتابه الذخيرة على ستة أبواب من التاريخ العام والتاريخ الخاص. ونقصد بالتاريخ العام ما يمكن أن نسميه تاريخ البشرية، أي منذ آدم عليه السلام إلى الدولة العثمانية. أما ما نعنيه بالتاريخ الخاص فهو تاريخ الجزائر في العهدين العثماني والفرنسي (إلى حوالي سنة 1877). والباب الأخير (الخامس) منه هو الذي درسه الأستاذ القاسمي. وبالإضافة إلى عنايته بالباب الخامس فإنه درس عصر وحياة المشرفي، وسلط الضوء على المخطوط وأثراه بتعاليق مفيدة.

وكان القاسمي حذراً في دراسته فلم يسم ما قام به في المخطوط «تحقيقاً»، ذلك أن للتحقيق شروطاً معينة، وهي ما تزال غير متوفرة لذخيرة الأواخر. فالأستاذ القاسمي ـ رغم جهوده الواضحة في خدمة القطعة التي اختار تقديمها من المخطوط ـ لم يجمع ما تفرق من النسخ ولم يسافر إلى الموطن الثاني (المغرب) الذي أقام به المشرفي وألف فيه كتابه، بحثاً عن المفقود من الذخيرة، وإنما اكتفى بالموجود منها، وهو النسخة المتوفرة في مكتبة الزاوية القاسمية. كما أنه لم يخرج بطائل حول ما إذا كانت النسخة التي اعتمدها هي الجزء الأول أو الثاني من المخطوط أو هما معاً. وليس هناك وصف دقيق لخط ولا تاريخ تأليف الكتاب ولا نسخه ولا مقاس أوراقه، وغير ذلك من المعلومات الضرورية في التحقيق. ولكن القاسمي ذكر قائمة هامة من المصادر والمراجع

منها كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) الذي يبدو أنه اعتمد عليه اعتماداً كبيراً سواء ذكره في التعاليق أو لم يذكره بالاسم.

ورغم تعاليقه الغنية التي تدل على جهد كبير في البحث والتنقيب والاطلاع فإن القاسمي علق على الشعر الوارد في المتن أو صحح أخطاءه العروضية والمطبعية أو اختار لمتنه عناوين مناسبة تتلاءم ومحتواه. كما أنه ترك كل العناوين المضافة على الجانب الأيمن دون أن يجعل عناوين رئيسية في الوسط وأخرى فرعية في جوانب الصفحات. ومن المتعارف عليه في تقنيات المنهج العلمي أن الكلام المنقول من المؤلف يوضع بين علامات التنصيص المعلومة، تمييزاً له عن غيره من الكلام المضاف، ولكننا لا نكاد نظفر بذلك هنا، ومن ثمة لا نكاد نفرق في المتن بين كلام المؤلف وكلام المعلق. كما أن منهج الإحالات لم يخضع لقواعد متعارف عليها في أغلب الأحيان. وكنا نأمل أن يتساءل القاسمي: لماذا تضمن كل جزء من الذخيرة حديثاً عن العهد العثماني، وأن يناقش المؤلف في قوله إنه كان يجيب بتأليفه من لا تسعه مخالفته، وهي عبارة تقليدية يلجأ إليها بعض المؤلفين لتبرير قيامهم بالتأليف وليست بالضرورة تعبيراً عن الحقيقة.

والغريب أن وسائل المشرفي لم يسأله إلا عن سيرة ملوك الأتراك في الجزائر وعن الدولة العلوية بالمغرب، فإذا بالمشرفي لا يكتفي بالإجابة على السؤال بل بدأ كتابه بتاريخ البشرية وخصص أربعة أبواب (من ستة) للكتابة عن موضوع لم يسأل عنه أصلاً. ثم إن الباب الخامس ليس كله خاصاً بالأتراك في الجزائر، بل إننا نجد أغلبه عن الفرنسيين. وهذا خطأ منهجي واضح من قبل المشرفي، ومع ذلك لم يناقشه فيه الأستاذ القاسمي. ثم إن المشرفي وضع للباب الخامس عنواناً وهو «في دول الإسلام من دولة نبينا... وخلفاء الإسلام إلى الدولة العثمانية». فكم هي الصفحات التي خصصها المشرفي لموضوعه (الأتراك) في هذا الباب؟ أما الباب السادس فهو خاص بالدولة العلوية. ولكن هل خصص المشرفي لهذه الدولة كتاباً كاملاً أو باباً فقط من كتابه هذا؟ وهل

أهملت الدراسات المغربية الرجوع إلى هذا المصدر؟ وقد اشتكى المشرفي من قلة المصادر، بينما مؤلفات أبي راس الناصري وأحمد بن سحنون وابن زرفة ومسلم بن عبد القادر (وكلهم من شيوخه)، معروفة ومتداولة عندئذ. ألا يثير هذا الشك والمناقشة في نفوس الباحثين؟

ورغم عدم تلبية دراسة الذخيرة للشروط المثالية فإنها تقدم معلومات هامة عن الجزائر خلال القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر الهجري. فالمشرفي يبدو قد غير رأيه في الأمير عبد القادر، وهو الرأي الذي أعلنه سابقاً في كتابه (طرس الأخبار) الذي كتبه في وقت مبكر من حياته. فبعد أن كان الأمير واقعاً تحت تأثير «أهل دائرته الفجار» وغير بريء من ارتكاب الأخطاء، نجده في الذخيرة قد أصبح في الحرم القدسي وفي جوار الأنبياء.. مكرماً عند الناس... يأمر ويأتمر. وكان المشرفي يكتب مثل هذا الكلام في آخر حياة الأمير عندما كان الفرنسيون أنفسهم راضين عنه. وفي الذخيرة أيضاً معلومات عن دور أولاد سيدي الشيخ، وعن الطريقة الدرقاوية، وعن حملة نابوليون على مصر ولقاء المشرفي لواليها محمد علي، وعن فعل البروسيين بالفرنسيين في الحرب السبعينية، وهي الحرب التي قال عنها المشرفي إن حوالي خمسين ألف جزائري خاضوها (مع الفرنسيين) ضد البروسيين بينما لم يشر - فيما نعلم - إلى حرب القرم التي تجند لها الجزائريون في الجيش الفرنسي الحليف لجيش الدولة العثمانية. كما أن في الذخيرة معلومات عاطفية وغير دقيقة عن العلماء الجزائريين الذين وظفتهم السلطة الفرنسية.

ومن جهة أخرى تكشف الذخيرة عن رأي المشرفي في العصر وأهله وزعمائه، فقد سجل أنه قابل محمد علي باشا والي مصر عند مروره بمصر لأداء فريضة الحج. وكان ذلك أيام شبابه وفي عهد نهضة مصر الاقتصادية واتساع سمعتها السياسية في الشام والحجاز والسودان. وسجل المشرفي أيضاً رأيه في الحكم الفرنسي في الجزائر وهو أنه حكم إيجابي لا يتدخل في شؤون المسلمين وأنه يحترم العلماء والإسلام والمواثيق، وهو رأي لا تؤكده الوقائع التاريخية،

وربما جاء نتيجة عدم اطلاع المشرفي على أحوال الجزائر بالتفصيل أثناء زيارته السريعة والمبرمجة. فالذي يعيش تحت الاستعمار غير الذي يأتي زائراً أو ضيفاً ثم يخرج. وربما هيأت له الإدارة الفرنسية ظروفاً خاصة جعلته يرى اللون الأسود وردياً. فهو يخبر علماء فاس بعد رجوعه من الجزائر قائلاً «دخلت الجنة في بحبوحة جهنم»، مضيفاً أن علماء الجزائر لا يتعرضون للأذى لأن رؤساءهم الفرنسيين قد أمنوهم يوم دخولهم الجزائر. وهم لا يتعرضون للدين الإسلامي خلافاً للإسبان الذين يعملون ـ في رأيه ـ على تغيير دين المسلم. فالفرنسيون يتركون المسلم مسلماً والعالم عالماً ولا يتعرضون للدين... وإن كانوا لا يحبون إلا دينهم. وهذا في الواقع يدل على نجاح الدعاية الفرنسية مع المشرفي الذي انطلت عليه الأمور، وربما يدل أيضاً على سذاجته بحيث صدق كل ما قيل له أو شاهده على السطح.

غير أن ما قلناه عن اضطراب منهج المشرفي وعدم دقة آرائه وعن أسلوب دراسة الذخيرة لا ينقص من أهميتها كوثيقة مصدرية عن تاريخ الجزائر في مرحلة خطيرة من مراحل العهد العثماني والاستعمار الفرنسي. فنشرها سيضيف إلى الباحثين رأياً آخر في الحكم العثماني وسيتوسع في دائرة الاستعمار الفرنسي لتشمل التاريخ المغاربي كله لأن هذا التاريخ قد أخذ يتلون باللون الفرنسي/ الأوروبي منذ 1830. ونتمنى أن يواصل الأستاذ عبد المنعم القاسمي إمداد المكتبة العربية بنتاجه الغزير في ميدان المخطوطات التي له منها رصيد لا ينضب، وله في فهمها باع طويل ورغبة ملحة في نشرها.

جامعة الجزائر، 6 ديسمبر، 2003

الحركة الدينية والإصلاحية

في منطقة القبائل 1920 ـ 1945

لماذا سلطت الأضواء في السنوات الأخيرة على منطقة القبائل أكثر من غيرها من مناطق الوطن، هل يرجع ذلك إلى أن أهلها أكثر من غيرهم نشاطاً وحيوية وتعلماً؟ هل يرجع لقرب المنطقة من العاصمة ومن موقع القرار في السلطة؟ هل لأن كثيراً من أهلها موجود في الخارج، خصوصاً في فرنسا، مما يجعلهم أكثر صلة بالثقافات وأكثر عرضة للتيارات والمؤثرات؟ هل لأنها منطقة لم تدخل التاريخ إلا منذ الدولة الحمادية في بجاية، وربما منذ تأسيس الإمارات العربية الشريفة كإمارة كوكو وإمارة مجانة، بل منذ ظهور المرابطين والأشراف في زواياها المنتشرة في قمم وسفوح الجبال؟ هل للسياسة الفرنسية الاستعمارية دخل في تسليط الأضواء على المنطقة حيث استعملت «سياسة الجزرة والعصا» فضربت أهلها بيد من حديد أولاً ثم أخذت في تقريبهم كأنهم جزائريون «متميزون» أو ممتازون؟

أسئلة كثيرة وأجوبة قليلة بـدت لنا ونحن نتصفح عمل الأستاذ مقران يسلي الموسوم بالحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل من 1929 إلى 1945، فهو عمل يجيب على كثير من الأسئلة التي طرحناها ويكشف عن خلفيات المنطقة المتمثلة في تاريخها السياسي والاجتماعي والثقافي. وقد بذل جهداً كبيراً في الوصول إلى المعلومات التاريخية ثم في تمحصيها وتقديمها للقراء سائغة سهلة، ولكنه لا يدعى أنه جمع كل الحقيقة، كما أننا لا نعتقد أنه

وصل إلى الكثير من الحقيقة، ومع ذلك فالكتاب يمثل خطوات هامة في الطريق الصحيح. ولا ندري إن كان جميع القراء سيتفقون معه في جعل بجاية هي القطب الثاني ـ بعد تيزي وزو ـ لمنطقة القبائل، وحتى إذا صح ذلك فإنه يصح على العهد الفرنسي وليس في جميع العهود، ذلك أن بجاية وجوارها كانت تدور في فلك الأندلس والإمارات الإسلامية التي كانت القيروان عاصمة لها. أما في العهد الحفصي فقد كانت بجاية محسوبة على تونس وقسنطينة. ولكن مكانة بجاية ضعفت وأفل نجمها في العهد العثماني مما جعل أهلها ومَنْ جاورهم يتجهون إلى قسنطينة أو إلى جزائر الثعالبة.

أما تيزي وزو فهي مدينة حديثة العهد كقطب للمنطقة، وليس لها جاذبية تاريخية ولا تأثير حضاري كالذي لبجاية أو حتى مشدالة وحمزة (البويرة) ودلس، فكيف أصبحت تيزي وزو هي قطب الرحى لمنطقة القبائل ومركز الجذب في النهضة السياسية والإصلاحية والاقتصادية، بعد أن تطورت إدارياً؟ وكيف أصبح أهلها الأشداء الملتصقون بجبل جرجرة هم أصحاب الكلمة على الحضر من أهل بجاية الذين تربوا في النعومة والرفاه الاقتصادي؟ أليس هناك تكرار لنظرية ابن خلدون في تغلب العصبية البدوية (الجبلية) على الرقي الحضاري الذي اشتهرت به بجاية؟ ذلك ما يكشف هذا الكتاب عن جزء منه على الأقل.

يريد الأستاذ مقران يسلي بالحركة الدينية النشاط الإسلامي والنشاط المسيحي في المنطقة، فالمساجد والزوايا وعمارتها بالطلبة والشيوخ والمرابطين ومناهج التعليم ونمط العيش كلها تدخل في النشاط الديني الإسلامي، وكان لهذا النشاط تاريخ عريق يرجع إلى عهود المرابطة في الثغور دفاعاً عن الإسلام ورداً لغارات الإسبان وغيرهم على سواحل شمال إفريقيا، من سواحل وهران إلى سواحل عنابة والقالة حيث نشأت الربط المجهزة بوسائل الدفاع، عبر بجاية ودلس وشرشال. وحين نهضت الدولة العثمانية وممثلتها الإيالة (الدولة)

الجزائرية بدور الدفاع عن الإسلام تحولت أغلب الربط إلى زوايا للتعليم وجمعيات لأفعال الخير والإحسان للفقراء وفداء الأسرى وشكلت هذه الربط خطاً داعماً للمجاهدين في البحر والبر. وحتى لا تبقى الجهود مشتتة التف الأتباع والمريدون في جمعيات وتنظيمات أهلية أصبحت تعرف بالطرق الصوفية حيث الولاء للمرابطين أو لأحفادهم وللمقدمين وأنصارهم. فكانت منطقة القبائل من أوائل المناطق التي شهدت هذه التنظيمات والتجمعات حول الزوايا والطرق الصوفية التي منها الشاذلية والزروقية والرحمانية...

كما أن النشاط الديني المسيحي قد تمثل في حركة التنصير التي قامت بها الكنيسة الكاثوليكية في المنطقة، كما لحق بها ونافسها النشاط الديني للمبشرين البروتستنت أيضاً. بدأ التنصير في منطقة القبائل منذ الأربعينات من القرن 19 حين غزت القوات الفرنسية المنطقة في عهد المارشال بوجو الذي ينعتونه بقاهر المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر، ثم تدعمت واشتدت بعد تغلب القوات الفرنسية على المقاومة المحلية سنة 1857، (معركة إيشريضن) الشهيرة التي برزت فيها فاطمة نسومر. وفي عهد الإمبراطورية الثانية نشطت حركة التنصير وتعددت الكنائس وتنافست فيما بينها سيما أثناء عهد المجاعات والكوارث الطبيعية: 1866 ـ 1868. ثم عرفت المنطقة عهد (الأندجينا) وهي مجموعة القوانين والإجراءات التعسفية التي اتخذها الفرنسيون لتقييد حرية الأهالي في الجزائر كلها ومعاقبتهم بعد ثورة 1871 التي ذهب ضحيتها الآلاف من القتلى والجرحى والمشردين الذين انتزعت أملاكهم وأراضيهم وجردوا من حقوقهم وواجهوا الضرائب وأحكام الإعدام. لقد استغلت الكنيسة هذا الظرف العصيب ونشطت كما لم تنشط من قبل، وجاءها الدعم الرسمي والشعبي والبابوي. ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفرنسية اهتماماً خاصاً بالمنطقة، وأخذت تخطط بهدوء وعلى مدى بعيد للفصل بينها وبين بقية مناطق الوطن، عن طريق تشريعات جديدة في القضاء والإدارة والتعليم والسياسة:

- انتزاع الحكم من يد «الجماعة» ثم إعادته بعد حين تحت شروط جديدة.

- فرض التعليم الابتدائي على بعض أبناء المنطقة دون سواهم من أطفال الجزائر.

- فصل «العرف القبائلي» عن الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية.

- فصل نواب القبائل في المجلس المالي عن بقية النواب المسلمين في نفس المجلس.

- توزيع معلمي القبائل الناطقين بالفرنسية على مدارس المناطق الناطقة بالعربية لإحداث التمايز والفتنة بين المواطنين.

بينما اهتمت حركة التنصير بنشر التعليم الفرنسي بين أبناء القبائل وإقامة المصحات والملاجىء ومساعدة المتنصرين على الهجرة وتشجيعهم على الاختلاط بالعناصر الأوروبية، كانت إدارة الشؤون الأهلية التابعة للحكومة تتعامل مع الكنيسة وتقدم إليها المساعدات في الخفاء (لأن فرنسا أعلنت عن فصل الدين عن الدولة منذ 1905 أي أنها دولة لا ئكية/ لا دينية) في ظاهر الأمر على الأقل.

هذه الأنشطة المختلفة كرس لها الأستاذ مقران يسلي حيزاً هاماً من كتابه، وعرفنا من خلال دراسته العلاقة المتوترة التي كانت بين رجال الدين - أهل الزوايا والمريدين - وعامة المسلمين في المنطقة من جهة وبين رجال الكنيسة من آباء بيض وأخوات بيضاوات من جهة أخرى. لقد كان رجال الدين المسلمون تحت رعاية الشعب أما رجال الكنيسة فقد كانوا تحت حماية السلطة الاستعمارية التي كان يمثلها إداريون وخبراء في الشؤون الأهلية من أمثال كميل صابتييه ودومنيك لوسياني وجان سيرفييه. لقد كانت المعركة سجالاً بين الطرفين ولكنها كانت معركة هادئة وحازمة.

في هذا الجو المشحون ظهرت الحركة الإصلاحية في منطقة القبائل.

كانت روح الإصلاح متأصلة في المنطقة، وهي ترجع إلى دور المهاجرين الجزائريين في المشرق، سيما بلاد الشام، فالعلماء الذين كانوا ينشطون هناك لصالح النهضة العربية الإسلامية في الشام كان كثير منهم من أصول جزائرية مهاجرة، وفيهم من يرجع إلى منطقة القبائل خاصة، وكانت بين هؤلاء النشطاء وعلماء الزوايا وبعض الموظفين لدى السلطة الفرنسية في المنطقة صلات عائلية ومراسلات وزيارات.

وفي هذا الصدد نذكر الشيخ طاهر الجزائري السمعوني ووالده الشيخ صالح وابن أخيه الضابط سليم الجزائري وبعض العلماء المهاجرين من دلس وبجاية وبني يني والأربعاء نات إيراثن ومشدالة وبني ورتلان. فقد كانت بين بعض هؤلاء المهاجرين وعلماء من أمثال السعيد بن زكري وأبي يعلى الزواوي مراسلات ومذاكرات. وعن طريق هؤلاء كانت تصل مجلة المنار الإصلاحية لمحمد رشيد رضا ومجلة الفتح لمحب الدين الخطيب وكتب عبد الرحمن الكواكبي وأخبار النهضة العربية الإسلامية في العراق ومصر والشام والحجاز، فكانت منطقة القبائل قد اتصلت بالحركة الإصلاحية الإسلامية والنهضة العربية مبكرا، أي قبل أن تتصل بها على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لاحقاً.

ولما شرع الشيخ ابن باديس في حركته التعليمية والإعلامية (الصحافة والجولات الشخصية في أنحاء الجزائر) تعاون مع رجال العلم في المنطقة، وفيهم بعض رجال الطريقة الرحمانية، وكان من تلاميذه البارزين الشيخ الفضيل الورثلاني وسعيد صالحي والربيع بوشامة، كما عادت من المشرق العربي شخصيات علمية مؤثرة أمثال الشيخ أرزقي الشرفاوي والشيخ المولود الحافظي اللذين درسا في الأزهر الشريف، وكلاهما ترك بصماته على المنطقة، والشيوخ الهادي الزروقي، ويحيى حمودي وعلي أو لخيار...

امتدت أنشطة جمعية العلماء بعد أن دخلها عدد من رجال العلم

والإصلاح من المنطقة، إلى المدارس العربية الإسلامية الحرة تنشئها وتوسع مداها فأصبحت تتعاون مع الزوايا من جهة وتنافس مراكز التعليم الكنسي من جهة أخرى. وعرفت المنطقة صحوة علمية وإصلاحية استمرت إلى عهد الثورة حتى أن عدداً من زعماء هذه الصحوة كانوا تلاميذ في هذه المدارس التي أثمرت ثماراً طيبة. ولم تكتف جمعية العلماء بنشر العلم والإصلاح في المنطقة بل هاجرت مع المهاجرين في فرنسا فأرسلت إليهم من يعلمهم شؤون دينهم واللغة العربية في ديار الغربة فأسس هؤلاء الدعاة النوادي التهذيبية والمدارس حتى لا ينقطع الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد. ومن العلماء الذين نشروا حركة الإصلاح في فرنسا وساهموا في تهذيب وربط الجالية المهاجرة بالوطن والإسلام نذكر تلاميذ الشيخ ابن باديس الذين سبق ذكرهم: الربيع بوشامة والفضيل الورثلاني وسعيد صالحي، بالإضافة إلى سعيد البيباني، وكان هؤلاء أنفسهم من نخبة الحركة سيما الورثلاني وبوشامة، فالأول خطيب مفوه بالعربية الفصحى التي فاق بها خطباء المشرق، والثاني شاعر ذواق له ديوان شعر في موضوعات شتى.

وقد تتبع الأستاذ مقران يسلي هذا النشاط في منطقة القبائل في مختلف اتجاهاته، كما قلنا، ونحن لا نتمنى سوى أن يتابع ما نشر في اللغتين العربية والفرنسية حول موضوع النهضة والإصلاح في منطقة القبائل، وأن يجعل كتابه هذا يتجاوب مع الأحداث ويتماشى مع التيارات التي تعرفها المنطقة. وإذا اقتضى الأمر فإن عليه أن يكتب عملاً جديداً يبدأه من حيث انتهى في هذا الكتاب لأن المنطقة، كالجزائر كلها، تشهد تطورات سريعة، وهي واقعة تحت الأضواء الكاشفة لأهمية موقعها وانتشار أهلها في الجزائر وفي ديار الهجرة المشرقية والغربية. ونحن نعرف أن الأستاذ يسلي قادر على ذلك (إنشاء الله) علماً وطموحاً واطلاعاً، وبذلك يكون قد أدى للجزائر والحضارة الإسلامية خدمة جليلة.

شهداء الثورة في منطقة الأوراس

إذا نطق الأوراس ارتجت مختلف الجبال، وإذا عد الأوراس شهداءه خشعت كل القلوب وطأطأت كل الرؤوس. فقد كان الأوراس قبل الثورة ملجأ للمناضلين ومخزناً للسلاح ومحضنة للأبطال، وبعد اندلاع الثورة كان الأوراس رائداً في الكفاح إلى أن بلغت الثورة الفطام واشتد عودها في أنحاء القطر.

ظاهرة السبق هذه سجلتها (جمعية رواد مسيرة الثورة في منطقة الأوراس) في آلاف الصفحات، ونشرتها على الناس في مجلدات. وهي جمعية تعمل في صمت ودون أضواء تلفزيونية ولا تصريحات صحفية، ولا مظاهر احتفالية، كما تفعل جمعيات أخرى تبهرنا بوعودها ولا تتحفنا بإنجازاتها، نسمع ضجيجها ولا نرى طحنها. فقد وضعت (جمعية رواد مسيرة الثورة) بين أيدينا جزئين ضخمين، يحمل كل منهما عنوان (شهداء منطقة الأوراس). و«المنطقة» هنا تعني ما اصطلح عليه قادة الثورة الأوائل حين قسموا الجزائر إلى مناطق جغرافية، وهي تشمل اليوم عدة ولايات.

وهكذا صدر الجزء الأول من شهداء منطقة الأوراس 1954 ـ 1962 في سنة 1423/ 2002 محتوياً على 1040 صفحة، كما صدر الجزء الثاني بتاريخ 1426/ 2005 في 1104 صفحات. وكلاهما طبع في دار الهدى بعين مليلة.

كل جزء من الكتاب مقسم إلى فصول، ففي الجزء الأول خمسة فصول وفي الجزء الثاني ثلاثة فصول. ولك أن تتصور حجم كل فصل إذا كان الكتاب كله يتجاوز الألفي صفحة. ومهما كان الأمر فإن كل فصل يحتوى على مادة

خاصة به بنسق محكم، حسب عدد الشهداء في كل مرحلة من مراحل الثورة. فالكتاب يؤرخ ـ كما قلنا ـ للشهداء في كل سنة من سني الثورة بطريقة الحوليات ويمسح المنطقة التاريخية المعروفة التي تشمل اليوم عدة ولايات.

فالفصل الأول (وهو الأطول) من الجزء الأول يؤرخ للمجاهدين الذين أعدوا وأطلقوا الثورة من عقالها ثم لاقوا ربهم، وقد بلغ عددهم سنة 1954 واحدا وثمانين شهيداً. وفي السنة الموالية بلغ عدد المجاهدين المؤرخ لهم الذين التحقوا بالثورة منذ 1955 ثم استشهدوا، ستة وثلاثين شهيداً. كما بلغ عدد المجاهدين الذين التحقوا بالثورة منذ سنة 1956 ونالوا الشهادة وتناولهم الكتاب ستة عشر شهيداً، أما المجاهدون الشهداء الملتحقون بالثورة منذ سنة 1957 وأرخ لهم الكتاب فهم ثمانية فقط. ولم تجمع لسنة 1958 سوى ثلاث شهادات لثلاثة شهداء. ولا تنس أن الكتاب لا يتحدث عن مجموع الشهداء في المنطقة عبر السنوات المذكورة، ولكنه يتحدث عن أولئك الذين استطاع الباحثون أن يجمعوا عنهم شهادات لكي يضمهم الكتاب.

أما الفصول الأربعة الباقية من الجزء الأول فهي تتحدث عن أمور أخرى تتعلق بالثورة، فالفصل الثاني مثلاً يتحدث عن هجوم جيش التحرير على المركز الفرنسي في بلدية امعافة الواقعة في دائرة عين التوتة سنة 1956. وفي الفصل الثالث رد على من سماه الكتاب «الضابط المثقف»، وهو هنا المجاهد عبد الحفيظ أمقران الذي كتب في مذكراته عن منطقة الأوراس. وتناول الفصل الرابع مناقب بعض الشهداء، وعقد بعض المقارنات. وأخيراً يأتي الفصل الخامس الذي ضم عدة ملاحق، شملت المجاهدين المتوفين بعد الاستقلال وعددهم عشرة، وألقاب العائلات التي ضحت بأعداد كبيرة من الشهداء حتى بلغ عددهم ثمانية عشر لقباً من العائلة الواحدة. وضمت بعض الملاحق مجموعة من الوثائق والمخطوطات والإحصاءات فكانت 78 وثيقة. بالإضافة إلى خريطة.

وقد سار الجزء الثاني من كتاب (شهداء منطقة الأوراس) على نفس المنهج ما عدا أن فصوله لم تتجاوز الثلاثة بينما صفحاته تجاوزت الألف. فالفصل الأول منه تحدث عن أربعة وأربعين شهيداً سنة 1954، و55 شهيداً سنة 1955، و29 شهيداً سنة 1956، و14 شهيداً أيضاً سنة 1957، و09 شهداء سنة 1958، و09 شهداء أيضاً سنة 1959.

وتناول الفصل الثاني الكمائن والمعارك والهجمات، مع ذكر السنة التي وقع فيها الحادث، سيما سنة 1956 ـ 1957. وأما الفصل الثالث فهو خاص بالملاحق وتناول الأغاني الشعبية، وبعض المجاهدين الذين توفوا قبل الاستقلال وبعده فكانوا ثمانية عشر. كما تناول ألقاب بعض العائلات، كما فعل الجزء الأول، وجاء بشهادة الرئيس الأسبق أحمد بن بلة، وأخبار عن المشاركين في إعداد الكتاب، إضافة إلى ذكر بعض المخطوطات وما أنتجته جمعية أول نوفمبر وجمعية رواد مسيرة الثورة في ميدان البحث التاريخي.

هذا هو المحتوى العام لكتاب (شهداء منطقة الأوراس) بجزئيه. وقد كتب له التصدير السيد علي عزوزي فوضع فيه الأمور في نصابها بحيث غاص في المشاعر والأحداث التاريخية وتساءل عدة أسئلة هي الشغل الشاغل لكل مؤرخ مثل: لماذا استشهد الشهداء؟ ثم ماذا بعد؟ أهذا هو كل ما في الأمر؟ ونكاد نستشف تساؤلاً آخر وهو هل ضحى الشهداء من أجل أن تعيش الجزائر والجزائريون على ما هم عليه اليوم؟

كما كتب المقدمة الشيخ محمد الطاهر عزوي فربط بين ثورة نوفمبر وثورة الإسلام الأولى، وأبرز الشبه بين شهداء الأمس وشهداء اليوم في عدة مظاهر استخلصها من عبر التاريخ، وقارن بين المجاهدين الأطهار وبعض المجاهدين الذين تلطخوا بأوضار الشؤون الدنيوية. وقد حرص على إبراز أسماء مثل مصطفى بن بولعيد ومحمد الشريف بن عكشة وعمر طورش وغيرهم من الأبطال الأوائل الذي أذرت عليهم السافيات، كما يقول الشاعر الجاهلي، أو أصابهم

الإهمال وقلة الاهتمام في نظره. (ج 62/1). وقد تأثر الشيخ عزوي بالمناهج التاريخية الحديثة التي استفاد منها رغم أنه متشبع بمناهج العرب والمسلمين في كتابة السيرة والرواية والقصة والتاريخ.

وقد جمع الكتاب بين هذه الأصناف جميعاً فمهد الشيخ عزوى لتاريخ الجزائر الحديثة والمعاصرة، وأشار إلى السكوت المطبق الذي حل بتاريخ الثورة في العقدين الأولين من الاستقلال، قبل أن ينادي المنادى بانعقاد أول ملتقى حول تاريخ الثورة الذي كاد ينسى.

ومن نتيجة هذا الملتقى الذي انعقد في نادي الصنوبر سنة 1981 عقد الملتقى الأول حول الثورة في الأوراس. وهو الملتقى الذي انبثقت عنه لجان للبحث في تاريخ الشهيد مصطفى بن بولعيد. وكان من نتيجة الملتقى الأخير صدور كتاب ضخم عن هذا المجاهد برعاية جمعية أول نوفمبر التي تأسست في باتنة سنة 1988 (كما تأسست جمعيات مماثلة في الولايات الأخرى). وكان هدف الجمعية تخليد وحماية مآثر الثورة في الأوراس. وقد انتخب لها المجاهد محمود الواعي.

وبعد حوالي عشر سنوات (1997) تأسست (جمعية رواد مسيرة الثورة في منطقة الأوراس) لتكون مهمتها المحافظة على ذاكرة المنطقة وكتابة تاريخ شهدائها وإحياء ذكراهم. وهي جمعية تهتم اليوم بكل الولايات التي كانت تشملها الولاية الأولى في عهد الثورة. وقد أحسن أعضاء الجمعية صنعاً، فبدل إحياء الذكريات العابرة والمهرجانات قرروا اقتحام الطريق الصعب وهو العمل المباشر المفيد الباقي، وهو كتابة موسوعة عن الشهداء بشهادات الأحياء، مجاهدين وأحفاداً وأصدقاء. فأعدوا استمارة طبقاً لمنهج محدد وأرسلوا بها إلى مختلف الولايات الحاضرة التي كانت تقع في دائرة الولاية الأولى سابقاً. وقد وصف الشيخ عزوي كيف سارت الأمور بعد ذلك، وكيف تصرفوا في المادة التاريخية التي وصلتهم، وهي عملية ليست سهلة لأنها تتطلب الأمانة وحذف

المكررات وصياغة أسلوب موحد في كل الكتاب. وهو يخبرنا أنهم ساروا على منهج كتابة السيرة النبوية وسير الصحابة (ج 1/16) عندما يتعلق الأمر بالتدقيق والإسناد.

إذا قرأت سير الشهداء كما عاشوها ورواها أصحاب الشهادات فإنك ستكتشف ظواهر تميزت بها الثورة وكانت بلا شك من أسباب نجاحها. من ذلك أن كثيراً من الشهداء الأوراسيين استشهدوا في أماكن بعيدة عن قراهم ومساقط رؤوسهم. فقد كانوا يمثلون فعلاً، مع غيرهم، الوحدة الوطنية واللحمة التي نسجت صلابة الثورة فلم يستطع شقها معول الهدم الذي رفعته يد المستعمر، فكان منهم من استشهد على تربة الولاية السادسة أو تربة الولاية الثالثة أو غيرهما من التراب الوطني. ذلك أنهم، مثل غيرهم من شهداء المناطق الأخرى، كانوا يحاربون عدواً واحداً وهو الاحتلال ومن أجل هدف واحد وهو تحرير الجزائر. ولا يهمهم بعد ذلك أين يناضلون ولا أين يستشهدون، ولسان حالهم قول الشاعر المجاهد:

ولست أبالي حين أُقتَل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

فقد كان شهداء الأوراس (والثورة عموماً) يحملون أسماء مستعارة ولا يهمهم أن يعرف الناس أنهم من هذه الدشرة أو تلك، من هذه القبيلة أو الأخرى. كما يلاحظ من سيرهم أن الكثير منهم افتتحوا حياتهم بتعاطي الفلاحة أو الرعي.

وكثير منهم أيضاً - الأوائل بالخصوص - كانوا متشبعين بروح الإسلام وتاريخ الصحابة، وقد نذروا أنفسهم لله والوطن واسترجاع عزة الإسلام (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فلم يكن همهم حظوة ينالونها أو منصب يتولونه. وذلك هو معنى الفداء وقمة التضحية. ومنهم من تعلم على يدي والده أو أحد أفراد عائلته الذين لهم صلة بالعلم وحياة الزوايا، أو درسوا في مدارس محلية فتحتها جمعية العلماء أو على يد شيخ نذر نفسه لبث العلوم العربية والإسلامية في

البلدة ونشر الفكر الوطني والإصلاحي بين شيبها وشبابها. وقد واصل بعض هؤلاء التلاميذ تعلمهم في معهد عبد الحميد بن باديس أو المعهد الكتاني في قسنطينة أو في جامع الزيتونة بتونس قبل أن يصبحوا من مفجري الثورة ومن قادتها. (ومن هؤلاء رعيل تضمهم قائمة طويلة منهم: محمد العموري، أحمد نواورة، الأزهر شريط، عباس لغرور، سي علي سعادة، إسماعيل مختاري، الهاشمي عبد الصمد، عمار ملاح، ومحمد بلعروسي بخوش...).

وقد كان تاريخ الإسلام ماثلاً أمامهم فاتخذوه مثلاً في المصابرة والمرابطة، فقد جاعوا وحوصروا كما جاع بنو هاشم حين ضيقت عليهم قريش الخناق في مكة، حتى أكلوا العشب وزلزلوا زلزالاً شديداً. وللنساء قدوة بالخنساء التي فقدت عدداً من أبنائها فصبرت واحتسبتهم لله. كما اقتدين بالنساء الأوراسيات اللائي صبرن أثناء المقاومة في القرن التاسع عشر والعشرين. ولذلك فإن الشهادة عند أهل الأوراس ليست فقط فردية بل هي جماعية أحياناً، فأسماء العائلة الواحدة تتكرر في قائمة الشهداء حتى تعتقد أنها قد حاربت حتى فنيت عن آخرها أو كادت.

من أولئك الشهداء الشباب من كان متشبعاً بالروح الوطنية عاملاً في صفوف حزب الشعب وحركة الانتصار، أو كان نشطاً في الفرق الرياضية والكشافة الإسلامية ولكنه آمن بالتحرير الثوري للجزائر، ومنهم من تدرب على السلاح في المنظمة الخاصة، وكان بعض هؤلاء الشباب قد دخلوا المدارس الأهلية ـ الفرنسية، وبعضهم حارب في الحرب العالمية الثانية وفي حرب الهند الصينية (مثل الشهيد بوجمعة بن أحمد). وكان قائدهم جميعاً في المراحل الأولى من حياتهم النضالية هو مصطفى بن بولعيد الذي كان مثلهم الأعلى في الفداء والتضحية، فقد نال الشهادة الابتدائية الفرنسية، وكانت روحه الوطنية أقوى من كل المغريات الأخرى، فسخر ماله وأملاكه لخدمة المنظمة الخاصة وتوفير السلاح وتجنيد المناضلين للثورة، وكما كان ابن باديس مثلاً أعلى في

النضال الثقافي والتربوي كان ابن بولعيد مثلاً أعلى في النضال السياسي والعسكري.

ولكن العمل الضخم والجاد لا يخلو أحياناً من هفوات. ذلك أن في الكتاب صيغاً للمبالغة تكاد تتكرر في شهادات الشهود، وأحياناً في شهادة المناضل نفسه على دوره في الثورة. كما أن هناك عدم دقة أحياناً في التواريخ لأن الاكتفاء بذكر السنة للحدث لا يكفي، بل يفضل استحضار الشهر على الأقل، واليوم إن أمكن. ونفس الشيء يقال عن عدم تحديد المكان أحياناً. وقد لاحظت أن بعض الشهداء غير مذكورين أصلاً، ربما لعدم توفر المعلومات عنهم حتى الآن. ومنهم الشاب عبد الكريم عباس الذي عرفناه في القاهرة وكان قد درس في معهد ابن باديس، وكان ـ كما عرفناه ـ مثالاً للخلق والأدب والوطنية (وفي تقديرنا أن هناك من يعرفه اليوم في باتنة، وقد ذكره المحامي محمد مهري في مذكراته). إن هذا الشاب قد تطوع للثورة سنة 1956 من القاهرة ودخل تونس رفقة صديقه محمد الطاهر زعروري ثم اختفت آثارهما، ومع ذلك لم نعثر على اسمه في الشهداء الذين ضمهم الكتاب.

أما محمد الطاهر زعروري فقد تطوع أيضاً من القاهرة سنة 1956 وكان نموذجاً للشاب الوطني الحازم المتميز بالشجاعة الأدبية والاعتداد بالنفس. وكما ذكرنا سابقاً توجه مع صديقه عبد الكريم عباس وآخرين إلى تونس، ومنها انقطعت أخباره. ومن الأكيد أنه تطوع سنة 1956. وقد وجدت مسجلاً في يومياتي المنشورة اليوم على الناس أن آخر يوم رأيته فيه بالقاهرة هو 13 مايو.

أما الكتاب الذي بين أيدينا فقد جاء فيه أن زعروري قد تطوع سنة 1955 (وهو خطأ) وأنه كان ما يزال حياً سنة 1958، وأن المجاهد إبراهيم مزهودي قد ولاه لجنة الرقابة في الولاية الأولى، وأنه عمل أيضاً تحت إمرة محمد العموري وأحمد نواورة، وعلى كل حال فقد اختفت أخبار زعروري كما اختفت أخبار عباس، ولا نعرف عنه بعد ذلك سوى أنه استشهد ودفن في بلدة غسيرة

بعد الاستقلال. أما الذي كان شائعاً عند طلبة القاهرة عندئذ فهو أن زعروري قد صفي جسدياً مع آخرين لأنه كان متهماً بمعارضة مقررات مؤتمر الصومام، خصوصاً وأنه كان ـ كما قلنا ـ جريئاً وخطيباً ولا يتراجع عن قناعته.

إن كتاب شهداء منطقة الأوراس ليس قاموساً لأعلام الشهداء، ولكنه مجموعة من الشهادات والوثائق كتبها أصحابها أو جمعها الغيورون على تراث الثورة حسب «استبيان» دقيق، ثم قامت لجنة بغربلة المعلومات وتحريرها وإعادة صياغتها حسب مواصفات محددة، وهو أيضاً كتاب مدعوم بصور شخصية ونسخ من وثائق مصورة وخريطة وإحصاءات. ومن الطبيعي ـ والحالة هذه ـ أن تكون فصول الكتاب غير متوازنة ومادته غير موزعة بالقسط، فبينما الفصل الأول من كل جزء سمين إلى حد البدانة نجد الفصول الأخرى، في كل جزء نحيلة إلى درجة الهزال.

وفي الختام نقول إن المبادرة أوراسية والهمة أوراسية ولكن المعلومات جزائرية والأهداف وطنية، وهذا يكفي لإسداء الشكر والتهنئة لجميعة رواد مسيرة الثورة.

الجزاء (ابن عكنون)، 2 مارس 2006

التاريخ الاجتماعي لتوات والأزواد

دراسة المدن والتجمعات السكانية وما جاورها أصبحت تشكل منعطفاً جديداً في مجال التاريخ. فإلى وقت غير بعيد كان الاهتمام منصباً على التاريخ السياسي والعسكري، وإذا تجاوز الباحثون ذلك بعض التجاوز فإنهم يضيفون إليه التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وربما يسلطون الأضواء على مسار بعض الأفراد فيترجمون لأشخاص أسهموا في التحولات الثقافية والحياة الأدبية والفنية وما إلى ذلك.

وقد راج هذا النوع من الدراسات في الجامعات والبحوث من أوروبا وأمريكا. ووصل حديثاً إلى بعض جامعات المشرق العربي، فأخذت به وظهرت، نتيجة لذلك، أعمال عميقة متخصصة في مدن وأقاليم بأعيانها معتمدة على مختلف المصادر، بما فيها المصادر المحلية من سجلات إدارية ودفاتر المحاكم الشرعية والمخطوطات والنوازل، بالإضافة إلى الإحصاءات الرسمية ودراسة طبوغرافية للمدينة أو المنطقة ولجغرافيتها ولغطائها النباتي وإنتاجها الحيواني وحراكها البشري ونظامها الاجتماعي.

ومن أقاليمنا المهملة أو المجهولة إقليم توات وإقليم الأزواد بالجنوب الغربي للجزائر وجوارها. فهذه الناحية ظلت بعيدة عن أعين المستعمرين في العصر الحديث، رغم أنها ظلت معبراً للقوافل التجارية بين الشمال والجنوب، وبذلك شكلت محطات رئيسية في الطريق بين البحر الأبيض المتوسط والقارة الإفريقية ولا سيما السودان الغربي منها، فمنطقة توات والأزواد وما جاورهما كانت مسرح نشاط تجاري وصوفي وعلمي طيلة قرون قبل «اكتشافها» من قبل

الرحالة الأوربيين في القرن التاسع عشر، ذلك أن موقعها الداخلي وصعوبة مسالكها الطبيعية جعلت الوصول إليها لا يتم إلا بعد مغامرات خطرة يكون الهلاك دونها أحياناً.

لقد قام الأستاذ محمد حوتية، وهو ابن المنطقة، بعمل كبير في هذا الميدان، فاستفاد من توجهات الدارسات التاريخية المشار إليها ومن المناهج العلمية، ومن المصادر المحلية وكتب كتاباً هو أصلاً أطروحة دكتوراه قدمها إلى جامعة الجزائر منذ سنوات قليلة. والواقع أنه اهتم بإقليمي توات والأزواد منذ بدأ يحضر للماجستير، فقد جعل موضوعه عندئذ عن (قبيلة كنته بين إقليم توات والأزواد)، واكتشف عندئذ أهمية المنطقة والثروة الوثائقية التي تحتوي عليها، كما شعر بإهمال الدارسين لها ربما لبعدها أو جهلهم بها وبعادات وتقاليد أهلها، فعزم بعد حصوله على الماجستير أن يواصل نفس المهمة وأن يوسع نطاق البحث فيها، فكان له ما أراد، وجاء بهذا «المونوغراف» الغني بالمعلومات.

ومن دوافعه إلى خوض هذا البحر اكتشافه محافظة المنطقة على التراث العربي الإسلامي رغم العزلة وتباعد المسافات بين قصر (قرية) وآخر واختلاف النظام الاجتماعي والطبقي، وطرق توزيع الماء، وكثرة التأليف في ميدان الفقه والنوازل (الفتاوى)، وانتشار الطرق الصوفية، ومكانة العلماء والقضاة، ودور المساجد والمكاتب، وأهمية التجارة والمسالك والأسواق. وقد شعر الأستاذ حوتية أنه معني أكثر من غيره باكتشاف المنطقة وتقديمها على حقيقتها للباحثين والقراء، فهو الذي بانتمائه الجغرافي، استطاع أن يبرز أهمية المنطقة سياسياً، واقتصادياً وثقافياً. فهي محطة للتواصل بين الجزائر وجيرانها غرباً وجنوباً، وكيف يصح في عصر كالذي نعيشه أن تظل توات والأزواد مجهولة أو مهملة. إنها صلة الوصل بين سكان القارة السوداء وسكان المغرب العربي منذ فجر التاريخ، وقد ازدادت أهميتها منذ الفتح الإسلامي. ففيها ترسخت حضارة الإسلام وانتشر التأليف بالعربية وإليها لجأ زعماء المقاومة الشعبية حين ضغط عليهم الاستعمار في الشمال في القرن التاسع عشر.

ومن الصعب تلخيص أفكار الكتاب وبنْيته العلمية، ولكننا سنحاول أن نسير مع المؤلف في مراحل عمله. فهو قد بدأ بالحديث عن أصل تسمية توات والأزواد وقصورهما وقصباتهما ونظامهما الاجتماعي وإنتاج أرضهما، وعلاقتهما مع جيرانهما ومن عابري أراضيهما. كما درس نظام استخراج المياه وتوزيعها وصولاً إلى نهر النيجر، وأنواع الزراعة والماشية. واهتم بدراسة الحرف والصناعات التقليدية والتبادل التجاري عن طريق المقايضة وغيرها، وإخضاع المواد الأولية المتوفرة إلى واقع البيئة. وخلال ذلك نعرف أنساب القبائل وتحالفاتها وأصولها ونمط معيشتها. كما نعرف سلسلة من أبرز المدن التاريخية والحديثة، مثل تمنطيط، وتيميمون، وأولف، وتيديكلت، وتمبكتو.

هذا هو الوجه المادي من العُمْلة. ولكن الدراسة تهتم أيضاً بالجانب الروحي والتربوي والثقافي. وهو شأن مهم للغاية بالنسبة لكتاب متخصص في إقليمي توات والأزواد. ذلك أن الطرق الصوفية مثلاً كانت قد أدت دوراً خاصاً في تجمع سكاني يعيش على هامش دول وصراعات بالمنطقة. وأهم الطرق التي انتشرت في الإقليمين المذكورين هي القادرية (وهي تقريباً أم الطرق وأقدمها عهداً) والتجانية التي لا يبعد مقرها كثيراً عن الإقليمين ويعتبر مؤسسها (الشيخ أحمد التجاني) من أهل القصور أيضاً وله امتداد في الصحراء الوسطى والغربية. أما الطريقتان الأخريان فهما محليتان: الموساوية والشيخية. ولكل طريقة مريدون وحضرة ونشاط ديني وروحي واجتماعي وسط تجمع سكاني يعيش على التجارة العابرة للصحراء وقبائل ذات مصالح مختلفة قبل أن يحل بينها الأجانب ويوظفوا خلافاتها لصالحهم. ومن نتاج هذه الطرق ظهور عدد من الزوايا استطاعت أن تحافظ على الوجود الإسلامي والعربي للإقليمين وأن تواصل ترسيخ الحضارة الإسلامية، وأن تقوم بالخصوص بدور التوعية وحفظ القرآن الكريم والتربية الإسلامية ونشر القيم المستمدة من التراث بما فيه التقاليد والعادات. وهناك عدد من الزوايا التي كان لها صيت وتأثير مثل زاوية أبي الأنوار بتيدكيلت، وزاوية بدريان بتيميمون، وزاوية كنته العريقة التي حافظت

على القرآن لكريم، ودراسة الفقه.

ومن جهة أخرى، وفي النطاق الثقافي دائماً، قام الأستاذ حوتية بدراسة عدد من العلماء وإسهاماتهم العلمية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وذكر أيضاً عدداً من مؤلفاتهم التي تشهد على دورهم في التاريخ والمجتمع، ومنهم علماء هاجروا إلى توات والأزواد هروباً من الصراعات السياسية في الشمال. ومن مظاهر النشاط الثقافي آثار مجالس الشورى وهي الآراء الفقهية التي تتضمنها النوازل، وقد ذكر منها الأستاذ حوتية نوازل الغنية ونوازل الجزلاوي، ونوازل الجنتوري، ونوازل الشيخ باي الكنتي. كما نوه بما توفره الأوقاف من سجلات ومصدر للرزق وللتعليم عموماً.

ويلحق بالنوازل المخطوطات المتوفرة في توات والأزواد التي لم يستغلها الباحثون من قبل، ولا سيما المخطوطات التي تتناول المناقب، ومنها سلوة الأحزان، ونظم الياقوتة، ونسيم النفحات، (في أخبار توات وأوليائها وصلحائها) وجوهر المعاني ودرة الأقلام والطرائف والقلائد. إضافة الوصايا حول التركات والأوقاف، وهي أجوبة (فتاوى) العلماء لمن سألهم، وكذلك الأشعار المتنوعة وأغراضها المختلفة، وقد ظهر أن المنطقة كانت تتوفر على شعراء من الرعيل المتقدم. وهناك خزائن لمكتبات شخصية عديدة استفاد منها المؤلف، مثل خزانة ابن عبد الكبير، وخزانة شاري، وخزانة الشيخ باي، وخزانة الصوفي، وخزانة العقباوي، وخزانة الرقادي، وأخيراً مركز أحمد بابا بمدينة تمبكتو. وقد استفاد المؤلف أيضاً من بعض المصادر الأوروبية التي بدأت في الاهتمام بالمنطقة في القرن التاسع عشر، مثل كتب الرحالة والجغرافيين و«المستكشفين».

إن دراسة الأستاذ حوتية دراسة شاملة ـ كما قلنا ـ لمختلف المجالات في المنطقة. فلم يهمل دراسة التراث الشعبي، ولا المناسبات الاجتماعية التي فيها هذا التراث. ومن النقاط البارزة التي تميز تراث المنطقة امتزاج التأثير الإفريقي مع التأثير العربي والإسلامي، وهي تأثيرات تظهر في اللباس والرقص والغناء

والألعاب والموسيقى. كما تظهر في الهندسة المعمارية المتميزة في القصور والقصبات والأضرحة ونحوها، فهي أيضاً قد امتزجت بالحضارة العربية والإسلامية والحضارة الإفريقية، ومن ظواهر ذلك وجود الأسوار والخنادق لحماية القصور من الغارات المفاجئة، فهي هندسة دفاعية.

لقد ظلت توات والأزواد في عزلة مريحة قروناً، ولكن الغزو الأوروبي امتد إليها في نهاية المطاف. كان ذلك بعد عدة «بعثات» استكشافية أرسلها الفرنسيون إلى المنطقة محاولين ربط مستعمراتهم (وبالخصوص الجزائر) بمستعمراتهم في غرب إفريقيا. وبعد البعثات جاءت الحملات العسكرية وتوظيف سياسية (فرق تسد) والسيطـرة على المـوارد الاقتصـاديـة والتجـاريـة وإخضـاعهـا لمشيئـة المصـالـح الاستعمارية. وبذلك خرجت توات والأزواد من العزلة ولكن بعد فقدان الحرية والمصالح الذاتية. وكنا نود أن لو تحدث المؤلف عن التاريخ السياسي للمنطقة لنعرف ولاءاتها وارتباطها ونظامها في الحكم: هل كان مثلاً يخضع لإرادة شيوخ العشائر أو لنظام الجماعة على غرار ما كان يحدث في قرى ومدن الجزائر في الجهات الأخرى أو كان الأمر مختلفاً في توات والأزواد. ونحن نرجو، وقد أصبحت الأطروحة كتاباً أن تصفَّى من بعض الشوائب وأن تخضع لصياغة جديدة تجعلها قريبة إلى أسلوب التحرير المعاصر حتى يتسع جمهورها وتعم فائدتها (ومنها الملاحق الكثيرة التي قد تثقل كاهل الكتاب).

إن الأستاذ محمد حوتية قدم من الناحية التاريخية والعلمية عملاً ضخماً وبحثاً جاداً بذل فيه سنوات من المطالعة والجمع والتصنيف. وها هو الآن يضعه بين يدي القارىء. ولا يسعنا إلا أن نهنئه على جهده وأن نشكره على أنه أتاح لنا فرصة التمتع بقراءة مخطوطه أولاً ثم تقديمه إلى القراء ثانياً. والشكر لله الذي رزق أبناء توات والأزواد باحثاً منهم يكشف عن تاريخهم ويعرّف العالم بهم ويجعل لهم مكاناً في التاريخ ضمن مؤرخي الجزائر الصاعدين.

ابن عكنون (الجزائر) أول ديسمبر 2005

الشاب الجزائري

الواقعية واللاواقعية في السياسة الجزائرية بين الحربين كانت هي المحك لنشأة قيادة الرأي الوطني (الأهلي). فدعاة الواقعية كانوا يطالبون فرنسا الاستعمارية بالمساواة ثم الاندماج للتمتع بثمار الحضارة، بينما كان اللاواقعيون يرفضون إدخال أي تغيير على المجتمع الجزائري حتى لا تخدش هويته الحضارية، بالإضافة إلى نوع آخر من اللاواقعيين وهم أولئك المعارضون للاندماج والمطالبون بالاستقلال. وكان فرحات عباس من دعاة الواقعية. فقد بدأ حياته واقعياً وكان طول حياته منسجماً مع عقيدته السياسية حتى وهو على هرم الثورة، بل إن واقعيته هي التي بررت وضعه على رأس الحكومة المؤقتة سنة 1958.

يبدو من كل التطورات التي خضع لها فرحات عباس والآراء التي أبداها أنه رجل موهوب حقاً. فقد كان زعيماً مثقفاً بينما تزعم زملاؤه الأحزاب والحركات وهم نصف متعلمين أو شبه أميين، وكان له قلم ذرب يجري بما في فكره من معارف وآمال، وله موهبة سياسية ظهرت آثارها وهو ما يزال طالباً في الجامعة، ثم وهو جندي في الجيش الفرنسي، ثم تغذت موهبته من تقلبات السياسة الاستعمارية وتحولات العالم والقراءة المستمرة في الفكر الأوروبي حتى أصبحت له شخصيته الخاصة وآراؤه المستقلة في الدين والسياسة وأسلوب الحكم وفي الاستعمار والوطنية. لقد دخل الميدان بالقلم كاتباً صحفياً، وكان صيدلياً بالمهنة وسياسياً بالغريزة، ثم زعيماً بفضل شخصيته وتجاربه وطموحه، فلا غرابة أن

ملأ فرحات عباس الساحة السياسية الجزائرية بين 1930 و1964 رغم معارضه.

بعد الدراسة المستفيضة تبين أن هناك أوجه شبه وأوجه اختلاف بين فرحات وحمدان خوجة رغم أن بينهما قرناً من الزمان. . كان خوجة على صلة بالسلطة العثمانية من خلال والده وخاله ثم ربط صلة مع سلطة الاحتلال الفرنسي من خلال نفوذه ومعرفته بالفرنسيين قبل الاحتلال، وكان فرحات عباس أيضاً على صلة بالسلطة الفرنسية من خلال والده وربما من خلال آخرين من عائلته. كلا الرجلين استطاع أن يحتج على النظام القائم بأنه من خدامه وأساطينه، وكلاهما كان محسوباً على الاتجاه الواقعي المعتدل بالمعيار الذي ذكرناه، لايتكلم من موقع التطرف ولكن من موقع مراعاة المنفعة للطرفين المتواجهين، وكلا الرجلين خاب فيما أمل من السلطة القائمة. كل منهما قد اتهم بأنه كان رومانسياً فيما ذهب إليه، لأن السلطة التي خاطبها كانت تغض الطرف والأذن والفؤاد عن الحوار والنصيحة ومراعاة المنفعة المتبادلة. كلاهما كتب كتاباً يعتبر إدانة لتصرفات الاستعمار وعبر عن مخاوفه مما سيحدث للجزائر إذا تمادت السلطة في غيها ولم تبدل سياستها نحو الأهالي ولم تعتمد على النخبة المحلية. (فالشاب الجزائري) الذي نشر سنة 1931 و(مرآة) الجزائر الذي نشر سنة 1833 يمثلان الخط المتواصل لسياسة فشل النخبة الجزائرية من جهة وعجرفة السلطة الفرنسية من جهة أخرى. أما أوجه الاختلاف بين الرجلين (حمدان خوجة وفرحات عباس) فهي كثيرة، منها أن كليهما كان يتكلم باسم نخبة لا سلطة لها تقريباً، ولذلك افتكت منها الراية حركة المقاومة الريفية في البداية وجبهة التحرير الوطني في النهاية.

لم يؤلف فرحات عباس كتاباً سنة 1931 وإنما جمع مقالات سبق له نشرها في جريدة (التقدم)، تلك الجريدة التي كان يديرها أحد أعضاء النخبة الاندماجية في عشرينات القرن الماضي وأحد معارضي الأمير خالد في سياسته المطالبة بالمساواة دون التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، وهو بلقاسم

ابن تامي (التهامي؟). كان ابن تامي هذا طبيباً ماهراً وسياسياً فاشلاً، وكان من دعاة الاندماج بدون شروط ولذلك تجنس بالجنسية الفرنسية دون مراعاة الأحوال الشخصية الإسلامية، ومع ذلك احتضن ابن تامي مقالات فرحات عباس التي كانت شديدة اللهجة في الرد على الخصوم من المستوطنين والساسة الفرنسيين، وعلى رأسهم لويس بيرتران وجان سيرفييه. وكان فرحات عباس قد وقع هذه المقالات «الساخنة» باسم مستعار، وهو كمال بن سراج (أحد الرموز الأندلسية) لأنه كان يكتبها وهو يؤدي الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي. وعندما نشرها في كتاب بعنوان (الشاب الجزائري) انكشف السر وعرف الاسم الحقيقي فتعرض صاحبه للضغط من قبل الصحافة الاستعمارية (صحافة المستوطنين بالخصوص). والواقع أن فرحات عباس كتب ما كتب تحت ضغط الظروف عندئذ، فقد كان الفرنسيون قد جلبوا على الجزائر بخيلهم ورجلهم من أجل الاحتفال المئوي بالاحتلال ومن أجل إشعار الجزائريين بأنهم أناس منهزمون مقهورون. إن مقالات الشاب الجزائري يجب أن تفهم على أنها دفاع عن الأهالي، وأنها رد على اتهامات ظالمة تضمنتها صحافة النخبة الاستعمارية، لقد كان فرحات عباس في كتابه يحتمي - في نظره - بفرنسا الديمقراطية ضد فرنسا الاستعمارية.

من من شبابنا اليوم يتمثل قضايا بلاده - وهو في العشرينات من عمره - تمثل فرحات عباس لقضايا بلاده في وقته، ثم يكتب عن «المواطنين» كما كتب عباس عن «الأهالي» ويدافع عنهم بنفس الأسلوب وبنفس الحماس وبنفس الحجج الدامغة. إن (الشاب الجزائري) صفحة قوية من الدفاع عن الإسلام والعرب والبربر والمنافحة عن الرسول (ﷺ). وقد ناقش فيه مؤلفه قضايا التعليم وقابلية التعلم بالنسبة للجزائريين تحت الحكم الفرنسي، وعالج شروط الاندماج والمساواة دون التخلي عن الشويعة الإسلامية، وتكلم كلاماً لا يتقنه سواه عن المسيحية التي رمز لها بـ «هيبة المدفع». إن فرحات عباس يبدو في الشاب الجزائري «صاحب قضية» حاملاً لهموم ينوء بها صدره. وقد كبرت معه القضية

وثقلت عليه الهموم حتى تقاعد وودع الحياة السياسية، بل إنه لم يستسلم للدعة والراحة حتى بعد التقاعد.

وخلال المرحلة الطويلة التي قضاها في الميدان، اشتغل فرحات عباس «مساعداً» في ظل الدكتور ابن جلول زعيم حزب الاندماجيين، ثم أنشأ تنظيماً خاصاً به وهو الاتحاد الشعبي كما تزعم حركة احتجاجية محتشمة خلال الحرب العالمية الثانية، ووجه تقريراً وافياً تضمن مظالم الجزائريين إلى الماريشال بيتان، الحاكم الفرنسي تحت الهيمنة الألمانية، ثم حرر بيان الشعب الجزائري وأرسل نسخاً منه إلى الحلفاء (الأمريكان والإنجليز والروس والفرنسيين والديغوليين). ونتيجة لهذه الجرأة السياسية والتصدر لقيادة التيار الاحتجاجي، ونتيجة لمجزرة الثامن مايو 1945 قيد فرحات عباس إلى سجن الكدية بقسنطينة، قبل أن يصبح زعيماً لحزب البيان الديمقراطي إثر العفو العام الصادر سنة 1946.

وقبل اندلاع ثورة التحرير جرب فرحات عباس التعامل مع الواقع الاستعماري فرفع شعار «الجمهورية الجزائرية» وأسس لها صحافتها ووضع لها برنامجها وخاض به الانتخابات المحلية (المجلس الجزائري والمجالس الإقليمية والبلدية) والانتخابات البرلمانية الفرنسية (برلمان فرنسا) وأصبح متكلماً باسم النخبة في البرلمان الذي يدير شؤون المستعمرة (الجزائر) وتنافس مع نواب حزب الشعب (حركة الانتصار) على تمثيل الجزائر، واستطاع أن يجلب إليه عطف رئيس جميعة العلماء الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (كما اكتسب عطف الشيخ عبد الحميد بن باديس من قبل). وغداة الثورة كان فرحات عباس هدفاً للاتصالات من جانب الفرنسيين ومن جانب الثوار معاً، ولكن الاتصالات لم تثمر، ثم تأكد عباس بحنكته السياسية أن السفينة الوطنية قد جنحت وأنها لن تعود إلى المرسى القديم، فركبها وأصبح بالتدرج ربانها بعد اختياره في مؤتمر الصومام عضواً في المؤتمر الوطني للثورة، ثم اختياره بعد سنة واحدة إلى حكومة مؤقتة في المنفى هو رئيسها.

هذه المرحلة المتعرجة في الواقع السياسي الجزائري لم يخضها زعيم آخر من جيل فرحات عباس فيما نعلم. فقد أثبت تاريخ هذا الرجل أن دوره لن يتكرر وأن بصماته على التاريخ الجزائري المعاصر لن تزول بسهولة. كان فرحات عباس قد درس تاريخ الحضارات ولا سيما تاريخ الإسلام، وكان فيما يبدو من النصوص والشواهد التي يوردها، أنه معتز بالإسلام واللغة العربية (رغم أنه لا يتقنها) ومعتز بتقاليد مجتمعه، ومن أجل ذلك كان يناقش المستشرقين في آرائهم، أمثال غوستاف لوبون ولوثروب ستودار وهنري ديكاستري وغيرهم. ولم يكن يشعر بالنقص إزاء تقدم الحضارة الغربية، ولكنه كان يعمل ويتمنى أن يصل شعبه المسلم المستعمر إلى مصاف فرنسا واليابان وغيرهما من الشعوب الآخذة بأسباب الحضارة الحديثة. وكان واثقاً أن الشعب الجزائري (والمسلمين عامة) قادراً على الوصول إلى هذا الهدف وأن القيود الاستعمارية فقط هي التي تحول بينه وبين الوصول إلى هذا الهدف. لقد كان في جداله مع الآخرين يستشهد (رغم حداثة سنه عندما كان يكتب الشاب الجزائري) بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتراث الأدب العربي.

كان فرحات عباس ضليعاً في الفكر السياسي وخبيراً في التيارات التي قامت على أساسها الثورة الفرنسية والفلسفة الحديثة كالليبرالية والشيوعية والماركسية، كما كان مطلعاً على أحداث التاريخ الإسلامي والأوروبي والعلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، كالحروب الصليبية. وقد تبلورت هذه الثقافة عنده وبرزت في كتبه اللاحقة بشكل ملفت للنظر. فقد أقام فلسفته السياسية على محاكمة الاستعمار على ما ارتكبه من مجازر (مذبحة قبيلة العوفية) وجرائم كالتمثيل بالموتى، والتعسف في القوانين كقانون الأنديجينا. ووصل به الأمر أن أصبح ينظر إلى المستقبل نظرة غائمة (غموض الغد، حسب تعبيره). ولكنه في نهاية المطاف كان متفائلاً، ولم يتراجع عن هذا التفاؤل حتى في أحلك الظروف كالثامن من مايو 1945 والهزات المزلزلة التي عاشتها الثورة الجزائرية.

إن التقرير الذي بعثه فرحات عباس إلى المارشال بيتان هو الذي جعل منه بحق زعيماً غير معلن حاملاً لهموم الشعب الجزائري في ظروف صعبة غابت عنها جميع الأصوات الأخرى، لأسباب مختلفة. ولعل وقوفه موقف المدافع عن حقوق الشعب عندئذ هو الذي رشحه لصياغة بيان عام 1943، باسم الشعب الجزائري. فقد اجتمع بزملائه السياسيين الذين تمكنوا من الاجتماع، وبعد التداول في وضع ومصير الشعب ومسار الحرب اختير لصياغة البيان الذي أصبح «مرجعاً» في تاريخ العلاقة السياسية بين فرنسا والجزائر. وإذا كانت أحداث مايو 1945 هي المرجع العسكري لثورة التحرير فإن بيان فبراير 1943 قد أصبح هو المرجع السياسي لها. واللافت للنظر أن الشعب الجزائري «المتسامح» قد غفر لفرحات عباس زلته بين الحربين حين أنكر وجود الأمة الجزائرية عبر التاريخ، قبل أن يراجع التاريخ ويصحح زلته ويصبح «بطلاً» مدافعاً عن وجود الأمة، الجزائرية ذات التاريخ الراسخ الطويل.

بقي أن نختم بالقول إن نقل كتاب (الشعب الجزائري) من الفرنسية إلى العربية قد جاء في وقته بل ربما تأخر عن وقته، وهو لا يخدم مسيرة فكر فرحات عباس فقط ولكنه يخدم تاريخ الجزائر المعاصر بكل حرارة وجدارة. وقد أحسن الدكتور أحمد منور الترجمة فجاءت سلسة العبارة متينة البناء وفية المعنى، كما أنه أضاف إلى الترجمة تعاليق هامة. لذلك لا يسعنا إلا أن نهنىء الدكتور منور على هذا الإنجاز ونتمنى أن يتابع عمله هذا حتى يخرج للناس خالياً من الأخطاء المطبعية ونحوها ومتضمناً فهارس (كشاف) للأعلام وغيرها لأن ذلك سيخدم البحث العلمي في أوسع مجالاته، كما نتمنى أن يواصل مسيرته فيترجم الأعمال الأخرى التي كتبها فرحات عباس، فهي تمثل ثروة في الفكر السياسي العربي ومرجعاً أساسياً لتاريخ الجزائر المعاصر.

قمار 5 مايو 2005

حياة الشيخ التليلي

طلب مني فريق من الباحثين تصدير بحوثهم التي قدموها في ندوة الشيخ محمد الطاهر التليلي التي انعقدت بقمار خلال شهر ديسمبر 2004، ثم جمعوها في هذه المجموعة التي لم يطلقوا عليها حتى الآن عنواناً محدداً. وقد رحبت بالفكرة لسببين أولاً لأنهم تجشموا عناء البحث وأنجزوا بحوثاً يستحقون عليها الشكر، بعضها ما يزال بكراً في بابه وبعضها يمثل قراءة جديدة لما ألفنا سماعه وتسجيله. والسبب الثاني هو الوفاء للشيخ الطاهر التليلي الذي له علي دين ما دمت حياً، وهو وصبته لي بالسهر على نشر بعض أعماله ولا سيما ديوانه وكتابه الثابت والمحذوف في القرآن.

لو كان المرحوم الشيخ التليلي قد عاش في عصر بعيد عنا، عصر ازدهار الحضارة العباسية أو الأندلسية لكان ربما من كبار الموسوعيين الذين لا يشق لهم غبار. فقد جمع الذكاء الخارق والذاكرة الحية والحافظة التي لا تعرف الكلل ولا النسيان إلى آخر لحظة من حياته، كما أن طموحه العلمي لا يعرف الحدود، ونعني به الاستعداد لتصيد شوارد العلوم والمعارف من أية جهة ومن أي مصدر كانت وبأي وسيلة ممكنة ومهما كان عنوانها. فقد كان الشيخ مستعداً لتلقي المعارف الأدبية والدينة، كما كان مستعداً لقبول المعارف العلمية من فلك وحساب وكيمياء وفيزياء وموسيقى وغيرها. وإذا كنا نسمع ونقرأ أن بعض العلماء القدماء قد ألف موسوعات بلغت المجلدات الضخمة فظننا أن الشيخ التليلي كان في مقدوره أن يتفوق على بعضهم فيما أنجزوا من أعمال، مع ابتكار وتجديد،

لـو توفر له ما توفر لهم من مكتبـات وجوائز ومناظـرات ومجالس أدبية وعلمية.

لقد كان الشيخ ظاهرة فريدة في الجمع بين المعارف والعلوم والفنون، وفي الحكم على الأشياء والناس وإدراك بواطن النفس وخبايا الإنسان. ولعل العلم الوحيد الذي كان ينفر من الخوض فيه هو «السياسة» بالمعنى الذي صار عليه في العهد الاستعماري، لا بالمعنى الحضاري، فقد اكتوى بنار السياسة أثناء الحكم الفرنسي وممثليه سواء في قمار أو عندما ذهب للدراسة في تونس أو عندما ذهب للتعليم في نواحي بجاية، أو عندما ثارت الجزائر ضد القهر والاستبداد، وأخيراً عندما استقلت البلاد وبطر بعض «ولاة الأمر منا» فلم يراعوا له حرمة وكفروا بالنعمة. ومن ثمة كان انقباضه من هذه الأمور وشكه في الإنسان (الذي طغى أن رآه استغنى):

فلا ملجأ عنده إلا إلى الله، والإطالة في جدران بيته وغلق بابه في وجه الزائرين غير المرغوب فيهم، خوفاً من أذاهم. إن من يقرأ شعره ويتأمل خواطره ويتذكر مجالسه يلاحظ في غير عناء ابتعاده عما يشينه إلى ما يزينه، وهو يرى ذلك في الاحتفاظ بكرامته وصون علمه وأخلاقه. وقد بلغ من عنت بعض الناس به أنهم كانوا يستفتونه فإن وافق رأيه ما يريدون احتجوا به وإن خالفهم شنعوا عليه وآذوه. والواقع أن ذلك كان أمراً طبيعياً وفي كل العصور مع العلماء ولكن الشيخ التليلي كان مفرط الحساسية قوي الشعور بالمسؤولية أمام الله فيما يأتي وما يذر.

ومن ثمة تأتي صعوبة الدراسة لحياة وآثار الشيخ التليلي. فالذي لم يعرف نفسيته والذي لم يطلع على نشأته وظروفه العائلية والاجتماعية والاقتصادية لا يمكنه أن يغوص في معانيه ولا أن يدرك مراميه. وقد كان الشيخ «صعب المراس» في نظر أقرانه. فهم يعرفون أنه ليس مثلهم، يخالط كما يخالطون ويتكلم كما يتكلمون، ويؤل الأحداث والأقوال كما يفعلون. فقد كان بعضهم

إذا أراد مخاطبته في شيء يتوسل إليه بطريق غير عادية لأنه يعرف أنه إذا جاءه بالطرق العادية فلن يستجيب الشيخ لأنه لا يبالي بالمخالفة إذا كان ذلك يرضي ضميره، وعلى الطرف الآخر في نظره أن يتحمل ما اقترفت يداه لأنه غامر بطرق باب غير الباب الذي كان عليه أن يطرقه. والشيخ التليلي يزن الأشياء والأقوال بميزان الذهب، وقد يتراجع فيرفض ما كان قد قبله لأنه فكر وقدر ورأى أن السلامة في التراجع عن خطوة بعدها ندم. وأكثر الناس معرفة به ومعاناة عن عناده - فيما أعلم - هو صهرة الشيخ الحفناوي هالي، وأقرب من كان يعرف نفسيته من جيله هو الشيخ عبد القادر الياجوري الذي كان يخالفه ويحترمه، لأن الياجوري منفتح وغير هياب بينما الشيخ التليلي منقبض وهياب. ولذلك كان كل منهما يكمل الآخر إذا التقيا.

يضم هذا العمل ستة بحوث. بدأها الشيخ التجاني زغودة الذي حلل أوليات وحياة الشيخ من آثاره النثرية والشعرية، يتلوه الأستاذ موسى بن موسى الذي لملم مظاهر الحركة الإصلاحية بوادي سوف على مدى بضعة عقود، وهي الحركة التي تمثلت، بنظره، في نشأة وانتشار الطرق الصوفية وحياة بعض العلماء والنخب، والمكتبات ودور العلم. . . وقد عالج الأستاذ إبراهيم رحماني موضوعاً محدداً وهو اهتمام الشيخ التليلي بعلوم القرآن من قراءات ورسم وثابت ومحذوف. . . ومن جانبه ركز الأستاذ علي غنايزية على نشاط الشيخ التليلي في ميدان التعليم الحديث متتبعاً ذلك في مدرسة قمار وبرنامجها. . كما قدم الأستاذان أحمد زغب وعادل محلو موضوعين هامين من آثار الشيخ التليلي هما: عناية الشيخ بالمسألة اللغوية كما تظهر من تقييده حول رد العامي إلى أصله الفصيح، ثم شعر الأطفال عند الشيخ التليلي وميزته الفنية والنفسية والتربوية.

والحق أن هذه البحوث تمثل جهداً كبيراً في مجالها. فهي بحوث موثقة، ويظهر عليها الطابع العلمي خلافاً لما اعتدناه في مثل هذه الأعمال التي تنبثق

عن الندوات التي تتسم أعمالها غالباً بالارتجال والذاتية والابتعاد عن الروح العلمية. وإذا كانت هذه هي أول القطرات التي نزلت بمناسبة الذكرى الأولى لوفاة الشيخ التليلي فماذا نتوقع عندما تصبح القطرات غيثاً منهمراً؟ لذلك لا يسعني إلا تهنئة أصحاب هذه البحوث على ما بذلوه فيها معتقداً أن القراء سيجدون فيها مقاربة جديدة لفهم آثار الشيخ.

بن عكنون/ الجزائر، الأحد 27 مارس 2005

معاناة الذات

عرفنا الدكتور عبد الرزاق قسوم أستاذاً بجامعة الجزائر يلقي المحاضرات ويناقش ويشرف على الرسائل ويتولى الوظائف الأكاديمية، وقلما كان يشارك في الصحافة أو يحضر الندوات العامة إلا ما التصق باختصاصه، وهو الفلسفة الإسلامية والحديثة.

كما كنا نعرف أن ثقافته أهلته لأن ينشط في ميدان علمي آخر وهو الترجمة الفورية. ومن خلال هذا النشاط تولى جمعية المترجمين، وتنقل بين عدة عواصم للمشاركة في المؤتمرات واللقاءات الدولية والرسمية ليترجم من العربية إلى الفرنسية والعكس، ويسهم في عملية التثاقف وتلقيح الأفكار، ويسجل رحلات وانطباعات عن الشعوب الأخرى مما مكنه من إثراء المقالات التي نقدمها اليوم برصيد واسع من المعرفة الإنسانية.

ثم دار الزمن دورته، والزمن عند الدكتور قسوم له معنى خاص لأنه خصص له أطروحة الدكتوراه بتفاصيلها البحثية ومعاناتها، وعرف أسرار الزمن من الناحية الإنسانية والروحية أكثر ربما مما عرف عن زمن الثواني والدقائق والساعات والأيام. وفي إحدى دورات هذا الزمن العجيب تقاعد قسوم من الحياة الجامعية وتفرغ للبحث الحر والتأمل في خلق السماوات والأرض وما فيها ومن عليها. ثم دعاه الداعي الذي لا يرفض له طلب ففاز بعضوية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ثم أصبح نائباً لرئيسها. وجمعية العلماء إرث ورسالة منذ أسسها المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس ورفاقه، وكانت (علماً على رأسه نار) في تاريخ الثقافة الجزائرية في عهد الاستعمار البغيض. وما دام

لكل عصر أبناؤه وأفكاره فجمعية العلماء تتجدد وإن ظلت وفية لمبادئها الإصلاحية والوطنية ولعروبة وإسلام الجزائر. ولذلك وجدت نفسها بعد الاستقلال (فتاة العصر) التي عليها أن تتكيف معه وتخوض مشاكله وتصلح أحوال المجتمع الذي تعيش فيه بمنهج وأسلوب مختلفين عن المنهج والأسلوب اللذين تعاملت بهما مع الواقع زمن الاستعمار.

تعاون قسوم مع إخوانه في الجمعية في شتى الميادين وفي مختلف الأصعدة، ومن بينها تحرير جريدة (البصائر) التي كانت دائماً شعلة في وجه الاستعمار وقذى في عينه وشوكة في حلقه. وإذا كان الاستعمار قد غير ثوبه اليوم فقد كان على البصائر أن تكيف أيضاً خطابها دون تغيير مبادئها وأهدافها. وهكذا ظهر على صفحاتها جيل يكاد يكون جديداً من الشيوخ والشباب ليوجهوا قافلة الثقافة والإصلاح الديني والاجتماعي نحو الهدف الثابت الذي يعتقدون أن فيه إنقاذ الجزائر والمحافظة على شخصيتها العربية الإسلامية وسط الزعازع والعواصف التي يعلو غبارها وموجهاً جبال العولمة.

ومن ثمة أصبح الأستاذ قسوم صحفياً ناجحاً، ومثقفاً واسع الاطلاع على أحوال العصر والناس، فعالج، وهو «العارف بخبايا الأمور» كما يقول القدماء، على صفحات البصائر من سنة 2000 إلى سنة 2004 أبرز قضايا الساعة التي تهم تطور الجزائر وتقض مضاجع الحضارة العربية الإسلامية. ورغم أن الأحداث تتسارع في ساحتنا ويكاد ينسي بعضها بعضاً فإن قلم الأستاذ قسوم كان يلاحقها أولاً بأول وهي ساخنة مشحونة بالمشاعر والتوترات.

كم من قضية هزت كياننا خلال الأربع سنوات الماضية؟ بعضها شغلنا عن أنفسنا وبعضها هزمنا في معاركنا وبعضها كاد يقتلع من صدورنا جذور الإيمان. خذ مثلاً أحداث العراق، وفلسطين ، وأفغانستان، و 11 سبتمبر، وحالة الوطن العربي... ثم خذ مثلاً آخر الأحداث التي هزت الجزائر هزاً عنيفاً كفيضان باب الواد، والربيع البربري، وظاهرة العروش، والعشرية المجللة بالسواد والملطخة

بالدم، والنظام التربوي، وهجرة الشباب، وفخاخ الفرنكفونية، وحبائل اللائكية، ومزالق العولمة. . . كل هذه الأحداث تجد عنها وصفات الداء والدواء في هذه المجموعة من المقالات التي نقدمها لك. ووسط هذه الأحداث الجسام لم يهمل قسوم أحداثاً أخرى رمزية ولكنها ذات دلالة إنسانية كاستشهاد الطفل محمد الدرة وقضية الطفل الكوبي، ويوم العلم وأشباهها، ومن المقالات ما يسلط الضوء على بعض الشخصيات الرمزية كابن باديس، والإبراهيمي، وعدون، وحافظ الأسد وياسر عرفات ونظرائهم.

ووفاء للفلسفة والحكمة لم يهمل الأستاذ قسوم الحديث عن الصحوة الإسلامية، والانحراف الحضاري، والإصلاح السياسي والديني، وعن جامع غرناطة في عهده الجديد. . . وغيرها من القضايا ذات البعد الحضاري التي حفلت بها المقالات.

لقد عالج الأستاذ قسوم تلك القضايا بأسلوب خاص به، فهو قلما كان متسرعاً للقيام بعمل تحت إلحاح الزمن ليقدم مساهمته إلى المطبعة في ساعات محدودة. فمقالاته في أغلبها مدروسة وممتدة في العمق التاريخي وبعد النظر وحضور الأمثلة الواقعية. وتحرير المقالات يخضع عادة لعملية تهذيب وتشذيب أو إذا شئت لعملية تجميل وتزيين، لأن الأفكار مساقة في قالب أنضجته التجربة ومصاغة بنثر وخطه السجع المنغوم الذي يحلى السطور ويحدث جرساً موسيقياً جميلاً. واللغة العربية ليست فقط لغة أداء وتبليغ كاللغات الأوروبية التي نعرفها، ولكنها أيضاً لغة بيان وموسيقى تلامس الحواس فتنعشها كما تخاطب العقل فتنشطه.

ومنذ عهد طويل كاد يختفي عندنا فن المقالة الأدبية، وهو الفن الذي ازدهر في المشرق على صفحات الرسالة والثقافة المصريتين، وأحتضنته عندنا جريدة البصائر بقلم رئيس تحريرها وصاحب امتيازها الشيخ بشير الإبراهيمي. لقد حل في الوطن العربي عموماً فن المقالة الصحفية والسياسية والعلمية

والدينية، وكاد يختفي عندنا فن المقالة الأدبية المبنية على الفكرة والأسلوب، المقالة التي تخاطب العقل والعاطفة، وتأخذ بيد القارىء إلى حقول المعرفة لا عبر جسور إسمنتية أو حديدية ولكن عبر مروج خضراء تعبق بالعطر وبالحياة.

لقد أحسن الأستاذ قسوم بجمع مقالاته «البصائرية» في مجلد يعود إليه الراغبون من الأدباء والساسة وطلاب الفلسفة والصحافة، وكذلك الراغبون في الإطلاع على مواقف جميعة العلماء من قضايا العصر وأحداث المصر.

ابن عكنون 7 مارس، 2005

الفهارس العامة(*)

(*) تنبيهات:

- لم نفهرس الأماكن التالية: الجزائر، مدينة الجزائر، فرنسا، باريس وكذلك لم نفهرس الأعلام والأماكن وغيرها الواردة في الهوامش.
- كما لم نفهرس الموضوع من صفحة 257 إلى صفحة 263 لأنها تتعلق بالأطروحات وأصحابها.

1 ـ فهرس الأعلام

2 ـ فهرس الأماكن

3 ـ فهرس المؤتمرات والمنظمات...

4 - فهرس الكتب والدوريات